أستاذ مدرسة الصنعة في الأدب العربي

طفيل الغنوي

حياته وشعره

تأليف

الدكتور

محمد عبد القادر أحمد

أستاذ مدرسة الصنعة فى الأدب العربى

طفيل الغنوى

حياته وشعره

تأليف

الدكتور
محمد عبد القادر أحمد

١٩٧٩



مطابع الناشر العربى
٨ شارع الصحافة - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الأستاذ الدكتور يوسف خليف

أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب
بجامعة القاهرة

فى أواخر القرن الخامس الميلادى شهدت الجزيرة العربية حدثاً سياسيا ضخما كان له أعمق الأثر فى حياتها الاجتماعية وحياتها الأدبية ، وهو اشتعال حرب البسوس بين قبيلتى بكر وتغلب ، فقد شهدت هذه الحروب الطويلة المريرة حركة تطور فى حياة الشعر العربى انتهت بظهور مدرسة فنية متميزة هى مدرسة الطبع، على أيدى طائفة من الشعراء المبدعين نهضوا بالقصيدة العربية نهضة فنية رائعة أخرجتها من الدوائر الشعبية التى كانت تدور فيها أراجيز سريعة ترتجل ارتجالا تلبية لحاجات الحياة اليومية فى المجتمع القبلى، أو مقطوعات قصيرة تفرضها على الشعراء المناسبات الطارئة فى حياتهم ، إلى الدائرة الرسمية التى ترى فيها هذه القصيدة وقد اكتملت لها صورتها الناضجة التى تسيطر عليها طائفة من التقاليد الفنية الدقيقة ، وتتحكم فيها مجموعة من القوانين المحكمة التى حققتها لها الطلائع المبدعة من رواد هذه المدرسة :

المهلهل ، وطرفة ، وامرؤ القيس ، وعلقمة ، وعبيد ، وأضرابهم .

وليس معنى هذا أن حرب البسوس كانت هى كل الأسباب التى أتاحت لهذه المدرسة فرصة الظهور ، ومنحتها فرصة الحياة ، فقد شهدت الجزيرة العربية منذ القرن الرابع حركة ضخمة لتطور سياسى واجتماعى واقتصادى جعل من مكة قلب الجزيرة النابض الذى تهوى إليه أفئدة العرب جميعا ، مما أتاح للهجة قريش أن تصبح هى اللغة الأدبية الموحدة ، أو هى « العربية الفصحى » التى اجتمع عليها شعراء الجزيرة من شتى القبائل . غاية ما فى الأمر أن حرب البسوس كانت هى الرجة القوية التى ألهبت مشاعر الأبطال الكبار الذين خلقوا هذه الحركة

الضخمة من حركات التطور الفنى الذى أصاب القصيدة العربية فى هذه المرحلة من تاريخها .

فى أثناء هذه المرحلة من تاريخ القصيدة العربية ظهر شعراء استطاعوا أن يحولوا مجرى النهر الذى كان الشعر العربى يتدفق فيه فى بساطة ويسر، إلى مجرى جديد أشد عمقاً ، وأن يعبروا بهذه القصيدة من الشاطىء السهل المنبسط إلى شاطىء أكثر وعورة . واضعين بهذه الأسس الأولى لمدرسة جديدة فى تاريخ الشعر الجاهلى ، وهى مدرسة الصنعة التى بلغت أوج ازدهارها فى أثناء حرب داحس والغبراء التى دارت رحاها فى القرن السادس الميلادى بين قبيلتى عبس وذبيان حين لمع فيها أشهر شعرائها زهير بن أبى سلمى .

وقد استقر فى أذهان الباحثين أن هذه المدرسة ترجع إلى الشاعر الجـــاهلى الكبير أوس بن حجر ، وأنه هو الذى أرسى دعائمها ، ووضع قواعدها ، ورفع بنيانها ، ولكن الحقيقة التى تؤكدها الروايات العربية القديمة أن هذه المدرسة ترجع من قبل أوس إلى الشاعر الجاهلى القديم الطفيل الغنوى الذى كان أستاذاً لأوس وأستاذاً لزهير أيضاً ، وأقدم من الشعراء الذين عرفتهم هذه المدرسة فى العصر الجاهلى من أمثال النابغة الذبيانى وعنترة ، ومن هنا تأتى أهمية الطفيل فى تاريخ الشعر العربى ، فهو الصانع العبقرى الذى حول مجرى النهر ، وهو الرائد المبكر الذى سلك بالشعراء من بعده شعاب الشاطىء الصخرى الوعر محدداً لهم معالم الطريق ، راسماً لهم أعلامه وصواه .

وأساس الحركة التجديدية التى أثارها الطفيل فى تاريخ الشعر الجاهلى يقوم على اختلاف « نظرية الشعر » عنده عن غيره من شعراء مدرسة الطبع الذين سبقوه أو عاصروه . فالعمل الفنى عنـــده صناعة يفرغ لها صاحبها ، ويعنى بتجويدها وتنقيحها، ويعيد النظر فيها مرة بعد مرة، «يقومها بالثقاف، وينقحها بطول التفتيش » — على حد عبارة الناقد العربى القديم ابن قتيبة ، حتى يدخل بها « فى باب التكلف وأصحاب الصنعة ومن يلتمس قهر الـــكلام واغتصاب الألفاظ» — كما يقول الجاحظ العظيم. وإذا كان العمل الفنى عند شعراء مدرسة

الطبع أشبه شيء برسم اللوحات الطبيعية ، يتأمل الفنان منظرا من مناظر الطبيعة ثم ينقله بريشته المبدعة إلى لوحته مسجلا انطباعاته أمام الطبيعة وانفعالاته بها ، فإن العمل الفني عند شعراء مدرسة الصنعة أشبه شيء بنحت التماثيل ، يقف المثال أمام مثاله يتأمله ويفحصه ويطيل فيه النظر والتفتيش ، ثم يعكف على تمثاله ، ويفرغ له ، ينحته وفق مقاييس دقيقة ، ثم يعيد النظر فيه مرة بعد مرة ، ثم يأخذ في تسويته وتهذيبه وصقله ونفي فضوله وإضفاء اللمسات الفنية الأخيرة عليه، حتى يستوى على الصورة الفنية التي رسمها له ، مستهينا في سبيل ذلك بالجهد والتعب والعناء ونضح الجبين وسهر الليالي الطوال .

والواقع أن الطفيل لم يكن أستاذاً لمدرسة الصنعة الجاهلية فحسب ، وإنما كان أستاذا لكثير من الشعراء الجاهليين من كلتا المدرستين أيضاً ، تأثروا به في الصياغة والصورة والفكرة جميعاً ، وقديما قال الأصمعي عبارته المشهورة التي لا نريد أن نأخذ بحرفيتها لما يبدو عليها من مبالغة : «أخذ كل الشعراء من طفيل»

ومع ذلك فليس هذا هو كل ما للطفيل من دور في حركة الشعر الجاهلي ، فقد كان إلى جانب هذا كله ، واحدا ممن أجادوا في وصف الخيل في الشعر العربي ، وأحد ثلاثة عدهم القدماء أشهر من وصفوها في الشعر الجاهلي ، حتى لقبوه « طفيل الخيل » وهي براعة فنية أمدتها خبرة عملية طويلة ، خبرة الفارس العربي الأصيل الذي شب على الفروسية منذ نعومة أظفاره . وبهذا جمع الطفيل بين أرفع لقبين كان المجتمع الجاهلي يخلعها على فرد من أفراده : « شاعر فارس » .

* * * *

وبعد، فإني سعيد بأن أقدم هذه الدراسة عن الطفيل وشعره لجمهور الباحثين في الأدب العربي ، وأشهد أنها دراسة جادة وخصبة ، أخلص لها صاحبها الدكتور محمد عبد القادر أحمد إخلاصا صادقا ، وبذل فيها جهداً كبيراً ، وحشد لها طاقات ضخمة ، وعكف عليها سنوات ذوات عدد ، ليخرجها في هذه الصورة العلمية الدقيقة المحكمة ، فكان ـ بحق ـ صورة أخرى من صاحبه أناة وتجويداً

وتحبيراً ، و بذلا للجهد ونضح الجبين ، واستهانة بالتعب والعناء وسهر الليالى الطوال .

وفقه الله ورعاه ، وسدد خطاه إلى دراسات أخرى جادة ومخلصة؟

يوسف خليف

مقدمة

طفيل الغنوي شاعر جاهلي قديم ، من الشعراء الذين يستحقون الدراسة لما في شعره من جمال وطرافة ، ولما يمثله من بداية مبكرة لمدرسة الصنعة الجاهلية .

ولطفيل الغنوي ديوان شعر بتحقيق المستشرق كرنكو ، الذي كلف بتحقيقه من لجنة جيب التذكارية فحقق ديواني طفيل والطرماح ، وأخرجهما لقـــراء العربية في مجلد واحد سنة ١٩٢٠ م .

وقد قمت من جانبي بإعادة نشر وتحقيق ديوان طفيل الغنوي فصدرت الطبعة الأولى عن دار الكتاب الجديد في بيروت سنة ١٩٦٨ م ، وقد أوضحت في مقدمة الديوان أن من بين الأسباب التي دفعتني لإعادة نشره وتحقيقه عثوري على مخطوطة جديدة من الديوان في المتحف العراقي في بغداد في سنة ١٩٦٤ م ، ضمن مجموع بعنوان « ديوان الشعراء الجاهليين » ، وهذه المخطوطة لم يطلع عليها كرنكو محقق ديوان طفيل .

ومن الأسباب أيضاً ما وجدته في ديوان طفيل المطبوع من أخطاء وقـــع فيها كرنكو محقق الديوان لاعتماده على نسخة واحدة ، مما جعله يقع في تصحيف بعض الكلمات لأنها تتشابه في الحروف أو في رسمها في الكتابة .

وترجع أهمية دراسة هذا الموضوع إلى المنزلة التي احتلها طفيل عند القدماء . فهو عندهم أوصف العرب للخيل ، ولذلك أطلقوا عليه طفيل الخيل ، كما أطلقوا عليه المحبر لتحسينه الشعر ، ولما أحسوه في شعره من تثقيف وتحبير . وهو شاعر جاهلي قديم من أقدم شعراء قيس ، ومن الفحول المعدودين ، وهو أقدم من النابغة الذبياني ، كما نجده حظي بحب رجال الجد والعمل ، فاستشهدوا بشعره وأثنوا عليه كأبي بكر الصديق ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبـــد الملك بن مروان

والأصمعي إمام الرواية واللغة الذى قال فيه : « أخذ كل الشعراء من طفيل حتى زهير والنابغة » وقال : « وطفيل عندى أشعر من امرىء القيس » . وبجانب ماذكرنا فقد نص القدماء أيضاً على أستاذيته لأوس وزهير وروايتهما لشعره .

وبعد أن تبينت أهمية الموضوع شرعت فى رسم منهجه فقسمت البحث إلى بابين أساسيين :

الباب الأول : الشاعر ، وقسمته إلى ثلاثة فصول .

الأول : قبيلته غنى وكان طبيعياً أن أبدأ بالقبيلة ، فقد كان الفرد فى المجتمع الجاهلى يرتبط بقبيلته برباط مقدس من العصبية ، بل كانت شخصية الفرد تذوب فى شخصية قبيلته ، فهو يخضع لأحكامها ، ويتصرف وفق رغبتها ، ويدين بدينها ، لأنها أساس الحياة الاجتماعية ، فهى تمثل وحدة اجتماعية متضامنة ، كل فرد فيها مسئول عنها ، وهى مسئولة عن أفرادها . فإذا ماخرج فـــرد من أفرادها أو قصر فى الواجبات الملقاة عليه خلعته وأصبحت غير مسئولة عنه . وفى حديثى عن القبيلة عرضت لمنازلها التى نزلتها من أودية ومياه وجبال ، كما عرضت لدياناتها ولحياتها الاجتماعية، وللصراع بينها وبين غيرها من القبائل العربية.

ثم عقدت الفصل الثانى لبحث حياته وقسمته إلى قسمين ، شمل القسم الأول : مصادر ترجمته فرتبتها ترتيباً تاريخياً منذ القرن الثالث الهجرى حتى أيامنا هذه . وشمل القسم الثـــانى اسمه ونسبه وكنيته ونشأته وعصره .. وكان لزاماً على أن أحاول تحديد الفترة التى كان يعيش فيها ، وكان منهجى من أجل تحديد الفترة التى عاش فيها طفيل الاعتماد على الشواهد التاريخية ، والشواهد الأدبية التى دلت احتمالا على وجود الشاعر فى نهاية القرن السادس الميلادى ، ووفاته قبل ظهور الإسلام .

وأما الفصل الثالث : فقد أفردته لدراسة شخصية الشاعر بجوانبها المختلفة

وهى السمات الاجتماعية من فروسية وشجاعة، وما يتبعها من فروسية خلقية من الكرم وإغاثة الملهوف ، وإجابة الصريخ ،وحماية الضعيف والنساء ، وإباء الهوان والضيم ، والأخذ بالثأر ،وتناولت فيها الحديث عن سيادته ، واعتداده بشخصيته وقبيلته . والسمات العقلية من حكمة وحنكة وسداد وحلم وآراء معينة فى الحياة، ومعارف عملية وعملية ،والسمات العاطفية من اعتدال عاطفى،واتزان وجدانى،واقتصاد فى اللهو، وجدية فى الحياة . والسمات الدينية التى تمثل ارتباطه بالوثنية الجاهلية ، وعبادته كسائر أفراد قبيلته للات والعزى ومناة .

أما الباب الثانى : فقد خصصته لدراسة شعره ، وقسمته إلى ثلاثة فصول .

الأول : الديوان ، وفيه مضيت فى دراسة مصادر شعر طفيل قبل الديوان، فعرضت للفترة التى انقضت فى الجاهلية على نظم طفيل لشعره إلى أن دون هذا الشعر . ثم مالقيته أشعاره من ذيوع وانتشار بين قبيلته والقبائل التى مدحها، ومن حب من الإسلاميين لما فيهامن طرافة ومعان خلقية مثالية كانت موجودة فى الجاهلية ثم أبقى عليها الإسلام . ثم درست فى هذا الفصل أصول الديوان ، الأصل البصرى برواية أبى حاتم السجستانى عن الأصمعى ، وهو الأصل المطبوع بين أيدينا . والأصول الكوفية التى لم تصل إلينا . ثم ختمت هذا الفصل بدراسة لتاريخ حياة ديوان طفيل منذ أن دون حتى يومنا هذا .

وفى الفصل الثانى من هذا الباب مضيت إلى دراسة الموضوعات . ورأيت لزاماً على قبل أن أعرض لدراسة الخصائص الموضوعية أن أبدأ بمقدمة أدرس فيها الانتحال فى شعر طفيل حتى تكون دراستى الموضوعية والفنية بعد ذلك قائمة على أسس صحيحة . فطفيل شاعر من شعراء العصر الجاهلى مات قبل ظهور الإسلام، ينتهى نسبه إلى قبيلة قيس عيلان من مضر ، لذلك ينسحب عليه موقف الدكتور طه حسين وشكه فى الشعر المضرى ، فعرضت شعره على منهج النقد العلمى.هذا دافع للتعرض لهذا الموضوع ، وهناك دوافع أخر وهوماوجدته مبعثراً فى الكتب المختلفة من أشعار تنسب لطفيل ، كما تنسب لغيره من الشعراء،

فكان لابد من دراسة هذه الظاهرة ، ومحاولة تحليلها ، فكانت هذه المقدمة عن الانتحال في شعر طفيل. وبعد أن تم لي توثيق الشعر وتمييز الصحيح من المنحول في ذيل الديوان مضيت إلى دراسة الموضوعات التي عالجها طفيل في شعره ، فأشرت إلى وصفه للخيل والإبل وإلى فخره بقبيلته ونفسه ، وإلى رثائه لفرسان قبيلته الذين سقطوا صراعى في ميدان الشرف والواجب . وفي المدح أبرزت أنه لم يكن يمدح تكسباً إنما كان مدحه طبيعياً كذلك النوع الذي بدأ بداية طبيعية مبكرة كما نرى عند امرىء القيس مثلا ، وفي النسيب عالجت ما وجدته من غزل في مقدماته الغزلية والطللية .

ثم مضيت بعد دراسة الموضوعات إلى دراسة الظواهر الفنية من حيث طبيعة العمل الفني وخصائصه ، ومن حيث لغته وأوزانه ، وأفردت لهذه الدراسة الفصل الثالث من هذا الباب .

وفي هذا الفصل وقفت عند أستاذيته لمدرسة الصنعة ، وأثره فيمن أتى بعده من تلاميذ هذه المدرسة ، ثم انتقلت إلى دراسة الخصائص الفنية في شعره ، فدرست منهج القصيدة عنده ، ثم ماوجدته في شعره من تصوير مادى دقيق ، ومن تصوير فنى شمل التشبيه والاستعارة والكناية ، والمحسنات البديعية من جناس وطباق ، والقيم الموسيقية التي نجمت من حسن اختياره للألفاظ الموحية المعبرة ذات الدلالات الخاصة ، والتأليف بينها في نسق صوتى دقيق ، كما عرضت للخصائص التعبيرية من الحاح على المعانى بالتكرار ، وتدقيق ، وسلبية في التعبير ، ودقة في اختيار الألفاظ المعبرة ، ووحدة تعبيرية ، كذلك درست الخصائص اللغوية عند الشاعر ، وعرضت لاتكاء أصحاب المعاجم اللغوية على شعره ، وعللت لكل ماوجدته من ظواهر لغوية فيه ، وفي هذا الفصل درست تأثر طفيل بمن سبقه من الشعراء كامرىء القيس ، وأبي دؤاد الايادى ، وأثره فيمن جاء بعده من الشعراء . وختمت هذا الفصل بدراسة للمنزلة الفنية التي احتلها طفيل عند النقاد القدماء ، شاعراً من فحول شعراء الجاهلية معروفاً بالبراعة والتجويد .

محمد عبد القادر أحمد

الباب الأول

الشاعــــــر

الفصل الأول : قبيلتـــــه

الفصل الثاني : حيـــــاته

الفصل الثالث : شخصيتـــــه

الفصل الأول

قبيلــــــــــــــة

١ — منازلهــــــــــا

٢ — ديانتهــــــــــا

٣ — حياتها الاجتماعية

(١) منازلها :

غنى بطن من قيس عيلان تتصل بغطفان من مضر من العدنانية (١) . وهم بنو غني بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وكان أولاد أعصر بن سعد مالك وهم باهلة ، وعمرو وهم غني ،وأمهما همدانية وثعلبة ، وعامر ، ومعـاوية ، وأمهم الطفاوة بنت جرم بن ربان وإليها ينسبون (٢) .

وسكنت غنى حول حمى ضرية(٣) في نجد، وكانوا مجاورين لمنازل طيء يقول البكرى عن حمى ضرية « وإلى ضرية هذه ينسب الحمى ، وهي أكبر الأحماء وهو من ضرية إلى المدينة ، وهي أرض مرب منبات كثيرة العشب ،وهو سهل الموطء كثير الحوض تطول عنه الأوبار(٤)، وتتفق الخواصر » (٥) .

ومن مواضع غنى الشباك (٦) بين أبرق العزاف والمدينة ، وكبد بالقرب من مائهم مذعا .

ومن مواضعهم وائل قال طفيل (٧) :

تأوبن قصرا من أريك ووائل   وما وان من كل تثوب وتحلب

ومن جبالهم : كبشة لقيطه بالحمى(٨)، وسوادمة ، ونضاد (٩) وهو(١٠) جبل

---

(١) الصحاح ٥٢٨/٢ .
(٢) جمهرة أنساب العرب ٢٣٣ .
(٣) معجم البلدان ٣٠٧٢ ، ٣٠٨ .
(٤) الوبر : محركة صوف الابل والأرانب ونحوها والجمع أوبار .
(٥) الخواصر : الطرق بين أعلى الرمل .
(٦) معجم البلدان ٣١٧٣ .
(٧) معجم ما استعجم ١٣٦١/٤ .
(٨) معجم البلدان ٣١٧/٣ .
(٩) المصدر السابق ٢٧٥/٣ ، ودائرة المعارف الاسلامية ١٤٠/٢ .
(١٠) معجم البلدان ٢٩٠/٥ .

فى جوف النير ويقال له نضاد النير ويقال إنه فى الطريق الشرقى فى النير ، والنير جبال كثيرة سود .

ومن جبالهم أيضاً سواج خيال(١) من أخيلة حمى ضرية، وخزاز(٢) وأوضاخ وهو جبل عظيم (٣) ، وفى أضاخ وغيره من الأماكن يقول طفيل موجهاً الخطاب للملك النعمان بن المنذر وكان قد أغار على إبل لسنان بن عائذ الضبى فردتها غنى(٤) :

فلو كنا نخافك لم تنلها ... بذى بقر فروضات الرباب
أكنا باليمامة أو لكنا ... من المتحدرين على جناب
تواعدنا أضاخهم ونقرا ... ومنعجهم بأحياء غضاب

ومن جبالهم أيضاً متالع وهو جبل بالحمى .

ومن الجبال القريبة من منازلهم جبل خيم بكسر الخاء يقول طفيل :(٥)

لمن طلل بذى خيم قديم ... يلوح كأن باقيه وشوم
كأغلب من أسود كراء ورد ... يرد خشاته الرجل الظلوم(٦)

ومن أوديتهم وادى الجريب(٧)، وهو واد عظيم يصب فى بطن الرمة من أرض نجد .

---

(١) الخيال : ثنية تكون كالحد بين الحمى وغير الحمى .
(٢) معجم قبائل العرب ٣/٨٩٥ .
(٣) دائرة المعارف الاسلامية ٢/١٤٠ .
(٤) الديوان : ٩١ .
(٥) معجم ما استعجم ٢/٥٢٧ ، والديوان ١١١ وفيه يشد خشاشه الرجل الظلوم .
(٦) كراء : بفتح أوله ممدود غير مصروف من أرض بيشة كثيرة الأسد، راجع البكرى معجم ما استعجم ٤/١١٢١ .
(٧) معجم البلدان ٢/١٣١ .

وسلماتان[١] وهما واديان فى جبل سواج ، ووادى العناق بالحمى[٢] ، ووادى عاقل [٣] بنجد أعلاه لغنى .

ومن مياههم الأودية [٤]، وأرينبة [٥]، بالقرب من ضرية ، والعناقة[٦]، واللقيطة [٧] بينها وبين مذعى يومان إلا قليلا ، ومظللة[٨] فى نجد ، والجنبج والحنبج والحنيبج ثلاثة أمواه فقيل لها الحنابج[٩]، وغرية [١٠] بالقرب من جبلة وهو من أغزر مياههم ، وصفية[١١]، والبقر[١٢]، وخدعة [١٣]،وحيلة[١٤]وهى عين أو بئر بضرية .

والجثجاثة[١٥]وهى فى جانب من شرق حمى ضرية فى ظل تضاد،والحشاشة[١٦]، وأرثامة [١٧]، ومـذعى [١٨] بينه وبين ماء لهم يقال له زقاقـد ضحوة

---

(١) معجم البلدان ٣/٢٢٣٩ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٢/١٤٠ .
(٢) معجم البلدان ٤/١٦٠ .
(٣) المصدر السابق ٤/٦٨، ٦٩ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٣/١٤٠ .
(٤) معجم البلدان ١/٢٨٧، ودائرة المعارف الإسلامية ٢/١٤٠ .
(٥) القاموس ٤/١٩٦ .
(٦) معجم البلدان ٤/١٦٠، ودائرة المعارف الاسلامية ٢/١٤٠ .
(٧) معجم البلدان ٥/٢١ .
(٨) المصدر السابق ٥/١٥،ودائرة المعارف الاسلامية ٢/٦٤٠ .
(٩) معجم البلدان ٢/٣٠٨ ، ودائرة المعارف الأسلامية ٢/١٤٠ .
(١٠) القاموس ٤/٣٦٩ ، وتاج العروس ١٠/٢٦٥ .
(١١) معجم البلدان ٣/٤١٥ .
(١٢) المصدر السابق ٤/١٣٢١ .
(١٣) المصدر السابق ٢/٣٤٨ ، والقاموس ٣/١٦ .
(١٤) معجم البلدان ٢/٢٩٧،وتاج العروس ١٠/٩٨ .
(١٥) معجم البلدان ٢/١١٠ ، ودائرة المعارف الاسلامية ٢/١٤٠ .
(١٦) معجم قبائل العرب ٣/٨٩٦ .
(١٧) المصدر السابق ٣/٨٩٦ .
(١٨) معجم البلدان ٥/٨٩ .

والجرولة[١] بأعلى نجد شرقى جبل النير ، وسوادمة[٢]، والجنوقة[٣] قرب حمى ضرية ، وأرينبات[٤] بظهر جبلة ، والحثياثة[٥] .

فإذا رجعنا إلى شعر طفيل نستقرؤه أسماء المواضع والجبال التى حلت بها قبيلته فى تحركاتها فى الجزيرة العربية وجدناه حافلا بذكر هذه المواضع، فهو يذكر لنا رملة عالج أورمل عالج وهى منطقة فى صحراء الربع الخالى ، يقول فى المواضع التى أباحتها لهم قبيلة سعد بن عوف كى يرعوا فيها : [٦]

أباحوا لنا قوا فرملة عالج وخبتا وهل خبت لنا متربع

وهذه كلها أسماء مواضع ، وفى رمل عالج يقول أيضاً [٧] :

رأى بجتو البكرات من رمل عالج رعالا مطت من أهل شرج وتنضب

ونجد فى شعره ذكراً لموضع الموقعة التى هزمت فيها طىء قبيلة غنى ، وهو موضع محجر، وهو قرن فى ديار أبى بكر كلاب بفرع السرة . والسرة : واد يصب بين دمخ [٨] والرملات رملات أبى بكر ، ومحجر قرن فى أسفله جرعة بيضاء حجر بها . يقول طفيل [٩] :

وهن الألى أدركـــن تبل محجر وقد جعلت تلك التنابيـــل تنسب

---

(١) معجم البلدان ٢/١٣٠ .

(٢) معجم البلدان ٣/٢٧٥ ، ودائرة المعارف الاسلامية ٢/١٤٠ .

(٣) معجم البلدان ٢/١٧٢ ، ودائرة المعارف الاسلامية ٢/١٤٠ .

(٤) معجم ما استعجم ١/١٤٥ .

(٥) معجم البلدان ٢/١١٠ .

(٦) الديوان : ٨٥ .

(٧) المصدر السابق : ٢٩ .

(٨) معجم مااستعجم ٤/١١٨٨ .

(٩) الديوان : ٤٨ ، ومعجم مااستعجم ٤/١١٨٨ .

ويقول [١] :

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر　　　من الغيظ فى أجوافنا والتحوب

كما يذكر موضع رمان الذى قتلت فيه طيء قيس بن عبد الله الغنوى ودفنته فيه ثم بنت عليه بيتاً حينما عرفته فيقول [٢] :

ومن قيس الثاوى برمان بيته　　　ويوم حتيل فاد آخر معجب

ويذكر موضع السهب وقد هلك فيه رجل منهم حسن الخلق كريم الطبيعة يقول [٣] :

وبالسهب ميمون الخليقة قوله　　　لملتمس المعروف أهل ومرحب

كما يذكر بلدى الجناب وأيهب فيقول [٤] :

ألا هل أتى أهل الحجاز مغارنا　　　ومن دونهم أهل الجناب فأيهب

ويذكر مواضع أريك ووائل وما وان فيقول [٥] :

تأوبن قصرا من أريك ووائل　　　وما وان من كل تثوب وتحلب

وكذلك موضع ذى عاج يقول فيه [٦] :

ومن بطن ذى عاج رعال كأنها　　　جراد تبارى وجهة الريح مطنب

---

(١) الديوان ٣٢ .
(٢) الديوان ٣٨ .
(٣) الديوان ٣٨ .
(٤) الديوان ٤١ .
(٥) الديوان ٤٣ .
(٦) الديوان ٤٣ ، وفى معجم ما استعجم ٣/٩٠٩ ذو عاج موضع فى ديار محارب .

كذلك موضع تبالة[1] :

جعلتهم كـــنزا ببطن تبـــالة وخيبت من أسراهم من تخيب

وتنحدر القبيلة جنوباً إلى اليمن لذلك نجد طفيلا يذكر لنا موضع القهر حيث كانت تسكن أسرة بنى عبد المدان بن الديان فيقول[2]:

بجاورة عبد المدان ومن يكن بجـــاورهم بالقهر لايتطلع

كما يذكر لنا طفيل منطقة الجزع حيث أقام أبرهه الحبشى بجنوده بالتعمير ، وهو على أميال من مكة، وهناك ربض الفيل، ورغم أنهم ظلوا ينخسونه بالحراب إلا أنه لم يتحرك ،حتى بعث الله عليهم طيراً أبابيل فأهلكتهم ، وكان ذلك بين سنتى(٥٧٠ — ٥٧١) فى أيام عبد المطلب جد النبى، وهى السنة التى ولد فيها النبى صلى الله عليه وسلم . قال طفيل[3] :

ترعى منابت وسمى أطاع له بالجزع حيث عصى أصحابه الفيل

كما يذكر موضع ترج من ديار مذحج قبل تبالة باليمـن فيقول[4] :

وقد حل بالجفرين جفر تبالة فترج فنهى فالشروج القوابل

كذلك موضع الدام بين اليمامة وتبالة يقول فيه[5] :

ونحن الذمارى هم غداة لقيتهم على الدام تجرى خيلهم وتؤدب

---

(١) الديوان ٤٩ .

(٢) الديوان ٥٣ ، ومعجم ما استعجم ٣/ ١١٠٠ .

(٣) الديوان ٥٦ ، وفى معجم ما استعجم ٤/ ١٢٤٨ المنطقة التى ربض فيها الفيل تسمى المغمس بميم مشددة مكسورة موضع فى طرف الحرم .

(٤) المصدران السابقان ١٠٨ و ١ / ٣٠٩ .

(٥) معجم ما استعجم ١/ ١٢٧ ، وفى الديوان : ٤ الدامى فى موضع الذمارى .

وفى موضع حسى ـ بكسر أوله وإسكان ثانيه بعده ياء ـ ببطن الرمة يقول طفيل (١) :

لقد أردى الفوارس يوم حسى   غلام غير منـــاع المتـــاع

وفى موضع الشريف وهو مما يلى المشرق من وادى التسرير بنجد يقول طفيل (٢) :

تبيت كعقبان الشريف رجاله   إذا مانووا إحداث أمر معطب

وفى موضع جدود وهو اسم ماء فى ديار بنى سعد بن بنى تميم يقول طفيل (٣) :

أرى ابلى عافت جدود فلم تذق   به قطرة إلا تحلة مقسم

وفى شعر طفيل غمرة موضع يلى لبن يقول فيه (٤) :

جنبنا من الأعراف أعراف غمرة   وأعراف لبن الخيل يا بعد مجنب

ويشرق طفيل إلى البحرين فذكر لنا المرداء موضع بهجر وهى رملة هجر من البحرين، وهى إحدى مدينتى البحرين، والأخرى القطيف، وتلك منازل عبد القيس، قال طفيل (٥) :

فليتك حال البحر دونك كله   ومن بالمرادى من فصيح وأعجم

---

(١) معجم ما استعجم ٢/٤٤٨ والديوان : ١٠٥ .
(٢) المصدر السابق ١/٣١٢ ، والديوان : ٢٠ .
(٣) معجم ما استعجم ٢/ ٣٧٢ ، الديوان : ٧٦ .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٠٤ ، والديوان ٢٢ باختلاف فى الرواية .
(٥) معجم ما استعجم ٤ / ١٢١١، ١٢١٢ ، والديوان ١١٠ .

وفى موضع معبر موضع تلقاء الوتدات (والوتدات حبال رمل بالدهناء) يقول طفيل [١] :

أغديه بالآم الحصان وقد بدت من الوتدات لى حبال معبر

أما موضع الوتدات المذكور فى البيت فكانت فيه موقعة شهدها طفيل وكانت لبنى نهشل بن دارم على بنى هلال من قيس عيلان [٢] .

ويذكر لنا هضبة كتلة وقد اجتمعت عندها غنى فخرج إليهم عوف بن الأحوص فى كلاب ، وكعب فحجز بينهم يزيد بن الصعق وخاف تفانى الناس [٣] :

وأنت ابن أخت الصدق يوم بيوتنا بكتلة إذ سارت إلينا القبائل

كما يذكر صحراء الغبيطين فيقول [٤] :

أظعن بصحراء الغبيطين أم نخل بدت لك أم دوم بأكمامها حمل

وطفيل كسائر الشعراء الجاهليين نجد فى مقدماته التقليدية ذكراً للمواضع التى عاشت فيها المحبوبة ، أو ذكراً للمواضع الجديدة التى توجهت إليها . كما نجد ذكراً لهذه المواضع التى خلفتها يقول [٥] :

غشيت بقرى فرط حول مكمل مغانى دار من سعاد ومنزل

---

(١) معجم ما استعجم ١٢٤٢/٤ ، ١٢٤٣ ، والديوان : ١٠١ باختلاف فى الرواية .
(٢) النقائض (ليدن) ٣٩٠ ، ومعجم ما استعجم ٤/ ١٢١١ ، ١٢١٢ .
(٣) الديوان ١٠٦ ، ومعجم ما استعجم ١١١٦/٤ .
(٤) الديوان ١٠٧ .
(٥) الديوان ٦٢ ، وفى معجم ما استعجم ١٠٦٢/٣ ، قرى : موضع ببلاد بنى الحارث ، وقال أبو حنيفة : قرى : ماءة قريبة من تبالة .

ويقول (١) :

أمن رسوم بأعلى الجزع من شرب   فاضت دموعك فوق الخد كالشرب

ويقول (٢) :

عرفت لليلى بين وقط فضلفع   منازل أقوت من مصيف ومربع
إلى المنحنى من واسط لم يبن لنا   بها غير أعواد الثمام المنزع (٣)

ويحدد أماكن الظعائن فيقول (٤) :

أشاقتك أظعان بجفن ينبم   نعم بكرا مثل الفسيل المكمم

ويحدد المواضع التى نزلت فيها الظعائن فى طريقها إلى المكان الجديد فيقول (٥) :

شربن بعكاش الهبابيد شربة   وكان لها الأحفى خليطاً تزايله
فلما بدا دمج وأعرض دونه   عوازب من رمل تلوح شواكله
وقلن ألا البردى أول مشرب   نعم جيران كانت رواء أسافله

ويقول أيضاً فى تحديد مواضع الظعائن (٦) :

تذكرت أحداجا بأعلى بسيطة   وقد رفعوا فى السير حتى تمنعوا
تصيفت الأكناف أكناف بيشة   فكان لها روض الأشاقيص مربع

(١) الديوان ٩٥ ، ومعجم ما استعجم ٣/٧٨٩ .
(٢) الديوان ١٠٣ ، ومعجم ما استعجم ٣/٨٨١ .
(٣) فى معجم ما استعجم ٤/١٣٦٤ واسط : طريق بين فلج والمنكدر .
(٤) الديوان ٧٢ .
(٥) الديوان ٨٣ ، ٨٤ .
(٦) الديوان ١٠٢ ، ١٠٣ .

وبسيطة بضم أوله على لفظ التصغير أرض بين جبلى طىء والشام. وأشاقيص ماء لبنى سعد (١) .

كما نجد فى شعره ذكراً للكثبان والجبال ، فيذكر لنا العفر بضم العين وإسكان الفاء بعده راء مهملة وهى كثبان حمر بالعالية فى بلاد قيس فيقول (٢) :

بالعفر دار من جميلة هيجت   سوالف حب فى فؤادك منصب

وفى جبال حزم القنان وصارة وسلمى يقول (٣) :

فلما بدا حزم القنان وصارة   ووازن من شرقى سلمى بمنكب

وفى جبل سمسم يقول (٤) :

أسف على الأفلاج أيمن صوبه   وأيسره يعلو مخارم سمسم

ويذكر إلالا بكسر أوله على وزن فعال ، وهو جبل صغير من رمل عن يمين الإمام بعرفة فيقول (٥) :

يزرن إلالا لاينحبن غيره   بكل ملب أشعث الرأس محرم

ويذكر جبل يلملم بفتح أوله وثانيه ، وهو على ليلتين من مكة من جبال تهامة وأهلة كثافة تنحدر أوديته إلى البحر ، وهو فى طريق اليمن إلى مكة ، وهو ميقات من حج من هناك يقول (٦) :

وسلهبة تنضو الجياد كأنها   رداة تدلت من فروع يلملم

---

(١) معجم ما استعجم ١/ ٢٥٠ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ٩٤٨ ، والديوان ١٧ .

(٣) الديوان ٢٨ .

(٤) الديوان ٧٥ .

(٥) معجم ما استعجم ١/ ١٨٥ ، والديوان ٧٤ .

(٦) المصدر السابق ٤/ ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، والديوان ٧٩ .

٢ - ديانتها :

كانت غنى قبيلة وثنية فى الجاهلية تعبد اللات والعزى ومناة [١] . وكان العرب يسمون هذه الثلاث بنات الله . وقد ورد ذكرهن فى القرآن الكريم « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى » [٢] .

أما اللات فقد كان حماها وحرمها على مقربة من الطائف ، وكان يحج إليها وتقدم لها القرابين ، وكان لايجوز أن تقتلع أشجارها من حماها ولا يصاد ولا يراق دم آدمى فيه [٣]، وكانت اللات ترمز للشمس ويقال إنها كانت صخرة [٤] مربعة بيضاء بنت عليها ثقيف بيتاً ، وكانت قريش وجميع العرب يعظمونها .

وأما العزى فكانت رمزاً لكوكب الزهرة عبارة عن وثن فى الكعبة [٥]. وكانت الكعبة مقراً لأوثان العرب ،وفى حرم العزى ثلاث شجرات يقدسونها، وكانت قبائل غطفان وغيرها تقدم لها القرابين . وقد هدمها خالدبن الوليد بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم [٦] .

وأما مناة فيبدو أنها كانت رمزاً لآله الموت لأن مادتها المنوية مشتقة من مادة المنية بمعنى الموت ، وكانت صخرة منصوبة على ساحل البحر الأحمر بين المدينة ومكة ، وكانت تعظمها قبائل هذيل وخزاعة ، وكانت الأوس والخزرج يعظمونها تعظيما خاصاً أكثر من سائر العرب [٧] .

---

(١) الأصنام ٢٧ ، وفيه أن غنيا كانت تعبد العزى ، ودئرة المعارف الإسلامية ٢/ ١٤٠ .
(٢) الآية ١٩ وما بعدها من سورة النجم .
(٣) محمد مبروك نافع ، تاريخ العرب ، عصر ماقبل الاسلام ٢٠١ .
(٤) الأصنام ١٦ ،والمحبر ٣١ .
(٥) راجع كتاب الدكتور شوقى ضيف « العصر الجاهلى » ٢٠١ .
(٦) الأصنام ٢٧ ، والعصر الجاهلى ٢١٠ .
(٧) العصر الجاهلى ٩ .

٣ ـ حياتها الاجتماعية :

وقبيلة غنى قبيلة بدوية من سكان الوبر عاشت فى هذه المناطق التى ذكرناها، ولكنها لم تكن حبيسة هذه المناطق شأنها فى ذلك شأن القبائل البدوية التى كانت تنتقل بخيامها من منزل إلى آخر حسب تقلبات الجو وظروف المناخ الجغرافية، فكانت تستقر فى المناطق الخصبة التى يتوافر فيها الكلأ والماء فإذا ماجفت الأرض وأجدبت رحلت القبيلة إلى مكان آخر تطلب الكلأ والماء أو كما كانوا يقولون تنتجع الغيث والكلأ . وكانت القبيلة كما سبق أن ذكرنا تنزل حمى ضرية وهو منطقة واسعة فسيحة ولذلك كانت القبيلة تنتقل بين جهاته المختلفة على مدار السنة وفصولها ، وكانت تسمى هذه الأوقات أوقات التبدى .

وكانت أيام غنى فى الجاهلية أيام حروب مستمرة، أسهمت فيها القبيلة وصليت نارها ، فهى أيام سفك للدماء وشن للغارات ، ومن أيامهم يوم محجر، وكانت غنى تنزل فى بنى عامر موالى لنمير[1] فجمع زيد الخيل بن مهلهل جمعاً من طىء وأخلاطهم ، وجموعا من شذاذ العرب وغزاهم غنى وبنى عامر ومن جاورهم من قبائل العرب من قيس ، فصبحهم من طلوع الشمس فاقتتلوا قتالا شديداً وانهزمت بنو عامر واستحر القتل بغنى بن اعصر ومالك بن أعصر وهم باهلة وأخوهما الحارث وهو الطفاوة وغطفان بن سعد عمهم وبنى كلاب، وكان بغنى يومئذ فرسان وشعراء ، وأسر زيد الخيل يومئذ الحطيئة الشاعر فجز ناصيته وأطلقه[2] وتسمى هذه الموقعة يوم محجر ، يقول زيد الخيل الطائى مفاخراً[3]

نحن صبحناهم غـــداة محجر بالخيـــل محقبة على الأبدان
نزجى المطى منعلا أخفافها والجـــرد مرسلة بلا أرسان

---

(١) الأغانى ٨/٢٣٣ .
(٢) الأغانى ١٦/٥١ .
(٣) معجم البلدان ٥/٦٠ .

وأسأل غنياً يوم نعف محجر ... واسأل كلاباً عن بنى نبهان
ترمى بهن بغمـــرة مكروهة ... حتى يغبـــن بنا إلى الأذقان

ولزيد الخيل قصيدة أخرى يقول فيها (١) :

وخيبـــة من تجيب على غنى ... وباهلة بن أعصــر والكلاب

ولكن قبيلة غنى تعود فتجمع صفوفها بقيادة طفيل وسيار بن هريم ثم تغير على طىء لتأخذ بثأرها . وتستطيع بعد غارة لها أن تنتصر وتدخل جبلى سلمى وأجأ وهما جبلان معروفان باسم جبلى طىء ، وكانت طىء قد غلبت عليهما بنى أسد ، وهما من بلادهم فاستقروا بهما ، وسبت غنى من طىء سبايا كثيرة بعد هذه الغارة ، وأعادت النساء والقطيع وكل ماسبى من قبل ، يقول طفيل مشيراً إلى ذلك (٢) :

فذوقوا كما ذقنا غداة محجـــر ... من الغيظ فى أجوافنا والتحوب (٣)
أبأنا بقتلانا من القـوم مثلهم ... وما لا يعد من أسير مكلب (٤)
نخوى صدور المشرفية منهم ... وكل شراعى من الهند شرعب (٥)
بضرب يزيل الهام عن سكناتها ... وينقع من هام الرجال بمشرب (٦)
فبالقتل قتـــل والسوام بمثله ... وبالشل شل الغائط المتصوب (٧)

---

(١) الأغانى ١٦/ ٥١ .
(٢) الديوان ٣٢، ٣٣ .
(٣) التحوب : التوجع .
(٤) المــكلب : المكبل .
(٥) المشرفية : سيـــوف منسوبة إلى المشارف وهى أدنى الريف من البدو ، الشراعى: الطويل يعنى السيف ، الشرعب : الطويل أيضاً .
(٦) سكناتها : مواضعها ، ينقع : كأنه حران من العطش فاذا أصاب الدم نقع ، والنقوع قطع العطش .
(٧) الشل : الطرد ، المتصوب : المتقوس .

وواضح من الأبيات أن القبيلة أخذت بثأرها و انتقمت وغسلت العار الذى لحقها غداة هزيمة محجر فقتلت وأسرت وروت سيوفها الظمآنة من دمائهم، وأجلتهم عن جبلى سلمى وأجا وسبت منهم سبايا كثيرة . وهناك سبب آخر غير مباشر لشن هذه الحرب وهو قتل طيء لقيس بن عبد الله الغنوى، وهو قيس بن يربوع ابن غنى، وقال الكلبى : هو قيس الندامى بن عبد الله بن عميلة بن طريف بن خرشبة وكان فارساً قاد ورأس، فكان قدم على بعض الملوك فقال الملك: لأضعن تاجى على رأس أكرم العرب ، فوضعه على رأس قيس وأعطاه ماشاء ثم خلى سبيله فلقيته طيء برمان راجعاً إلى أهله فقتلوه ثم عرفوه بعد ، وذكروا أيادى كانت له عندهم فندموا ودفنوه برمان وبنوا عليه بيتاً،وكانت بنو أسد من قبل قتلت الحارث بن مويلك فى موضع فى بلادهم فقال طفيل[1] :

ومن قيس الثاوى برمان بيته ويوم حقيل فاد آخر معجب[2]

ويبدو أن العداء كان مستحكما بين طيء وبنى عامر وأن واقعة محجر وانتقام غنى لهزيمتها وموت فرسانها قد سبقته مواقع متعددة، وفى الأغانى[3]: أغار زيد الخيل على بنى نمير بالملح فأصاب مائة بعير ، وفى يوم الملح يقول :

ويوم الملح ملح بنى نمير أصابتكم بأظفار وناب

ولم تكن هذه الغارة التى حدثت بعد موقعة محجر خاتمة الصراع بين القبيلتين ولكن يبدو أن الحرب قد استمرت سجالا بين القبيلتين فترة طويلة من الزمن، وكانت كل قبيلة تحاول أن تضم إليها غيرها من القبائل العربية عن طريق الأحلاف

---

(١) الديوان ٣٨ .
(٢) رمان : جبل فى بلاد طيء فى غرب سلمى أحد جبلى طيء (معجم البلدان ٣/ ٦٧).
حقيل : موضع فى بلاد بنى أسد (معجم البلدان ٢/ ٢٨٠) .
(٣) الأغانى (ساسى) ١٧/ ٥٠ .

لتستعين على القبيلة المعادية ، ومن الحوادث التاريخية أن قبيلتى غنى وعبس تحالفتا ثم أغارتا على طىء [١].

ولكن سرعان ماتدور رحى الحرب بين عبس وغنى وتستمر الحرب بينهما سجالا فترة غير قصيرة ويذكر أبو الفرج فى الأغانى [٢] ، لعله سبب هذه الحرب قصة مقتل شأس بن زهير بن جذيمة العبسى على يد رياح بن الأشل الغنوى .

ويرجع القصة إلى عودة شأس من عند الملك النعمان وقد حباه الملك بحبوة فيها قطيفة حمراء وطيب ، فورد موضع منعج فى وسط قبيلة غنى ، وقد نصب رياح بن الأشل [٣] خباءا وكانت امرأته فى الخبـــاء . فألقى شأس ثيابه بفنائه ثم قعد يغتسل وامرأة رياح قريبة منه فاستدبره رياح بسهم بتر صلبه . وحفر له حفرة دفنه فيها ونحر جمله وسلب متاعه . فلما قص قومه أثره انقطع على منعج وسط غنى فمكثوا كذلك حتى رأوا امرأة رياح باعت بسوق عكاظ بعضاً مما كان من حباء الملك لشأس فعرفت . وتبين لزهير بن جذيمة أن رياحاً الغنوى ثأره . وصممت عبس على أن تأخذ بثأرها فغزت غنياً مع أخى شأس الحصين بن زهير بن جذيمة والحصين بن أسيد بن جذيمة ابن أخى زهير . وفى الطريق إلى غنى التقت عبس بثأرها رياح بن الأشل وحينئذ طلب الحصينان [٤] من عبس أن ينفردا بثأرها ، فدارت بينهما وبين رياح معركة انتهت بمقتلهما وجرح رياح .

ويروى أبو الفرج الأصفهانى [٥] أن الكميت بن زيد الأسدى ، وكانت أمه

---

(١) معجم قبائل العرب ٢/٦٩٠ .

(٢) الأغانى ١١/٧٥ وما بعدها .

(٣) وفى جمهرة أنساب العرب ٢٣٢ رياح بن الأشل وهـــو من بنى هلال بن عبيد بن سعد بن كعب بن عوف بن غنى .

(٤) حصين بن زهـــير بن جذيمة ، وحصين بن أسيد بن جذيمة وهـــو ابن عم المقتول

(٥) الأغانى ١١/٨١ .

من غني يذكر من قتل من أخواله من غني في بني عبس ، ومن قتلوا من بني نمير ابن عامر ، وذكر قتل شبيب بن سالم النميري فيقول في ذلك :

أنا ابن غني والداي كلاهما ... لأمين فيهم في الفروع وفي الأصل
هم استودعوا هوى شبيب بن سالم ... وهم عدلوا بين الحصينين بالنبل
وهم قتلوا شأس الملوك ورغموا ... أباه زهيرا بالمذلة والثكل
فما أدركت فيهم جذيمة وترها ... بما قود يوما لديها ولا عقل

وكانت قبيلة فزارة[1] لقيت بني أبي بكر بن كلاب وجيرانهم من محارب[2] فأوقعت بهم وقعة عظيمة، ثم أدركتهم غني فاستنقذتهم، فلما قتلت طيء قيس الندامى ويقال له قيس بن خيدع وخيدع أمه ، وقتلت بنو عبس هريم بن سنان بن عمرو الغنوي وكان فارساً حسيبا ساد ورأس ، قتله ابن هرم بن سنان العبسي طريد الملك فقال له الملك كيف قتلته ؟ قال :

حملت عليه في الكبة ، فطعنته في السبة ، فخرج الرمح من اللبة .

وقتل أسماء بن واقد ، وحصن بن يربوع بن طريف ، وهؤلاء كلهم من غني قد هلكوا ، لذا استغاثت غني ببني أبي بكر وبني محارب فقعدا عنهم ، فقال طفيل في ذلك يمن عليهم بما كان منهم في نصرهم ويرثي القتلى في قصيدته البائية الثانية في الديوان يقول [3]:

تأوبني هم مع الليل منصب ... وجاء من الأخبار مالا أكذب
تظاهرن حتى لم تكن لي ريبة ... ولم يك عما أخبروا متعقب

---

(١) وهم بنو فزارة بن ذبيان وكانت منازلهم بنجد ووادي القرى .
(٢) وهم بنو محارب بن خصفة بن قيس عيلان .
(٣) الديوان ٣٧ وما بعدها ، والأغاني ٢ ٣٥٢ .

وكان هريم من سنان خليفة ــــ وحصن ومن أسماء لما تغيبوا
ومن قيس الثاوى برمان بيته ــــ ويوم حقيل فاد آخر معجب
وبالسهب ميمون الخليقة قوله ــــ لملتمس المعروف أهل ومرحب
كواكب دجن كلما غاب كوكب ــــ بدا وانجلت عنه الدجنة كوكب
لعمرى لقد خلى ابن خيدع ثلمة ــــ فمن أين إن لم يرأب الله ترأب
وبالخير إن كان ابن خيدع قد ثوى ــــ يبنى عليـــه بيتـه ويحجب
ندامای أضحوا قد تخليت منهم ــــ فكيف ألذ الخمر أم كيف أشرب

وطفيل فى هذه القصيدة يرثى فرسان قومه فيستهلها بقوله إن هما متعباً قد نزل به ليلا وجاءته أخبار لا يستطيع تكذيبها ، فقد تتابعت الأخبار والهموم بحيث لم تترك له فرصة للشك ، ولم يستطع أن يتعقب أخبارهم بتكذيب لما ظهر ، فهريم ابن سنان الغنوى قتل بيد العبسى ، وحصين بن يربوع قتـــل أيضاً ، وأسماء ابن واقد قتل أيضاً . وكلهم من غنى قد هلكوا جميعاً . وكذلك قيس الندامى الذى قتلته طىء رغم أياديه التى كانت له عندهم وبنوا عليه بيتاً فى منطقة حقيل ، وسبق أن هلك غنوى فى موضع السهب وكان حسن الخلق كريم الطلعة . وهؤلاء كانوا كالكواكب تنير فى الظلام . وإن قتل ابن خيدع (قيس الندامى) ترك ثغرة عميقة فإذا لم يسدها الله فلا مصلح لها غيره . وقد ذهب عنه نداماه ولم يغن عنهم بشىء فكيف يلذ بعدهم أو يشرب خمراً .

وقد ترتب على هذه الحياة الدامية التى عاشتها قبيلة غنى أن انهكت قواها فضعفت ، أضف إلى ذلك أن القبيلة صغيرة أصلا ، لذلك لم تستطع أن تعيش بمفردها أمام القبائل القوية التى تريد أن تتخطفها ، فكان عليها أن تنضم إلى القبائل القوية الكبيرة المجاورة ، فى صورة أحلاف ، ونتيجة لهذا نجدها تتحالف مع

قبيلة جعفر بن كلاب بن ربيعة بن صعصعة . وقد عاشت غنى فى جوار جعفر ابن كلاب فترة من الزمن يقول طفيل مادحاً بنى جعفر بن كلاب (١) :

جزى الله عناجعفراحين أزلقت ... بنا نعلنا فى الواطئين فزلت
هم خلطونا بالنفوس وألجأوا ... إلى حجرات أدفأت وأظلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنــــا ... تلاقى الذى لاقوه منا لملت
وقالت هلموا الدار حتى تبينوا ... وتنجلى العميـــــاء عما تجلت
سنجزى بإحسان الأيادى التى مضت ... لها عندنا ما كبرت وأهلت

ويفهم من الأبيات اعتراف طفيل بحماية جعفر لهم ، وأنهم وصلوهم وأنزلوهم من نفوسهم منزلة جليلة لحد الاختــــلاط ، وأسكنوهم فى ظلال بيوتهم ، وأعطوهم الدفء والحنان ، وتظل غنى تتمتع بحماية جعفر بن كلاب إلى أن تقع الحرب بين أبى بكر بن كلاب وبنى جعفر بن كلاب ، وكلتاهما تنتسب إلى كلاب ربيعة ابن عامر صعصعة .

وبدأت الحرب بينهما عندما قتل رجل من بنى خالد بن جعفر يقال له منيع رجلا من بنى أبى بكر ، وهنا تقبل غنى ، وقد كانوا قتلوا أحد بنى جعفر قبيل ذلك ولعله عروة الرحال المذكور فى الديوان (٢) . وكانت غنى قد عرضت على بنى جعفر دية المقتول ولكن أبت بنو جعفر أن تأخذ دية جعفرى من غنوى لأنها لا تعد قبيلة غنى التى تحميها ندا لها ، وعبثاً يحاول طفيل أن يذكر قبيلة جعفر بالعلاقات الطيبة التى كانت تربط بين القبيلتين ومواقف غنى المشرفة فيقول (٣) :

بنى جعفر لا تكفروا حسن سعينا ... وأثنوا بحسن القول فى كل محفل
ولا تكفروا فى النائبات بلاءنا ... إذا مسكم منها العدو بكلكل

---

(١) الديوان : ٩٧ .
(٢) الديوان : ٦٢ .
(٣) الديوان : ٦٦ ، ٦٧ .

فنحن منعنا يوم حرس نساءكم ... غداة دعانا عامر غير مؤتلي
دعا دعوة يال الجليحاء بعدما ... رأى عرض دهم صرع السرب مشعل
فقال اركبوا أنتم حماة لمثلها ... فطرنا إلى مقصورة لم تعبل
فجاءت بفرسان الصباح عوابسا ... سراعا إلى الهيجاء معا غير عزل
فأحرش أولاهم وألحق سربهم ... فوارس منا بالقنا المتنخـــل
فحامى محامينا وطـــرف عنهم ... عصائب منا فى الوغى لم تهلل
رددنا السبايا من نفيل وجعفر ... وهن حبالى من مخف ومثقل

ويستثير طفيل فى الأبيات عاطفة بنى جعفر ويذكرهم بمساعى غنى الجيدة لهم فى الماضى، وما أثبتوه ازاءهم فى المواقف العصيبة من إخلاص، وحمايتهم لنسائهم يوم حرس حينا دعاهم عامر بشعارهم المعروف لما رأى الأعداء أقبلوا بجيش كثير العدد. ويومها ركب فرسان غنى خيلهم سراعاً إلى الحرب وقد أخذوا لها سلاحها ، وأعملوا فيهم الطعن الذى يشبه وقود النار ، وانطلقت القنا المختارة نحوهم ، وغنمت القبيلة الغنائم ، وردت سبايا نفيل وجعفر .

وواضح أن المحاولة لم تجد نفعاً فقد أصرت جعفر على خروج غنى من أراضيها، وتقبل غنى حتى تنزل على جواب وهو مالك بن كعب بن عبيد بن أبى بكر، فقال مالك لبنى جعفر : قد أصابت غنى منـــكم دما ، وأصبتم منا دما ، فبوءوا القتيلين بالآخر فقالت بنو جعفر : نحن نعطيك الدم الذى أصبنا من ابنك ، وخل بيننا وبين ثأرنا من غنى ، فإنا لا نرضى منهم بدون دية الملوك فأذنوا بحرب .

فسارت بنو جعفر إلى بنى بكر ، وسار معهم سائر بنى كلاب حتى إذا تراءى الجمعان خذلت بنو جعفر .

فلما رأت بنو جعفر أنهم خذلوا، وكان طفيل الغنوى قال لبنى أبى بكر: ادفعونى إلى بنى جعفر فوالله لا يتعدون علينا ولا يظلموننا حقا هو لنا عندهم، فإن جعفراً

لاتقر على هذا، فأبوا وخرج بنو جعفر متوجهين إلى بنى الحارث بن كعب فى أقصى جنوب الجزيرة العربية فى اليمن [١] فنزلوا فيهم وحالفوهم ، وأقاموا فيهم حولا . ثم يقصدون سائرين إلى بنى أبى بكر وقومهم يريدون مالك بن كعب ابن عبيد بن أبى بكر (جواب) فلقيهم وأكرمهم ثم سألهم: ما حاجتكم؟ فقالوا أردنا أن نبوء بحقكم ونرجع إلى قومنا فقال جواب اختاروا منى خلتين، ثم حكمى بعدهما قالوا : قد قبلنا أحداهما وقبلنا حكمك قال : إن شئتم أن تظعنوا على حرب مجلية ،أو تقيموا على سلم مخزية ، فقالوا : أرنا حكمك .قال :ما كان لكم عندى من غائلة أو خماشة [٢] أو دم ما قل من ذلك وما كثر فهو لكم ، ودم صاحبكم ابن عروة فهو على أفضل الديات، ديات أهل بيته فى مالى ،وما كان لغنى على وبرتم منه ، فذلك حيث يقول لبيد وغاظه مايرى :

ابنى كلاب كيف تنفى جعفر   وبنو ضبينة حاضروا الأجباب [٣]
قتلوا ابن عروة ثم لطوا دونه   حتى نحاكمهم إلى جواب [٤]

وقد يكون تدخل يزيد بن الصعق لصالح غنى عند كتلة — حينما خرج إليهم عوف بن الأحوص فى كلاب وكعب ، ووقفه الحرب خوفا من تفانى الناس يشير إلى المتاعب التى صادفت غنيـــا عقب مقتل عروة الرحال ، يقول طفيل فى ذلك [٥] :

وأنت ابن أخت الصدق يوم يدتنا   بكتلة إذ سارت إلينا القبائل
بحى إذا قيل اظعنوا قد أتيتم   أقاموا فلم تردد عليهم حمائل

---

(١) جمهرة أنساب العرب ٢٦٧ .
(٢) الخماشة : ماهو دون الدية لقطع يد أو أذن .
(٣) الأجباب : منازل لبنى جعفر التى نفيت عنها وأقامت بها غنى .
(٤) جواب : لقب مالك بن كعب الكلابى المذكور .
(٥) الديوان ١٠٦ ، ١٠٧ .

وتشترك غنى في يوم شعب جبلة الذى كان قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة[1]، وكان هذا اليوم بين عامر (من قيس) وبنى تميم وقد اشتركت غنى في صف بنى عامر وكان مع بنى عامر يومئذ عبس، وغنى في بنى كلاب، وباهلة في بنى كعب والأبناء أبناء صعصعة، وكان رهط المعقر البارق يومئذ في بنى نمير بن عامر، وكانت قبائل بجيلة كلها فيهم غير قسر[2]، وكان مع تميم حلفاؤهم من ذبيان وأسد.

واشترك طفيل في يوم الوتدات وهو الغنوى الوحيد الذى شهد هذا اليوم، فلم تشترك فيه قبيلة غنى[3]، والوتدات رمال معروفة بالدهناء[4]، وكان هذا اليوم لبنى نهشل بن دارم على بنى هلال من قيس عيلان، ويروى أنه استجار عصمة ابن سنان بن خالد بن منقر فأجاره فنجا يومئذ، فقال طفيل في هذا اليوم[5]:

عصيمة أجـــزيه بما قدمت لـــه ... يداه وإلا أجزه السعى أكفـــر
تداركنى وقـــد برمت بحيلتى ... بحبل امرىء إن يورد الجار يصدر
أفـــدى بأمى الحصان وقد بدت ... من الوتـــدات لى حبال معـــبر

وكانت قبيلة غنى هدفاً للغزاة من الشعراء والفرسان ولم تستطع القبيلة أن تقف بمفردها أمام القبائل القوية ولذلك عاشت في جوار غيرها من القبائل العربية الكبيرة. وقد تمثلت غزوات الفرسان في الأسر والفتك وشن الهجمات على أفرادها، كما تمثلت غزوات الشعراء في تصويب سهام هجاتهم للقبيـــلة وأفرادها، كل ذلك بالرغم من أن للقبيلة فضلا ومجداً ومناقب، ويعبر عن هذا المعنى الجاحظ بقوله:

---

(١) النقائض (ليدن) ٦٧٦.
(٢) العقد الفريد ٥/١٤١.
(٣) النقائض (ليدن) ٣٩٠.
(٤) معجم ما استعجم ٤/١٢١١، ١٢١٢، والنقائض ٣٩٠.
(٥) الديوان ٥٩، والنقائض ٣٨٩.

« إذا استوى القبيلان فى تقادم الميلاد ثم كان أحد الأبوين كثـــير الذرا (النسل) والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء، وكثير السادات فى العشائر وكثير الرؤساء فى الأرحاء (القبائل الكبيرة) وكان الآخر قليل الذرء والعدد، ولم يكن فيهم خير كثير ولا شر كثير، خطوا أو دخلوا فى غمار العرب، وفرقوا فى معظم الناس، وكانوا من المغمورين ومن المنسيين فسلموا من ضروب الهجاء .. وإذا تقادم الميلاد وكان فيهم خير وشر كثير، ومثالب ومناقب لم يسلموا من أن يهجوا ويضرب بهم المثل، ولعل أيضاً أن تتفق لهم أشعار تتصل بمحبه الرواة، وأمثال تسير على ألسنة العلماء فيصير حينئذ من لاخير فيه ولاشر أمثل حالا فى العامة ممن فيه الفضل الكثير وبعض النقص ولاسيما إذا جاوروا من يأكلهم وحالفوا من لاينصفهم كما لقيت غنى أو باهلة فمن القبائل المتقادمة الميلاد التى فى شطرها خـــير كثـير وفى الشطر الآخر شرف وضعة مثل قبائل غطفان وقيس عيلان ومثل فزارة ومرة وثعلبة ومثل عبس وعبدالله بن غطفان، ثم غنى وباهله واليعسوب والطفاوة فالشرف والخطر فى عبس وذبيان، والمبتلى والملقى والمحروم والمظلوم مثل باهلة وغنى مما لقيت من صوائب سهام الشعراء، حتى كأنهم آلة لمدارج الأقدام ينكب فيها كل ساع، ويعثر بها كل ماش، وربما ذكر اليعسوب والطفاوة وهاربة البقعاء (من ذبيان) وأشجع الخنثى ببعض الذكر . . وجل معظم البلاء لم يقع إلا بغنى وباهلة وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولا ومناقب حتى صار من لاخير فيه ولاشر عنده أحسن حالا ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر .. ومن هذا الضرب تيم بن مروثور وعكل وتيم ومزينة، فنى عكل وتيم ومزينة من الشرف والفضل ماليس فى ثور، وقد سلمت ثور إلا من الشىء اليسير، مما لايرويه إلا العلماء، والتحف الهجاء على عكل وتيم. وقد شعثوا بين مزينة شيئاً . وقد نالوا من ضبة مع مافى ضبة من الخصال الشريفة . . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء . . كما بكى مخارق بن شهاب، وكما بكى علقمة بن علاثة، وكما بكى عبد الله بن جدعان من بيت لخداش بن زهير »[1]

---

(١) الحيوان ١/٣٥٧ ـــ ٣٦٣ .

ومن الصعب تتبع تاريخ القبيلة فى الفترة التى عاش فيها طفيل ، فليس لدينا من مصادر سوى الديوان ، وما نجده متفرقاً من أخبار فى كتاب الأغانى، وفى شرح النقائض لأبى عبيدة ونحوهما . على أنه يتضح من قراءة الديوان أن القبيلة قد رحلت كثيراً وجابت الجزيرة العربية من شماليها إلى جنوبيها ومن شرقيها إلى غربيها، فقد كانت القبائل البدوية فى العصر الجاهلى لا تقر فى مكان بل تتربص القبيلة مواسم الغيث فتخرج بحثاً عن المراعى وطلبا للكلأ والماء ، وسنجد طفيلا فى الديوان يمدح قبيلة بنى الحارث بن كعب [١] وكان قد نزل على الرمل وهو متأنف يطلب أنف الكلأ أى أوله المستقبل الذى لم يؤكل [٢]، وقبيلة بنى الحارث كانت تسكن فى أقصى جنوبى الجزيرة العربية فى اليمن وهى القبيلة التى نزلت فيها بنو جعفر بن كلاب حين أجبرها جواب (مالك بن كعب) على الجلاء من منازلها فى الأجبـــاب وأعطاها لغنى ، ويخص شاعرنا بالثناء من بنى الحارث أسرة عبد المدان بن الديان وكان قد جاورهم يقول [٣] :

بمجاورة عبد المدان ومن يكن ... يجاورهم بالقهـــر لا يتطلـــع
أناس إذا ما أنكر الكلب أهله ... حموا جارهم من كل شنعاء مضلع
وإن شلت الأحياء بات ثويهم ... على خـــير حال آمنا لم يفزع

فمن يجاور عبد المدان لا يقدر عليه أحد لعزه، ولا يجرؤ أحد أن يلحقه بسوء ، وهم قـــوم غاية الوفاء ، يحرصون عليه لجارهم ، ويبيت جارهم آمنا على نفسه وإبله .

---

(١) الحارث بن كعب : بطن مذحج من القحطانية سكنوا و نجران، وكان من بنى الحارث هؤلاء المذحجين بنو زياد واسمه يزيد بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن كعب ابن الحارث ،وهم بيت مذحج وملوك نجران وكانت رئاستهم فى عبد المدان بن الديان ، وانتهت قبل البعثة المحمدية إلى يزيد بن عبد المدان (انظر معجم قبائل العرب ١/٢٣١)

(٢) الديوان ٥٢ .

(٣) الديوان ٥٣ .

ويبدو هنا أنهم تمكنوا من الاتصال بقبيلة أخرى في جنوبي الجزيرة العربية وهي قبيلة خثعم[١] بن أنمار أخوال بني جاهمة وهم أخوة بجيلة[٢]، ونشأ عن هذا الاتصال خلاف أدى إلى حرب حظوا فيها بحماية شيطان بن الحكم بن جاهمة ابن حراق يقول طفيل[٣]:

وقد منت الخذواء منا عليهم ... وشيطان إذ يدعوهم ويثوب
جعلتهم كنزا ببطن تبالة ... وخيبت من أسراهم من تخيب
فمن يك يشكو منهم سوء طعمة ... فإنهم أكل لقومك مخصب

ويظهر أن القبيلة تجولت كثيراً في أقصى الشرق جنوبي اليمامة لأننا نجدهم تحت حماية قبيلة سعد بن عوف[٤] التي يعرف بها الفرع الأكبر من قبيلة ربيعة، ويخبرنا طفيل أنهم أنزلوهم خير متربع يقول[٥]:

أباحوا لنا قوا فرملة عالج ... وخبتا وهل خبت لنا متربع
نشق العهاد الحو لم ترع قبلنا ... كما شق بالموسى السنام المقلع
إذا فزعوا طاروا بجنبي لوائهم ... ألوف وغايات من الخيل تقدع
وقد علموا أنا سنأتي ديارنا ... فيرعون أجواز العراق ونرفع

---

(١) خثعم بن أنمار: قبيلة من القحطانية وكانت منازلهم بجبال السراة وماوالاها حتى مرت بهم الأزد في سيرها من أرض سبأ وتفرقها في البلاد فقاتلوهم وأزلوهم من جبالهم، ونزلتها أزد شنؤة. ونزلت خثعم ما بين بيشة وتربة وظهر تبالة على عجة اليمن (انظر معجم قبائل العرب ٣٣١/١).

(٢) اللباب في تهذيب الأنساب ٣٤٧/١.

(٣) الديوان ٤٩.

(٤) سعد بن عوف بطن من ربيعة، من العدنانية، وهم خلاف سعد بن عوف التي هي بطن من ثقيف وخلاف سعد بن عوف التي هي بطن من غني بن أعصر (انظر معجم قبائل العرب ٦١٦/٢، ٥١٧).

(٥) الديوان ٨٥، ٨٦.

فهو يمدحهم لأنهم أباحوا لهم مواضعهم كي يرعوا فيها ، ولم تكن لهم من قبل ، وهم يرعون المراعي لأول مرة فلم يرعها أحد قبلهم ، وهم مستعدون بعددهم الكثير ، وخيلهم الأصيلة أن يرحلوا إلى موطنهم ، وذلك عندما ترحل قبيلة سعد بن عوف إلى أراضيها في العراق .

وفي الديوان أن قبيلة غني أتاها الصريخ وهم بالرخيمة (١) بين سلمى ورمان ، وذلك حينما أغار النعمان بن المنذر ملك الحيرة على إبل لسنان بن عائذ الضي الغنوي فجاءت غني حتى ردتها وأخذوا إبلا للملك واستاقوها وكانت تعرف في إبلهم حتى جاء الإسلام فقال طفيل في ذلك (٢) :

أبيت اللعن والراعي متى ما ... يضع تكن الرعية للذئاب
فيصبح ماله فرسى ويفرش ... إلى ماكان من ظفر وناب
عذرنا أن تعاقبنا بذنب ... فما بال ابن عائذ المصاب
أأجرم أم جنى أم لم تخطوا ... له أمنا فيؤخذ في الكتاب
فلو كنا نخافك لم تنلها ... بذى بقر فروضات الرباب
أكنا باليمامة أو لكنا ... من المتحدرين على جناب
أغرنا إذ أغار الملك فينا ... منالا والقباب مع القباب
عقابا بابن عائذ بن عبد ... وكنا في العدو ذوى عقاب
تواعدنا أضاخهم ونقرا ... ومنعجهم بأحياء غضاب
بمجر تهلك البلقاء فيه ... فلا تبقى ونودى بالركاب
فظلت تقترى مرخا طوالا ... إلى الأبيات تلوى بالنهاب
أخذنا بالمخطم من علتم ... من الدهم المزنمة الرعاب

---

(١) في معجم البلدان ٢٩/٣ الرخيمة : ماء لبني وعلة الجرميين في طرف اليمامة الغربي ، وهو لمن جبل طويل يسمى رخيا .
(٢) الديوان ٩٠، ٩١، ٩٢ .

يقـــول طفيل إن الراعى إذا أهمـل رعيته من الغنم والماشية وأضاعها أكلتها الذئاب فأصيبت ، وهو يعنى بذلك السفهاء من الناس، فتصبح أمواله بين ظفر طائر وناب سبع . ثم يتوجه بكلامه إلى النعمان فيقول كنا نعــذرك لو عاقبتنا بذنب فما بال سنان بن عائذ الذى أصيبت إبله بلا ذنب ولا جريرة ، ثم يقول له : أأتى ابن عائذ بجناية جارم ، أم لم تـكتبوا له أمنا فى كتاب ؟ وكان بين النعمان وبين قبيلة غنى عهود ، ولعل هذه العهود كانت بين النعمان وبين كثير من القبائل العربية التى كانت تقطن حول الحيرة فى العراق . ثم يقول لو أننا كنا نخافك ما رعينا إبلنا فى مواضع ذى بقر ، وروضات الرباب ، ولـكنا باليمامة أو انحدرنا إلى موضع جناب ، ولـكن لعزنا وشرفنا نرعيها حيث شئنا، ونحن رددنا عليك الغارة بمثلها، ونلنا مثل ما صنع بنا ، لأننا أنداد لك ،وأنزلنا عقابنا بك ، وأخذنا بثأر ابن عائذ الغنوى ، وكنا قد تواعدنا فى أضاخ ونقر ومنعج ، فاجتمعت عشائرنا الغاضبة حيث تـكون منها جيش بخيله البلقاء ،سار إليك نهاراً ، وظلت هذه الخيل تتبع المـكان الذى فيه أشجار المرخ ، وهى تطير ذاهبة بما نهبت من إبلك ، واستطعنا بخيلنا الـكريمة المخطمة أن تنهب نوقك الأصيلة ، التى تميل فى ألوانها إلى السواد .

والجدير بالذكر أن مراعى النعمان كانت مملوءة بالنوق العصافير وهى نوق عربية أصيلة حاول عنترة أن ينهب عدداً منها مهراً لابنة عمه عبلة .

الفصل الثاني

حيـــــــاته

١ ـ مصادر ترجمتـــه

٢ ـ نسبــــــــه

٣ ـ نشـــــــأته

٤ ـ عصـــــــره

١ ـ مصادر ترجمته:

أقدم من ترجم للشاعر طفيل بن عوف الغنوى هـو الإمام أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى الراوية الناقد (ت ٢١٦ هـ) وذلك فى مصدرين :

الأول : مقـــدمة ديوان طفيـل رواية أبي حاتم السجستانى عن الأصمـعى حيث أثبت أبو حاتم عنه سلسلة نسب الشاعر ولقبيه طفيل الخيل ، والمحبر ، وأخذ كل الشعراء من طفيل حتى زهير والنابغة [١].

المصدر الثانى : ما رواه الأصمعى فى كتابه فحولة الشعراء . فهو بجانب تـكراره ماورد من أخبار فى مقدمة الديوان يضيف آراء نقديةجديدة إذ يثبت فحولة طفيل ويجعله أشعر من امرىء القيس فىشعره أو بعض شعره [٢] . كما ينص على أن طفيلا أخذ من امرىء القيس شيئا ، ويروى تفضيل معاوية بن أبي سفيان لطفيل . كما يثبت له تفوقه فى وصف الخيل ، ويفضله فى هذا الباب على النابغة وأوس وزهير [٣].

وفى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى يلقانا ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) فى الشعر والشعراء فيختلف عن التراجم الســابقة فى سلسلة نسب الشـــاعر إذ يروى أنه طفيل بن كعب لا طفيل بن عوف ويثبت له تفوقه فى وصف الخيل ، كما يثبت له لقب المحبر . كما يردد ما رواه الأصمعى من قول معاوية فى طفيل ، ولـكنه ينفرد بجـديد عن التراجم السابقة وهو ما قاله عبد الملك بن مروان عن طفيل، كما يذكر أنه شاعرجاهلى، ثم ينتقىبعض أبيات لطفيل ويثبتها بعد الترجمة، ويردفها بأبيات ممـا سبق إليه طفيل غـيره من الشعراء فتأثره فيها من جاء بعده

(١) الديوان : ١٧ .
(٢) فحولة الشعراء ١٦ ، ١٧ .
(٣) المصدر السابق ١٦ ، ١٧ ، ٤١ .

من الشعراء كابن مقبل والحطيئة [١] ، ولعل ذكر ابن قتيبة للأبيات التى سبق إليها طفيل ثم تأثر من جاء بعده من الشعراء فيها يرجع إلى ماذكره الأصمعى من أن كل الشعراء أخذوا من طفيل حتى زهير والنابغة [٢] .

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى يلقانا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى (ت ٣٢١ هـ) فى كتابه « الاشتقاق » فيضيف جديداً فى ترجمة طفيل إذ يذكر أن من رجال غنى بنى ضبينة ، ومن شعرائهم طفيل بن كعب شاعر قديم فصيح [٣] وهو فى نسب طفيل يساير ابن قتيبة فى ذكره كعبا لا عوفا . وفى طلائع هـــذا القرن أيضاً يأتى ابن عبد ربه الأندلسى (ت ٣٢٨ هـ) فى « العقد الفريد » فنجد فيه نصاً جديداً له فضل السبق والتفرد به ، وقد أفادنا كثيراً فى إثبات سيادة الشاعر لقبيلته فبعد أن ذكر قبيلة الشاعر قال : « منهم طفيل الخيل وقد ربع غنيا . . . . . » [٤] ومعنى ربع أى أخذ ربع أموالهم . يريد أنه كان سيداً عليهم وكان يفرض للسيد قديماً ربـــع مال الغنائم . وفى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى يأتى مؤلف أبى الفـــرج الأصفهانى (ت ٣٥٦ هـ) الضخم كتاب «الأغانى» فيقدم لنا أوسع ترجمة قديمة لطفيل [٥] يثبت فيها سلسلة نسبه ، ويذكر فحولته وكنيته وهى «أبو قران» ، ويحدد عصره ثم أقدميته على سائر شعراء قيس ، ويفضله على سائر الشعراء فى وصف الخيل ، لأنه ركب الخيل ووليها لأهله ، وقارن بينه وبين أبى دؤاد الأيادى والنابغة الجعدى أشهر وصاف الخيل فى ذلك العصر . وذكر قول معاوية فيه ، وذكر تسميته بطفيل الخيل لشدة وصفه لها ، ونقل تقديم أبى عبيدة لطفيل على النابغة الجعدى وأبى دؤاد وهما أعلم العرب بالخيل وأوصفهم لها ، كما أثبت شهادة أعرابى

---

(١) الشعر والشعراء ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٢) مقدمة ديوان طفيل ١٧ .

(٣) الاشتقاق ١/١٦٥ .

(٤) العقد الفريد ٣/٣٠٢ .

(٥) الأغانى ١٠/٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

من غنى فى حضرة قتيبة بن مسلم بأن أعف بيت وأجود بيت فى الحرب قالتها العرب هما بيتان لطفيل، كما ذكر هزيمة غنى فى محجر وحدد موقعها بين القنان وشرق سلمى. وروى تمثــل بعض الأعراب بأبيات طفيل كما روى سؤال عبد الملك بن مروان لأولاده وأهل بيته ثم إجابته لهم بأن أكرم بيت وصفته العرب بيت طفيل، ويروى أبيات طفيل التى استشهد بها عبد الملك فى هــذا المجال، كما أثبت أحسن صوت صنعته جميلة المغنية وكان من شعر طفيل، (١) كما أثبت صوتاً آخر غناه سليم أخو بابويه وكان من قصيدة طفيل التى قالها يرثى فيها فرسان قومــه ويذكر وقعتهم بطىء (٢). ونجد فى النصف الثانى من القرن الرابع أيضاً الإمام أبا القاسم الحسن بن بشر الآمدى (ت ٣٧٠ هـ) فى مؤلفــه « المؤتلف والمختلف » فى أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم الذى ذكر فيه من يقال له طفيل من الشعراء، وذكر أربعة شعراء أخر غير طفيـل الغنوى الذى ينسبه إلى عوف كما ينسبه إلى بنى عتريف خلاف ابن دريد السابق صاحب الاشتقاق. كما قال عنه طفيل الخيــل الشاعر المشهور (٣). كما ذكره فى موضع آخر من كتابه تحت عنوان (من يقــال له المحبر) فذكره وذكر المحبر الثقفى وعلل تسميته المحبر لحسن شعره، وقال وهو المشهور (٤). وقبل أن نختم هذا القرن يطالعنا محمد بن عمــران المرزبانى (ت ٣٨٤ هـ) فى كتابه « الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء » فيذكر لنا آراء نقدية للعلماء لاتخرج عما ذكره الأصمعى فى فحولة الشعراء ومقدمة الديوان. (٥)

وفى أوائل المائة الخامسة من الهجرة نجد أبا منصور الثعالبى (ت ٤٢٩ هـ)

---

(١) الأغانى ١٥/٣٤٨.

(٢) المصدر السابق ١٥/٣٥٥.

(٣) المؤتلف والمختلف ١٤٧.

(٤) المصدر السابق ١٨٤.

(٥) الموشح ٣٤، ٦١، ٦٦، ٩٦.

فى كتابه « لباب الآداب فى لطائف ألفاظ المخاطبات والمكاتبات » (١) يترجم لطفيل الغنوى فيذكر لقبه المحبر، ويعلل سبب تلقيبه به بحسن شعره. كما يسوق خبراً عن طفيل يطالعنا لأول مرة إذ لم نجد أحداً ذكره من قبل، وهو استشهاد أبى بكر الصديق ببيتين لطفيل وذلك فى مجال خطابه للأنصار. ثم يروى أبياتاً من غرر شعره على حد تعبيره. كما نجد فى هذه المائة أيضاً المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) فى أماليه، يروى معنى لطفيل تأثره فيه أوس بن حجر والخريمى وغيرهما من الشعراء(٢)، وهذه الإشارة من المرتضى ستفيدنا كثيراً حينما نتعرض لتأثير طفيل فيمن أتى بعده من الشعراء بوجه عام، وتأثيره فى شعراء مدرسة الصنعة بوجه خاص، ولعل المرتضى قد تأثر فى إشارته هذه بما قاله الأصمعى من أن كل الشعراء أخذوا من طفيل حتى زهير والنابغة. (٣) وحوالى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى نجد ابن رشيق (ت ٤٦٣ هـ) يورد رواية زهير عن طفيل الغنوى (٤) وقد أكد هذا النص الهام عندنا النتيجة التى توصلنا إليها وهى أستاذية طفيل لمدرسة الصنعة، أما أبو عبيد البكرى (ت ٤٨٧ هـ) فى كتابه « سمط اللآلىء » فإنه يورد نسب طفيل مختصراً ويذكر كنيته وتسميته المحبر لحسن شعره، ويذكر عصره وتفضيله على سائر الشعراء فى نعت الخيل ثم يذكر ثلاثة أبيات له ويشرحها. (٥)

وفى أواخر القرن الخامس للهجرة نجد الخطيب التبريزى (ت ٥٠٢ هـ) فى « شرح ديوان الحماسة لأبى تمام » حينما تعرض لشرح بيت طفيل يشير إلى

---

(١) لايزال هذا الكتاب مخطوطاً، وهو محفوظ بمكتبة المرحوم الأستاذ عباس العزاوى المحامى بالعراق. وقد اطلعت عليه وعلى غيره من المخطوطات العربية النادرة التى تحويها مكتبته خلال شهر يوليه (تموز) سنة ١٩٦٤ م.

(٢) أمالى المرتضى ١/٢٥٧.

(٣) مقدمة ديوان طفيل ١٧.

(٤) العمدة ١/١٣٢.

(٥) سمط اللآلىء ١/٢١٠.

أنه كان يفصد على الملوك (١). ولهذا الخبر دلالة هامة فى دراستنا لحياة طفيل . ثم نجد فى مطلع القرن السادس عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى عالم اللغة والآداب ، (ت ٥٢١ هـ) فى كتابه « الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب » يترجم لطفيل الغنوى ، ويذكر أنه طفيل بن عوف بن قيس ثم يذكر مارواه ابن قتيبة من نسب طفيل كما يذكر كنيته ولقبه المحبر لحسن شعره . ويشرح بيتا له فى وصف الخيل ، ثم يذكر ثلاثة أبيات قبله ويشرحها (٢). وفى النصف الأول من هذه المائة السادسة يلقانا الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) فى « الفائق فى غريب الحديث » فيساير من سبقوه فى أن طفيلا كان يدعى فى الجاهلية المحبر لتحسينه الشعر ، وذلك حينما تعرض لشرح معنى التحبير (٣) .

وفى أواخر المائة السابعة وأوائل المائة الثامنة يلقانا ابن منظور (ت ٧١١ هـ) فى « لسان العرب » فنجده يستشهد بأبيات لطفيل فى خمسة وثمانين موضعاً (٤) على أنه مصدر من مصادر اللغة العربية الفصيحة ، وهو فى استشهاده يشرح ويعلق وينقل بعض الأخبار التاريخية والآراء النقدية حول الأبيات . وهذا ما جعلنى اعتبر هذا المعجم الكبير مصدراً من مصادر دراسة الشاعر . وفى القرن التاسع الهجرى يورد العينى ت ٨٥٥ هـ) فى « المقاصد النحوية فى شرح شواهد الألفية » تعريفاً بطفيل فيذكر سلسلة نسبه حتى ضبيس كما يذكر كنيته ويبحث فى اسمه لأنه من الأسماء المنقولة واحتمال أن يكون طفيل بفتح الطاء وهو الرخص الناعم ، ثم احتمال أن يكون تصغير طفيل بكسر الطاء وهو الصغير من الأناسى ، وغيرهم ويشرح الضبيس ، ويأتى بهذا التعريف بعد ذكر بيت لطفيل فى وصف الخيل ثم يذكر له بعد هذا التعريف

---

(١) شرح ديوان الحماسة لأبى تمام ١/٢٦٦، ٢٦٧ .
(٢) الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ٢٢٧ .
(٣) الفائق فى غريب الحديث ١/٥٤١
(٤) فهرس لسان العرب ٧٥/٧٦ .

اثنى عشر بيتاً من قصيدته البائية فى وصف خباء وخيـــل ثم يشرحها شرحا وافياً [١] .

وفى أواخر هذا القرن التاسع وأوائل القرن العاشر نجـــد جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بـــكر السيوطى (ت ٩١١ هـ) فى كتابيه « شرح شواهد المغنى » و « المزهر فى علوم اللغة وأنواعها » أما فى « شرح شواهد المغنى » فيستشهد ببيت لطفيل على التأكيد اللفظى بالمرادف، ثم يذكر أول بيت من قصيدة طفيل التى منها هـــذا البيت ويشرحه ، وتحت عنوان « فائدة » يترجم لطفيل موردا سلسلة نسبة حتى قيس عيلان ، وينقل عن الأصمعى فحولته ونعته للخيل وتقدمه فى السن على النابغة ، وأقدميته على سائر شعراء قيس، ولقبيه طفيل الخيل والمحبر ، وما كان يقوله معاوية عنه[٢] . أما فى « المزهر فى عـــلوم اللغة وأنواعها » فانه ينقل عن الأصمعى لقب طفيل بالمحبر لتحسينه الشعر . [٣]

وفى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى يترجم عبد القادر البغـــدادى (ت ١٠٩٣ هـ) فى « خزانة الأدب » لشاعرنا ولـكنه لا يأتى فى ترجمته بجديد سوى ماذكره نقلا عن الصولى فى « كتاب الـكتاب » فى خلال وصفه المحبر من رأى ثان فى تسميته بالمحبر لأنه وصف برداً فى قوله « سماوته أسمال برد محبر » كما ذكر سلسلة نسبه حتى أعصر نقلا عن الجمهرة ، وحدد عصره، ونقل عن « الشعر والشعراء » لابن قتيبة تفوق طفيل على سائر العرب فى وصف الخيل ، وقول عبد الملك بن مروان فيه ، وكذلك قول معاوية ، كما نقـــل عن الأصمعى [٤] وأشار إلى الشعراء الذين أوردهم الآمدى فى « المؤتلف والمختلف » تحت اسم طفيل

---

(١) المقاصد النحوية فى شرح شواهد الألفية ٣/ ٢٤ .

(٢) شرح شواهد المغنى ١/ ١٢٥ .

(٣) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ٢/ ٤٣٠ .

(٤) خزانة الأدب ٣/ ٦٤٣ .

فقال : وقد أورد الآمدى فى « المؤتلف والمختلف » أربعة شعراء كل منهم اسمه طفيل أحدهم هذا »(١) . فمن نص البغدادى هذا يفهم أن من أوردهم الآمدى من شعراء تسموا باسم طفيل عددهم ثلاثة رابعهم طفيل الغنوى ، وليس الأمر كذلك فمن أوردهم الآمدى أربعة خامسهم طفيل كما سنرى عند دراستنا لحياته .

وتعد ترجمة البغدادى فى « خزانة الأدب » خاتمة للمصادر العربية القديمة، ثم تطالعنا بعد ذلك الدراسات الحديثة فى الأدب العربى، ولعل أول هذه الدراسات كتاب « تاريخ الأدب العربى » لكارل بروكلمان فى طبعته الأولى فى مدينة «فايمر» بألمانيا سنة ١٨٩٨ م فنجد فيه تعريفا سريعاً بطفيل يقع فى سطر ونصف، كما أن فيه شكا من بروكلمان لما رواه الأصمعى عن طفيل إذ يقول: «يزعم الأصمعى أنه أقدم من النابغة »(٢) ثم يغمط طفيل حقه وكأنه لا يريد أن يأخذ بما ورد عن الرواة والنقاد القدماء من أسبقية طفيل على سائر شعراء وصف الخيل فيقول «وهو ثالث الشعراء الوصافين للخيل » . (٣) ثم يقصر نفسه فلا يريد أن يذكر لماذا لقب بالمحبر ، ولا يزيد عن قوله فى عجالة : « ولقب بالمحبر لشهرته بذلك» ولكنه لا يذكر لماذا اشتهر بذلك، ثم يذكر بعض المراجع التى يمكن الرجوع إليها فى ترجمة الشاعر ، ولكنه لا يزيد على ثلاثة مراجع هى الشعر والشعراء ، والأغانى، ومقال كرنكو فى مجلة الجمعية الملكية الاسيوية لسنة ١٩٠٧ م (٤)

وأخيرا يذكر ديوانه بنشر كرنكو مع ترجمته إلى الإنجليزية فى لندن سنة ١٩٢٧ ، (٥) ولكننا نجده فى أثناء ترجمته لزهير بن أبى سلمى يذكر أن زهيراً

---

(١) خزانة الأدب ٣/٦٤٣ .
(٢) تاريخ الأدب العربى ١/١١٩ .
(٣) المصدر السابق ١/١١٩ .
(٤) إضافة المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار لكتاب المترجم من الملاحق .
(٥) إضافة المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار لكتاب المترجم من الملاحق .

كان رواية أوس بن حجر وزوج أمه ، وأن أوساكان راوية طفيل الغنوى وتلميذه[1] . ولايخفى ما لمثل هذا الخبر من أهميه بالغة فى دراستنا للشاعر .

وفى سنة ١٩٠٠م أصدرت مطبعة الهلال « دائرة المعارف العربية » التى ألفها بطرس البستانى (ت ١٨٨٣ م) وفيها ترجمة طفيل بدأها باثبات نسبة وذكر فحولته وكنيته وقدمه وتفوقه فى وصف الخيل ولقبه لـكثرة وصفه إياها ، وماروى من قول معاوية عنه، وإغارته على طيء فى جموع جمعها من قيس ، ثم اختار بعض أبيات له وأثبتها .[2]

وفى سنة ١٩٠١م تصدر المطبعة التجارية بالإسكندرية كتاب « المنتخل فى تراجم شعراء المنتحل» لأحمد أبي على أمين مكتبة بلدية الاسكندرية وشارح كتاب « المنتحل » للثعالبي ومصحح روايته ، فنجد فى كتابه ترجمة طفيل يثبت فيها نسبه مختصراً وكنيته وعصره وفحولته وتقدمه على النابغة وأسبقيته لسائر شعراء قيس ، ورأى معاوية فيه، وتسميته طفيل الخيـــل وسببها ،وينقل عن الأغانى سؤال قتيبة بن مسلم الباهلى لأعرابى قدم عليه من خراسان عن أعف بيت قالته العرب،وأجود بيت قالته العرب فى الحرب ، وإجابة الأعرابى بأنهما لطفيل وانشادهما ، وينص على جهله هو، ومن سبقوه بتاريخ وفاته.[3]

وفى سنة ١٩٠٧ ينشر المستشرق كرنكو فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية

journal of the Royal Asiatic society 1907 P. 815 - 888.

قصيدة طفيل المطولة التى قالها فى غارة له على طيء أغارها فنال منها، وقتل وأسر انتقاما لهزيمة محجر، وقتل طيء لقيس الدارمى، وحتى هذا الوقت لم يكن كرنكو قد عثر على ديوان طفيل وعرفه ،أما نص هذه القصيدة والشرح المصاحب لأبياتها

---

(١) تاريخ الأدب العربى ١/٩٥ .

(٢) دائرة المعارف العربية ١١/٣٢٥ .

(٣) المنتخل فى تراجم شعراء المنتحل : ٣٢٩ .

فأخذه عن مخطوط قديم كان يمتلكه «مذون» بالجزء الثانى من كتاب الاختيارين عن المفضل والأصمعى ، ويذكر أن النسخة ليست مؤرخة ولكنها كتبت لمكتبة ما فى حوالى نهاية القرن السادس الهجرى ، وقد اعتمد عليها السير تشارلس لايل فى نشره للمفضليات ، وأن هذه النسخة تحتوى على ١١٦ قصيدة ، منها ٧٠ قصيدة نادرة ولا توجـــد فى أى مخطوط آخر ، من تلك التى تضم مجموعات للقصائد . وتحتل قصيدة طفيل صدر هذه المجموعة ، وعقب كل بيت من أبياتها شروح وتعليقات استنتج كرنكو بعد دراسته لها أنها من وضع ابن السكيت[1] وفى مستهل القصيدة نجد ذكرا لسلسلة نسب طفيل كاملا حتى مضر ، وذكرا لاسم غنى واسم أعصر ، وسبب تسميته ، وذكراً لمناسبة انشاد طفيل لهذه القصيدة ، وفى نهاية القصيدة شرح كرنكو أبياتها (٢) ، كما نجد دراسة مختصرة تحدث فيها عن الاختلافات فى سلسلة نسبه ، كما ذكر تفوقه فى وصف الخيل مع أبى دؤاد الإيادى ، والنابغة الجعدى . وتعرض لقبيلة غنى وذكر أنها كانت ضعيفة لذلك عاشت تحت حماية بعض القبائل القوية .

وسنة ١٩١١م ينشر جورجى زيدان الطبعة الأولى من مؤلفه «تاريخ آداب اللغة العربية» . فيترجم لشاعرنا تحت عنــوان «وصاف الخيل» ، وهو فى ترجمته المختصرة لا يخرج عما ورد فى المصادر القديمة ، ويذكر بعض أبيات له .

ثم يصدر الأستاذ البغدادى محمود شكرى الالوسى (ت ١٩٢٤ م) كتابه «بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب» فيترجم لطفيل ترجمة قصيرة لا جديد فيها يذكر فيها لقبه فى الجاهليـــة بالمحبر ، وتفسير معنى المحبر ، ثم يذكر تمثل أبى بكر الصديق ببيتين لطفيل فى خطابه للأنصار ، ثم يذكر بيتين من غرر شعره فى النساء (٣) .

---

(١) مجلة الجمعية الملكية الآسيوية لسنة ١٩٠٧ ص ٢٨٠ .

(٢) المرجع السابق من : ٨٦٦ — ٨٧٣ .

(٣) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ١١٧/٣ .

وفى سنة ١٩٢٧ م تصدر الطبعة الأولى من قاموس تراجم الأعـــلام لخير الدين الزركلى فنجد فيه ترجمة لطفيل أثبت فيها المؤلف نسبه مختصرا، وذكر قبيلته وفحولته وأنه من الشعراء الشجعان . وتفوقه فى وصف الخيل . وسبب تسميته طفيل الخيل والمحبر، وماكان يقوله معاوية عنه، كما أثبت المراجع التى يمكن الرجوع إليها فى ترجمة الشاعر، والجـــديد عند الزركلى مما استنتجه باجتهاده وبحثه من تاريخ وفاة طفيل، فذكر أنه توفى نحو سنة ١٣ ق . هـ، وهى تقابل ٦١٠م، كما ذكر أنه عاصر النابغة الجعدى، وزهير بن أبى سلمى، ومات بعد مقتل هرم بن سنان .

وفى سنة ١٩٢٧م يصدر كرنكو ديوانى طفيل بن عوف الغنوى، والطرماح ابن حكيم الطائى بتحقيقه وتخريجه، وذلك بتكليف من لجنة « جب » التذكارية والديوانان مجموعان فى مجلد واحد، محفوظ فى المتحف البريطانى تحت رقم ٦٧٧١ شرقيات . ولقد ترجم الأستاذ كرنكو الديوانين المذكورين مـــع ما استدركه عليهما إلى اللغة الإنجليزية، وجعل لهـــما مقدمة وفهارس للقصائد والمقطوعات والأعلام، ومعجما لمفردات الديوانين مع ترجمة إلى الانجليزية، كما عمل دراسة مختصرة عن طفيل ذكر فيها اسمه وكنيته، وقبيلته، وضعفها مما اضطرها أن تعيش تحت حمـــاية القبائل الكبيرة التى يذكرها طفيل فى قصائده، كجعفر بن كلاب، ويحدد مضارب خيامهم فى الجنوب الشرقى من جبلى طىء حيث تقع مدينة الحائل الحديثة، [1] وذكر موقعة محجر وانتقام غنى لها . كما تعرض لفساد العلاقة بين غنى وجعفر بن كلاب بسبب قتل غنى لعروة الرحال، واضطرار غنى للرحيل إلى الجنوب حيث حظيت بحماية الحارث بن كعب، واتصالهم ببنى خثعم، كما نص على اتصالهم بقبيلة سعد بن عوف، وحضور طفيل موقعة الوتدات وفيها أنقذ حياته عصمة بن سنان، كما يعترف فى مقدمته بعدم وجود تاريخ للفترة التى عاش فيها طفيل، إلا الأحداث التى تشير

---

(١) المقدمة الانجليزية لديوان طفيل الغنوى : ١٤ .

إلى ارتباطه بزيد الخيل ومنها يمكن الاستنتاج أنه عاش في نهاية القرن السادس الميلادي ، وربما بعد ذلك بقليل لأن زيد الخيل قدم على النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة في السنة التاسعة من الهجرة ، كما يرجح موت طفيل في نهاية القرن السادس الميلادي لأن راويتيه أوسا وزهيراً كانا قد توفيا دون أن يدخلا الإسلام ولم يعيشا حتى يدركا النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم نجد عالم اللغة والأدب الشيخ سيد بن علي المرصفي الأزهري (ت ١٩٣١م) يؤلف كتابه في شرح الكامل للمبرد المسمى « رغبة الآمل من كتاب الكامل » فيترجم ترجمة قصيرة جداً لطفيل يذكر فيها نسبه ، وعصره ، وقدمه ، ووصفه الخيل ، ويشرح عدداً كبيراً من أبيات قصيدته البائية[١] .

ويأتي الأستاذ خليل مردم فينشر مقالا عن ديوان طفيل وديوان الطرماح في الجزء الأول من المجلد السادس عشر كانون الثاني سنة ١٩٤١ م في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق يتعرض فيه لدراسة مختصرة عن طفيل يعتمد فيها على ما ورد في المصادر القديمة[٢] .

٢ — نسبه :

اختلف القدماء حول نسب طفيل فأكثر من ترجموا له ذكروا أنه طفيل ابن عوف ، ذكر ذلك الأصمعي[٣] ، (ت ٢١٦ هـ) واليعقوبي[٤] ، (ت ٢٩٢هـ) وأبو الفرج الأصفهاني[٥] (ت ٣٥٦ هـ) نقلا عن ابن الكلبي ، وكذلك الآمدي[٦]

---

(١) كتاب رغبة الآمل من كتاب الكامل ١٢٦/٢ .

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق المجلد السادس عشر جـ ٤٦/١، ٤٧، ٤٨ ، كانون الثاني ١٩٤١ .

(٣) مقدمة ديوان طفيل : ١٧ .

(٤) تاريخ اليعقوبي : ٢٢١ .

(٥) الأغاني ٣٤٩/١٥ .

(٦) المؤتلف والمختلف : ١٤٧ ، ١٨٤ .

(ت ٣٧٠ هـ) ، وأبو عبيد البكرى ،[1] (٤٨٧ هـ) وابن السيد البطليوسى،[2] (ت ٥٢١ هـ والعينى[3] ، (ت ٨٥٥ هـ) ، والسيوطى ، [4] (ت ١٠٩٣ هـ) . ولكننا نجد ابن قتيبة [5] (ت ٢٧٦ هـ) يذكر أنه طفيل بن كعب ، وكذلك ابن دريد الأزدى[6] (٣٢١ هـ) . وكما حدث اختلاف فى اسم أبيه وجدنا خلافا بينهم فى اسم جده ، فالأصمعى فى مقدمة الديوان[7] يذكر أنه ضبيس ، واليعقوبى[8] يثبت أنه خليف ، وأبو الفرج الأصفهانى[9] نقلا عن ابن الكلبى يذكر أنه خليف ، وأبو عبيد البكرى[10] يذكر أنه ضبيس . أما ابن السيد البطليوسى [11] فيذكر أنه قيس ، والعينى[12] يذكر أنه ضبيس . ونجد السيوطى[13] ينص على أنه كعب . والبغدادى[14] يذكر أنه خلف ، ويذكر صاحب الأغانى أن محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) يوافق ابن الكلبى على النسب إلا فى خليف بن ضبيس فانه لم يذكر خليفاً ، وقال هو طفيل بن عوف بن ضبيس .

---

(١) سمط اللآلىء ١/٢١٠ .

(٢) الاقتضاب ٢٢٧ .

(٣) المقاصد النحوية ٢٤ .

(٤) شرح شواهد المغنى ١/١٢٥ .

(٥) الشعر والشعراء : ٢٧٥ .

(٦) الاشتقاق ١٦٥ .

(٧) مقدمة ديوان طفيل : ١٧ .

(٨) تاريخ اليعقوبى : ٢٢١ .

(٩) الأغانى ١٥/٣٤٩ .

(١٠) سمط اللآلىء ١/٢١٠ .

(١١) الاقتضاب ٢٢٧ .

(١٢) المقاصد النحوية ٢٤ .

(١٣) شرح شواهد المغنى ١/١٢٥ .

(١٤) خزانة الأدب ٣/٦٤٣ .

وهكذا نجد الخلط والاضطراب قد أصاب اسم أبيه ، وكذلك حينما تتبع سلسلة النسب نجد اختلافا واضحاً بين المصادر المختلفة ، واضطرابا ملحوظاً ، إلا أن هذه الاختلافات فى سلسلة نسبه لم تكن حائلا دون اعتمادنا على تواتر الروايات الموثوق بها ، وإجماع أكثر المحققين ، والمقارنات التى قمنا بها وبذلك نستطيع أن نرجح أن شاعرنا كما ورد فى مقدمة ديوانه برواية أبى حاتم السجستانى عن الأصمعى ، طفيل بن عوف بن ضبيس بن خليف بن كعب ابن جلان بن غنم بن غنى بن أعصر بن[1] سعد بن قيس بن عيلان[2] بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان[3] .

واسم طفيل كما يذكر العينى[4] من الأسماء المنقولة يحتمل أن يكون تصغير طفل كما يذكر العينى بفتح الطاء وهو الرخص الناعم ، ويحتمل أن يكون تصغير طفل بكسر الطاء وهو الصغير من الأناسى .

وطفيل شاعرنا خلاف طفيل بن مالك الذى يذكره فى شعره . فقد كان طفيل بن مالك هذا سيداً لبنى جعفر بن كلاب ، ويدعى فارس قرزل[5] وقد ارتبط بسادات غنى عن طريق المصاهرة ونزل فى غنى عند أسماء بن واقد وهو خاله فحمله على فرسه وغزا معه فغنموا إبلا كثيرة أصبحت لطفيل بن مالك ، ولم تكن له من قبل . يقول طفيل فى ذلك[6] .

وأشعث يزهاه النبوح مدفع ... عن الزاد مما خلف الدهر محثل
أتانا فلم تدفعه إذا جاء طارقاً ... وقلنا له قد طال طولك فانزل

(١) مقدمة الديوان : ١٧ .
(٢) الأغانى ١٥/٣٤٩ .
(٣) جمهرة أنساب العرب ٢٣٣ .
(٤) المقاصد النحوية ٢٤ .
(٥) المحبر : ٤٢٨ .
(٦) الديوان ٧٠ ، ٧١ .

هنأنا فلم نمنن عليه طعـــامنا فراح يبارى كل رأس مرجـــل
فأبل واسترخى به الشأن بعدما أساف ولولا سعينا لم يؤبل
فذاك ولم نحرم طفيل بن مالك وكذا متى ما نسأل الخير تفعـــل

وقد أورد الآمدى[١] تحت عنوان من يقال له طفيل خمسة شعراء كل منهم اسمه طفيل أحدهم شاعرنا وهم طفيل بن عوف الغنوى ، وطفيل بن على بن عمرو أحد بنى حنيفة بن لجيم ، وطفيل بن قرة بن هبيرة بن عامر بن سلمة الخير بن قشير بن كعب ، وطفيل بن عامر بن واثلة أحد بنى كنانة بن خزيمة بن مدركة ، وطفيل بن راشد العبسى النجادى ، كما يذكر لسان العرب اسم شاعر يسمى طفيل السعدى[٢] . أما رهط طفيل الأدنون فيذكر الآمدى أنهم بنو عتريف بن سعد[٣] ، ولكن ابن دريد الأزدى[٤] يذكر أنهم بنو ضبينة وهم الذين أنزلهم جواب (مالك بن عبيد بن أبى بكر) سيد بنى أبى بكر كلاب فى الأجباب منازل بنى جعفر حين نفاهم عنها .

وجد طفيل الأعلى هو أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان كما هو واضح من النسب وأعصر هذا — فيما يذكر القدماء — كان شاعرا، ويذكره السيوطى[٥] باسم سعد بن قيس بن عيلان بن مضر تحت عنوان ذكر من لقب ببيت شعر قاله . فلقب أعصر إنما جاء من شعره حتى صار لايعرف إلا به ويذكر أنه من قدماء الشعراء .

ومن قبله صاحب الأغانى وابن سلام فى مقـــدمة « طبقات فحول الشعراء

---

(١) المؤتلف والمختلف : ١٤٧، ١٤٨ .
(٢) لسان العرب ١٧/٣٣٥ .
(٣) المؤتلف والمختلف ١٤٧ .
(٤) الاشتقاق ١/١٦٦ .
(٥) المزهر فى اللغة ٢/٢١٨ .

الجاهليين » يوردان بيتيه[١] :

قالت عميرة مالرأسك بعدما فقد الشباب أتى بلون منكر
أعمير إن أباك غير رأسه مر الليالى واختلاف الأعصر

كما وجدنا له بيتاً يستشهد به ابن منظور فى معجمه يقول فيه[٢] :

وقالوا يال أشجع يوم هيج ووسط الدار ضربا واحتمايا

وابن سلام يعلق على البيتين الأولين اللذين أوردهما لأعصر بأنهما : « من قديم الشعر الصحيح وأنه لم يكن لأوائل العرب من الشعراء الأبيات يقولها الرجل فى حادثة ، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف »[٣] .

ويناقش الأستاذ محمود شاكر نص ابن سلام بأن الشعر أقدم مما يزعم ابن سلام وطويله أعتق مما يتوهم . وأنه لو قال هنا فى سبب ذهاب شعر أعصر ما قاله فى سبب ذهاب شعر لبيد وطرفة من أن قدمهما كان السبب فى قلة ماروى عنهما — فإذا صح ذلك — فمن كان قبلهما أجدر أن يذهب من كلامه أكثر مما ذهب من كلامهما [٤] .

ويشك الدكتور طه حسين فى مجموعة الأشعار - ومن بينها هذان البيتان - التى رواها ابن سلام على أنها أقدم ما قالته العرب من الشعر الصحيح ويبنى شكه

---

(١) طبقات فحول الشعراء الجاهليين ٢٩ ، والأغانى ١٥/ ٣٤٩ .
(٢) لسان العرب ٩/٣٠٦ (وسط) .
(٣) طبقات فحول الشعراء الجاهليين : ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) طبقات فحول الشعراء الجاهليين ٢٤ .

على أن هذا الشعر سخيف سقيم ظاهر التكلف بيّن الصنعة ويرجح أن راوياً من الرواة أو قاصاً من القصاص تكلفه، ليفسر مثـــلا من الأمثال أو أسطورة من الأساطير أو لفظاً غريباً أو ليلذ القارىء أو السامع ليس غير[١] .

أما شكه فى هذين البيتين على وجـــه الخصوص فيقيمه على أساس أن معداً — بحديث ابن سلام — كان يعيش فى العصر الذى كان يعيش فيه موسى بن عمران أى قبل المسيح بقرون عدة ، أى قبل الإسلام بأكثر من عشرة قرون، وأن أعصر هو ابن سعد بن قيس عيلان بن الياس بن مضر بن نزار بن معد وعلى هذا فيكون قد عاش فى زمان متقدم جداً ، واللغة العربية لم تكن معروفة قبل الإسلام بأكثر من ثلاثة قرون أو أربعة ، وفى الوقت الذى يجد الباحث فيه مشقة فى فهم الشعر العربى الصحيح الذى قيل أيام النبى أو بعد النبى صلى الله عليه وسلم لايجد شيئاً من العسر فى فهم هذا الكلام الذى إن صح رأى ابن سلام فقد قيل قبل النبى صلى الله عليه وسلم بأكثر من عشرة قرون ، ورأيه بجلاء أن هذين البيتين إنما قيلا فى الإسلام ليفسرا اسم هذا الرجل الذى هو فى حقيقة الأمر من أشخاص الأساطير لا يعرف أوجد فى حقيقة الأمر أم لم يوجد[٢] ؟

وكنية طفيل « أبو قران » أوردها لنا أبو الفرج الأصفهانى[٣] ، وأبو عبيد البكرى[٤] ، وابن السيد البطليوسى[٥] ، والعينى[٦] ، وقد وجدناه يذكر هذه الكنية فى شعره حيث يقول[٧] :

---

(١) فى الأدب الجاهلى : ١٩٦ .
(٢) المصدر السابق ١٩٧ .
(٣) الأغانى ١٥ / ٣٤٩ .
(٤) سمط اللآلىء ١ / ٢١٠ .
(٥) الاقتضاب ٢٢٧ .
(٦) المقاصد النحوية ٢٤ .
(٧) الديوان ٥٨ .

حتى يقال وقد عوليت فى حرج أين ابن عوف أبو قران مجعول

ويلقب الرواة والنقاد القدماء طفيل الغنوى بالمحبر ، ومن هؤلاء الذين وصفوه بهذا اللقب الأصمعى فى مقدمة ديوانه[1] ، وفى كتابه فحولة الشعراء[2] ، وابن قتيبة[3] فى الشعر والشعراء ، والآمدى فى المؤتلف والمختلف[4] ، والبكرى[5] فى سمط اللآلىء ، والزمخشرى[6] فى الفائق فى غريب الحديث ، وابن السيد البطليوسى[7] فى الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ، وجلال الدين السيوطى[8] فى شرح شواهد المغنى ، وفى المزهر[9] فى اللغة ، وعبد القادر البغدادى[10] فى خزانة الأدب .

وللقدماء فى تعليل هذه التسمية رأيان :

الرأى الأول : وعليه جمهرتهم أنه كان يقال له المحبر لحسن شعره ووصفه .

الرأى الثانى : أنه سمى بذلك لقوله يصف برداً :

سماوته أسمال برد محبر وسائره من أتحمى معصب

ولم يقل بهذا الرأى سوى عبد القادر البغدادى[11] (ت ١٠٩٣ هـ) وحتى

---

(١) مقدمة الديوان ١٧ .
(٢) فحولة الشعراء ص ١٦ .
(٣) الشعر والشعراء ٢٥٧ .
(٤) المؤتلف والمختلف ١٨٤ .
(٥) سمط اللآلىء ٢١٠/١ .
(٦) الفائق فى غريب الحديث ٥٤١/١ .
(٧) الاقتضاب ٢٢٧ .
(٨) شرح شواهد المغنى ١٢٥/١ .
(٩) المزهر ٤٣٠/٢ .
(١٠) خزانة الأدب ٦٤٣/٣ .
(١١) المصدر السابق ٦٤٤/٣ .

هذا الرأى لم يقل به هو ، والصيغة التى أورده بها تدل على عدم اقتناعه بصحته فقد صدره بالفعل المبنى للمجهول (قيل) .

ونحن من جانبنا نميل إلى الرأى الأول يعضدنا فى ذلك أن القدماء درجوا على إعطاء الشعراء ألقاباً تدل على براعتهم وقدرتهم على توفير ألوان من الجودة والصنعة فى شعرهم(١). فقد لقبوا امرأ القيس بن ربيعة التغلبى وكان اسمه عديا بالمهلهل لأنه أول من هلهل ألفاظ الشعر وأرقها(٢) ، كهلهلة الثوب وهو اضطرابه واختلاقه(٣)، ولقبوا عمرو بن سعد شاعر قيس بن ثعلبة بالمرقش الأكبر لتحسينه شعره وتنميقه(٤) ، ولقبوا ابن أخيه ربيعة بن سفيان بالمرقش الأصغر ، كما لقبوا شاعرنا طفيلا الغنوى بالمحبر ، ونصوا على أن ذلك لتحسينه ، وتزيينه شعره ، كما لقبوا علقمة بالفحل لجودة أشعاره(٥) ، ولقبوا غير شاعر بالنابغة لنبوغه فى شعره كالنابغة الجعدى والنابغة الشيبانى والنابغـــة التغلبى والنابغة الذبيانى ، ومن ألقابهم التى تدل على احتفالهم بتنقيح الشعر المثقب والمتنخل(٦) وأورد الآمدى فى المؤتلف والمختلف اسم شاعر آخر يشارك طفيلا فى لقب المحبر وهو المحبر الثقفى ربيعة بن سفيان بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن قينى وهو فارس شاعر(٧) .

ويلقب طفيل أيضاً بطفيل الخيل لكثرة وصفه لها(٨) ، وبراعته فى الوصف ، فأكثر ما يحتفل به من المعانى يدور حول وصف الخيل والتفنن فى نعتها والثناء

---

(١) انظر العصر الجاهلى : ٢٢٧ ، والفن ومذاهبه فى الشعر العربى : ٢٦ .
(٢) الأغانى ٥/٥٧ .
(٣) طبقات فحول الشعراء الجاهليين ٢٣ .
(٤) المفضليات ١/٤١٠ ، ٤٨٥ .
(٥) الأغانى (طبعة ساسى) ٢١/١١٢ .
(٦) العصر الجاهلى : ٢٢٧ .
(٧) المؤتلف والمختلف : ١١٤ .
(٨) الأغانى ١٥/٣٥٠ .

عليها والإفراط فى حبها والإكثار من ذكرها بحيث لا تكاد تخلو قصيدة من ذكرها ، فهو يدخلها فى كل باب من شعره .

(٣) نشأتـــه :

إذا رجعنا إلى المصادر التى بين أيدينا نستلهمها شيئاً عن نشأة طفيل الأولى والمؤثرات التى أثرت فى شخصيته فى صباه عدنا صفر اليدين ، إذ لا نجد فيها أخباراً تكشف لنا عن نشأة طفيل الأولى اللهم إلا خبراً واحداً ، على أن ما ورد فيه لم يكن مقصوداً لذاته ، وهو ما رواه صاحب الأغانى عن الأصمعى حيث يقول : . ثلاثة كانوا يصفون الخيل لا يقاربهم أحد :طفيل ، وأبو دؤاد، والجعدى : فأما أبو دؤاد فإنه كان على خيل المنذر بن النعمان بن المنذر ، وأما طفيل فإنه كان يركبها وهو أغرل[١] إلى أن كبر ، وأما الجعدى فإنه سمع ذكرها من أشعار الشعراء فأخذ عنهم .[٢] والذى يعنينا من هذا الخبر أن طفيلا كان يركب الخيل منذ نعومة أظفاره كان يركبها وهو صبى صغير . وكأن حب طفيل للخيل نشأ فى صباه ، ثم أخذ يزداد ويكبر معه إلى أن تحول شعراً نقرأه فنطرب له .

هذا هو الخبر الوحيد الذى يعكس لنا هواية طفيل منذ صباه وهى ركوب الخيل فقد ظل يركبها منذ صباه إلى أن كبر . وأغلب الظن أن طفيلا عاش عمره فى البداوة كأكثر شعراء الجاهلية ، يفتح عينيه مع الصباح على رمال الصحراء ، ويغمضها مع الليل على ظلام الأفق الممتـــد أمام عينيه ، ويضطرب فيما بين الصباح والليل فى حياة البداوة الخشنة البسيطة ، وظل فى قومه يتنقلون بخيامهم وإبلهم بين رياض البادية وقفارها ، سعياً وراء الماء والكلأ ، وما نظنه غادر البلاد فى صباه إلى حواضر الأمصار إلا بين الفينة والفينة لأسباب قد تكون

---

(١) الأغرل : الصبى الذى لم يختتن .
(٢) الأغانى ١٦/٢٧٥ .

طارئة ولفترة موقوتة تنتهي بانتهاء السبب الطارىء الذى استدعى نزوله إلى الحاضرة.

إلا أن طفيلا حينما كبر نجده يسود قومه فيجعلون له ربع أموالهم[١]، وكان يفرض للسيد قديماً ربع مال الغنائم، كما نجده يشارك فرسان قبيلته في الأحداث الحربية والسياسية، فقد وجدناه يجمع فرسان غني ويشن بهم هجوماً خاطفاً على قبيلة طيء، وتتمكن الكتيبة بقيادته من الانتصار، وكانت هذه الموقعة بين القنان وشرقى سلمى[٢]، كما تمكنت الكتيبة من دخول جبلي طيء أجأ وسلمى، وغنمت غني غنائم كثيرة واستردت المواشي والسبي وقتلت منهم قتلى كثيرة وبذلك استطاع طفيل بقيادته لفرسان غني أن يغسلوا عار هزيمة محجر التى لحقتها بهم طيء.

ويبدو أنه كان يقوم أحياناً بدور السفارة بين قبيلته وغيرها من القبائل لأننا نجده فى الأزمة التى حدثت بين غني وجعفر بن كلاب لما قتل أحد الغنويين ابن عروة الرحال الجعفرى، وعرضت غني الدية على بنى جعفر فأبت بنو جعفر أن تأخذ دية جعفرى من غنوى، فارتحلت غني إلى بنى بكر فلما بدا الشر من جعفر قال طفيل لبنى أبي بكر : ادفعونى إلى بنى جعفر، فو الله لا يتعدون علينا، ولا يظلموننا حتماً هو لنا عندهم، فإن جعفراً لا تقر على هذا فأبوا»[٣].

ويشهد طفيل اضطراب قبيلته بين الحجاز ونجد وأطراف الشام وجنوبى الجزيرة العربية فى اليمن وموالاتها لبنى الحارث بن كعب، وبنى جعفر، وبنى سعد ابن عوف.

ويذكر الصولى أن وفاته كانت على فراشه، فقد أورد بيتاً لسهم بن حنظلة الغنوى الشاعر المخضرم يعيره فيه بالموت على فراشه فيقول له :

---

(١) العقد الفريد ٣/٣٥٢.

(٢) الأغاني ١٥/٣٥٢.

(٣) النقائض (طبع أوربا) : ٥٣٢.

يحمد من سنانك غير ذم   أبا قران مت على مثال[1]

(٤) عصره :

لا نستطيع أن نعين تاريخ مولد طفيل ولا تاريخ وفاته على وجه التحديد ، لأن المصادر القديمة لم تذكر هـــذا التاريخ ، شأنها فى ذلك كشأنها مع كل الشعراء الجاهليين ، وحتى المحاولة التى قام بها اسكندر أغا ابكاريوس فى كتابه « روضة الأدب فى طبقات شعراء العرب » من ذكر عام الوفاة لـكل شاعر من الشعراء الذين ذكرهم لم تـكن تعتمد إلا على الحدس والتخمين مستندة فى ذلك إلى إشارات قديمة غير كافية فى بعض الأحيان ، ولـكن من الممكن فى دراستنا لعصر طفيل أن نعين متى كان يعيش على وجه التقريب بالإعتماد على :

١ ـــ شواهد تاريخية :

١ ـــ فقد ذكر صاحب الأغانى أن طفيـــلا أكبر من النابغة[2] ، ومن المرجح أن يكون النابغة توفى سنة ٦٠٤ م[3] ، أما صاحب الأعـــلام فقد ذكر أنه عاصر النابغة الجعدى وزهير بن أبى سلمى ، ومات بعد مقتل هرم بن سنان ، ويحدد سنة ١٣ ق.هـ = ٦١٠ م تاريخاً لوفاته ، ومن المعروف أن النابغة الجعدى كان معاصراً للمنذر بن محرق[4] الذى امتد حكمه مابين ٥٦٩ - ٥٨٠م ، وكان النابغة الجعدى أسن من النابغة الذبيانى[5] لأنه كما ذكرنا كان مع المنذر

---

(١) أبو قران : كنية طفيل ، المثال : الفراش . راجع أخبار أبى تمام : ١٤٠ .

(٢) الأغانى ١٥ / ٣٥٠ .

(٣) العصر الجاهلى ٢٧٥ ، وشعراء النصرانية ٦٤٠ .

(٤) تاريخ العرب ١/١١١ ، والعصر الجاهلى ٤٥ ، ٤٦ وفيه نهاية حكم عمرو بن هند ٥٦٩م ، وبداية حكم النعمان ٥٨٠ م ، وبين النهاية والبداية ولى أمر الحيرة المنذر الرابع الا أن مدته لم تطل .

(٥) كتاب المعمرين ٤٩ ، ١٦٤ ، وطبقات فحول الشعراء ١٠٣ .

ابن المحرق ، أما الذبيانى فقدكان مع النعمان بن المنذر (٥٨٠ — ٦٠٢ م) والدليل على قدم النابغة الجعدى عن النابغة الذبيانى وملازمته للمنذر بن محرق قوله[1] :

تذكرت شيئاً قد مضى لسبيله ومن عادة المحزون أن يتذكرا
نداماى عند المنـذر بن محرق فأصبح منهم ظاهر الأرض مقفرا
كهول وفتيان كأن وجوههم دنانير مما شيف فى أرض قيصرا

فهذه الأخبار التاريخية تؤكد وجود طفيل منذ مطلع النصف الثانى من القرن السادس الميلادى .

٢ — أشار طفيل فى شعره إلى حادث عصيان الفيل لأبرهة ملك الحبشة حيث يقول[2] :

ترعى منابت وسمى أطـــاع له بالجزع حيث عصى أصحابه الفيل

ومن الثابت أن عام الفيل هو عام مولد الرسول صلى الله عليه وسلم أى حوالى سنة ٥٧١م وهذا يشير أيضاً إلى وجوده فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى.

٣ — فى الديوان قصيدة وجهها طفيل للملك النعمان بن المنذر حينما أغار على إبل لسان بن عائذ الضبى . وأتى غنيا الصريخ وهم بالرخيمة فجاءت غنى حتى ردتها وأخذوا إبلا للملك واستاقوها وكانت تعرف فى ابلهم حتى جاء الإسلام وفى هذه القصيدة يقول طفيل[3] :

عذرنا أن تعاقبنـــا بذنب فما بال ابن عائذ المصـــاب

---

(١) كتاب المعمرين ٤٩ ، وطبقات الشعراء ١٠٣ ، وكتاب روضة الأدب فى طبقات شعراء العرب ٢٠٦ ، والأبيات هنا برواية طبقات الشعراء وهى للنابغة الجعدى .

(٢) الديوان : ٥٦ .

(٣) الديوان : ٩١ .

أألجرم أم جنى أم لم تخطوا ... له أمناً فيوجد فى الكتاب

ولعله يشير فى البيت الثانى إلى الاتفاق الذى كان بين القبائل النجدية وبين النعمان بأن تدين له بالولاء فى نظير حمايتها ، ومعروف أن قبائل نجد كانت تدين بالولاء للمناذرة منذ قضوا على دولة كندة[1].

وهذه الحادثة التى ذكرناها والتى كان اتصاله فيها بالنعمان اتصالا مباشراً يقابلها من ناحية أخرى ارتباط بالنعمان ولكن بطريق غير مباشر ، وذلك لأن طفيلا ارتبط بعصمة بن سنان بن خالد بن منقر فقد استجاره طفيل فى يوم الوتدات[2] فأجاره وهو يوم كان لبنى نهشل بن درام على بنى هلال بن عامر بن صعصعة وفى ذلك يقول طفيل :

عصيمة أجزيه بما قدمت له ... يداه إلا أجزه السعى أكفر

تداركنى وقد برمت بحيلتى ... بحبل امرىء إن يورد الجار يصدر

أفدى بأبى الحصان وقد بدت ... من الوتدات لى حبال معبر

وقد ارتبط عصمة بن سنان هذا بالنعمان بن المنذر إبان حكمه ، فقد روى أن النعمان غضب على بنى عامر بن صعصعة ، فقتل منهم ناساً وشردهم فألجأهم عصمة وأجارهم فبعث إليه النعمان : « ابعث إلى بعبيدى فأبى ، ونادى فى قومه بشعارهم « كوثر » فلما أقبل النعمان استقبله عصمة فأهوى بالرمح إلى معرفة فرسه وقال له « وراءك أيها الملك الضروط ، فلوشئت أن أضعه فى سوى هذا الموضع لوضعته ، ثم إن عصمة كسابنى عامر وبلغهم مأمنهم وقال فى ذلك :

منعنا من النعمان سادة عامر ... بأسيافنا فى الموقف المتهيب

فمهلا أبيت اللعن : لاترج ذمتى ... فما لى عن جارى بنفسى مرعب

---

(١) العصر الجاهلى ٣٦٢ .

(٢) الديوان ١٠١ ، والنقائض ٣٨٩ .

وارتباط طفيل المباشر وغير المباشر بالنعمان بن المنذر يجعلنا نؤكد ما ذهبنا إليه من أنه كان موجوداً فى أواخر القرن السادس الميلادى .

٤ — ويدخل ضمن الشواهد التاريخية معاصرة طفيل لزيد الخيل الطائى ، ويروى أن زيد الخيل قاد قبيلة طىء وغزا بهم غنى ؛ وأعمل فيهم القتل والسلب والسبى ، ويروى أنه أسر الحطيئة فى هذه الموقعة فجز ناصيته وأطلقه [1] وهى موقعة محجر وفى ذلك يقول زيد الخيل [2] .

جلبنا الخيل من أجأ وسلمى　　تخب نزائعا خبب الذئاب
ويوم الملح يوم بنى نمـــير　　ضربناهم بأظفــــار وناب
وآنف أن أعـــد على نمير　　وقائعنـــا بروضات الرباب
فخيبة من يخـــير على غنى　　وباهلة بن أعصر والركاب
وأدى الغنم من أدى قشيرا　　ومن كانت له أسرى كلاب

ولكن طفيلا يقود فرسان قومه فى معركة خاطفة فينتصر فيها على طىء ويدخل جبلى سلمى وأجأ ويغسل عار هزيمة محجر ، ويجيب زيد الخيل بنقيضته التى يقول فيها [3] :

سمونا بالجيـاد إلى أعاد　　مغاورة بجد واعتصاب
نؤمهم على رعب وشحط　　بقود يطلعن من النقاب
طوال الساعدين يهز لدنا　　يلوح سنانه مثل الشهاب
ولو خفناك ما كنا بضعف　　بذى خشب نعرب والكلاب
وقتلنا سراتهم جهاراً　　وجئنا بالسبايا والنهاب

---

(١) الأغانى ١٥/٣٠٤ — ٣٠٦ .
(٢) مجموعات المعانى : ١٨٠ ، والاقتضاب : ١٥٨
(٣) الديوان ٩٦ ، ٩٧ .

سبايا طيء أبرزن قسراً　　وأبدلن القصور من الشعاب
سبايا طيء من كل حي　　بمن فى الفرع منها والنصاب
وما كانت بناتهم سبياً　　ولا رغباً يعد من الرغاب
ولا كانت دماؤهم وفاء　　لنا فيما يعد من العقاب

ومن الثابت أن زيد الخيل قدم على الرسول ﷺ سنة ٩ هـ ودخل فى الإسلام وأطلق عليه الرسول ﷺ زيد الخير .

(ب) شواهد أدبية :

١ — إذا ذكر طفيل قيل « إنه شاعر قديم من شعراء الجاهلية »[١] أو قيل « إنه من أقدم شعراء قيس »[٢]، أو « ليس فى قيس فحل أقدم منه »[٣]

٢ — روى الأصمعى أنه أخذ عن امرىء القيس شيئاً ، والمعروف أن تاريخ امرىء القيس هو (٥٠٠ — ٥٤٠ م)[٤] .

٣ — الروايات على أنه أقدم من أوس بن حجر (ت ٦١٠م)[٥] ، وزهير بن أبى سلمى (ت ٦٠٩م ، والنابغة (ت ٦٠٤م) ، وأن زهيرا كان راويته ، وأن أوسا كان راويته وتلميذه[٦] ، وأن النابغة أخذ عنه . أما دائرة المعارف الإسلامية فتنص على رواية أوس لشعر طفيل ، فى حين نجد بروكلمان ينص على رواية أوس لشعر طفيل وتلمذته على يديه حيث يقول :

---

(١) الاشتقاق : ١٦٥/١ .
(٢) الأغانى ٣٤٩/١٥ .
(٣) المصدر السابق ١٥/ ٣٥٠ ، وشرح شواهد المغنى ١٢٥ .
(٤) العصر الجاهلى ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، والفن ومذاهبه فى الشعر العربى : ١٩ .
(٥) تاريخ آداب اللغة العربية ٨٢/١ وفيه سنة وفاة أوس ٦١٠ م وسنة وفاة زهير ٦٠٩ م ، ومن المعروف أن بدء الدعوة الإسلامية كان سنة ٦١٠ م .
(٦) بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ٩٥/١ .

« وكان أوس راوية طفيل الغنوى وتلميذه[١] » ، وأما رواية[٢] زهير لشعره فينص عليها ابن رشيق بقوله :

« وكان زهير راوية أوس بن حجر وطفيل الغنوى جميعاً » ، وقد وجـــدنا الأصمعى فى مقدمة الديوان يذكر أن كل الشعراء أخذوا من طفيل حتى زهير والنابغة[٣]. وهذا يؤكد أسبقية طفيل على كل من أوس وزهير والنابغة .

فإذا أخذنا هذه الشواهد التى ذكرناها لدلت احتمالا على أن طفيلا كان حياً منذ مطلع النصف الثانى من القرن السادس حتى نهايته ، ونحن لن نقطع فى تاريخ وفاته بالتحديد ولكن أغلب الظن أنه توفى قبل بدء الدعوة الإسلامية بقليل ، فمن ناحية ليس فى شعره ما يدل على أنه أدرك النبى محمداً ﷺ ، ومن ناحية أخرى أن راوييه أوسا وزهيرا توفيا أيضاً قبل أن يدركا الإسلام ، وقد يكون التـــاريخ الذى يذكره الزركلى[٤] لوفاته (٦١٠) صحيحاً ، فالزركلى يذكر أنه مات بعد مقتل هرم بن سنان[٥]، والثابت أن هرم بن سنان قتل بعد أن انتهت حرب داحس والغبراء سنة ٦٠٨ م وأن زهير بن أبى سلمى توفى سنة ٦٠٩ م أى قبل بدء الدعوة الإسلامية بعام .

---

(١) بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ١/٣٥ .

(٢) العمدة ١/١٢٢ ، وانظر العصر الجاهلى ٣٠٦ .

(٣) مقدمة الديوان ١٧ .

(٤) الاعلام ٣/٣٢٠ .

(٥) الاعلام ٢/٣٢٣ .

الفصل الثالث

شخصيته

١ ـ السمات الاجتماعية

٢ ـ السمات العقلية

٣ ـ السمات العاطفية

٤ ـ السمات الدينية

لانكاد نعرف شيئاً كثيراً عن شخصية طفيل لأن المصادر القديمة التى تكلمت عنه لم تسهب فى هذا الكلام . وكانت نتيجة ذلك أننا أصبحنا نجهل شخصيته ، ولا نكاد نعرف عنها تفاصيل تفسح أمامنا طريق البحث فى رسم أطرافها ، وتبيان معالمها فليس لنا إذا إلا أن نرجع إلى ديوانه نستقرىء شعره لعل الشعر الذى قاله يفيدنا . مع الأخبار القليلة التى نجدها فى المصادر القديمة فى رسم شخصية الشاعر فى جوانبها المختلفة ، وذلك فى مجال البحث فى شخصيته.

وقد قسمت السمات التى تحدد أبرز الخطوط فى شخصية طفيل إلى أربع سمات :

الأولى: السمات الاجتماعية: وسأتناول فيها الحديث عن فروسيته أو شجاعته، وما يتبعها من فروسية خلقية ، من الكرم ، وإغاثة الملهوف ، وإجابة الصريخ، وحماية الضعيف ، والنساء ، وإباء الهوان والضيم ، والأخذ بالثأر ، ثم سأتناول فيها الحديث عن سيادته واعتداده بشخصيته وقبيلته .

الثانية : السمات العقلية : من حكمة ، وحنكة ، وسداد ، وحلم ، وآراء معينة فى الحياة ، ومعارف عقلية وعملية .

الثالثة : السمات العاطفية : من اعتدال عاطفى ، واتزان وجدانى ، واقتصاد فى اللهو ، والجد فى سلوكه فى حياته

والرابعة : السمات الدينية : والتى تمثل ارتباطه بالوثنية ، وعبادته كسائر أفراد قبيلته اللات والعزى ومناة .

وفى تقسيمنا لهذه المظاهر المختلفة التى ترسم لنا صورة لشخصية طفيل لانعنى بها أنها جوانب منفصلة عن بعضها الآخر ، فهذا التقسيم بقصد الإبانة والإيضاح ، ولكن هذه الجوانب فى حقيقتها متصلة متداخلة وبمجموعها تتضح شخصية الشاعر .

السمات الاجتماعية

كان العرب فى الجاهلية فرسانا على السليقة ، فقد فرضت عليهم طبيعة البيئة هذه الفروسية ، إذ ألحت على العربى حاجات العيش فى بيئة شديدة الجــــدب ، فدفعته إلى تعلم ركوب الخيل ، واقتناء الأسلحة وما يتبع ذلك من نشاط وبراعة وجرأة . ولم تسد الروح الحربية مكاناً كما سادت بلاد العرب . وكان الاستعداد للحرب وخوض غمارها هو شغلهم الشاغل فى هذه الظروف الاجتماعية القاسية ، فالحرب تتيح الغنيمة وتغسل عار الهزيمة ، وبالحرب يدرك العربى ثأره ، ويعيد الإبل والنساء ، حتى إذا قضى نحبه فى القتال لم تغمد القبيلة سيوفها حتى تثأر له.

وكانت الشجاعه فى ميدان القتال واظهار ضروب من الفروسية والإقدام تلحق العربى بطائفة الفرسان المدافعين عن القبيلة ضد كل عاد على حماها . وتجعل بعضهم يتفوق على بعض بما يخلد مناقبهم ومفاخرهم ، وتورث الفرد والقبيلة حسن الذكر . ففوز الفرد فى ميدان القتال كان فوزاً لقبيلته بأسرها وهزيمة لأعدائها .

وفى مجال بحثنا يظهر لنا اسم شاعرنا كما يظهر اسم زيد الخيل ، وسبق لنا أن ذكرنا أنه قاد فرسان قومه وشن هجوماً على طىء غسل به عار هزيمة محجر .

وردد البصر فى أشعار طفيل فستجده يعتـــد بفروسيته وفرسان قومه ، ويفخر لغسلهم عار هزيمة محجر ، وانتقامهم من طىء وسبيهم لإبلهم ونسائهم الشريفات المنعمات يقول [1] :

فرحنا بأسراهم مع النهب بعدما ... صبحناهم ملمومة لا تكذب
قتلنا بقتلانا من القوم مثلهم ... وبالموثق المكلوب منا مكلب
وبالنعم المأخوذ مثـــل زهائه ... وبالسبى سبى والمحارب محرب
وبالمردفات بعد أنعم عيشة ... على عدواء والعيـــون تصبب

(١) الديوان ٤٤، ٤٦، ٤٧، ٤٨ .

إلى كل فرع من ذؤابة طيء | إذا نسبت أو قيل من يتنسب
وبالبيضة الموقوع وسط عقارنا | نهاب تداعى وسطه الخيل منهب
ومن الألى أدركن تبل حجر | وقد جعلت تلك التنابيل تنسب
فما برحوا حتى رأوها تكبهم | تصعد فيهم تـــارة وتصوب

فقد تم لفرسان غنى أسرهم ونهب أموالهم، وذلك بعد أن أحاطوا بهم صباحا بكتيبة منتشرة لاتحجم عن إحراز النصر، حتى تم لهم إدراك ثأرهم فقتلوا منهم مثلما قتلوا من غنى، وأسروا امثلما أسر منهم، وسبوا سبايا كثيرة. ولقد استطاع فرسان غنى أن يدركوا ثأر حجر، وأن يأخذوا بثأر كل يوم كان عليهم.

ونلاحظ فى هذه الأبيات وفى غيرها إحساس طفيل العميق بالعصبية وهى، الرابطة الى كانت تجمع بين أفراد القبيلة جميعاً نتيجة لإيمانهم بوحدة الأصل، ورابطة الدم التى تربط بينهم.

وكانت عدة الفرسان فى ميدان القتال الخيل والأسلحة، سواء أكانت هجومية أم دفاعية، وقد ذكر فارسنا هذين النوعين من الأسلحة فى شعره، فن الأسلحة الهجومية التى حفل بذكرها الرماح والسيوف والقسى وما يتبعها من سهام. ومن الأسلحة الدفاعية الدروع، وسنتناول موضوعى الخيـــل والأسلحة بالتفصيل حينما نتعرض لدراسة موضوعات شعره. وارتبطت الفروسية المادية عند طفيل بالفروسية الخلقية المعنوية، كما هى عند سائر الشعراء الفرسان فى العصر الجاهلى، فقد ولدت المروءة فى صحارى العرب بما تشتمل عليه من كرم، وإغاثة الملهوف وحماية النساء، وإباء الضيم، والعفة، والسمو الخلقى. وكانت هـــذه الصفات الخلقية هى أسلوب الحياة الذى عم شعباً بأسره، لم يطلع بها عليهم دين، ولم يأمر باتباعها سلطان، أو يوضع لرعايتها قانون، ولكن ميلا طبيعيا إلى الخير يكفل لمن يتمسك به أن يتبـــوأ شرف المكانة بين القوم، ويكتسب تقدير أهله واحترامهم ومحبتهم وإعجابهم. كان عليه أن يمتاز بالحكمة والسخاء، وبالشجاعة

والفصاحة ، وبحماية المرأة والضعفاء ، وكرم الضيافة ، وكان عليه فى حلبة الفضائل العربية أن يفوز بالسبق وأن يستحق أجمل صفة .

كانت بحق سجية الكرم من أهم السجايا العربية ، ومن هنا وجدنا طفيلا يسير على نهج هذه الفضيلة التى سار عليها العرب فى العصر الجاهلى فنراه يقول (١) :

ولا أقول لجار البيت يتبعنى — نفس محلك إن الجو محلول
ولا أقول وجم الماء ذو نفس — من الحرارة إن الماء مشغول
ولا أكون وكاء الزاد أحبسه — إنى لأعلم أن الزاد مأكول

فهو يتحدث فى هذه الأبيات عن كرمه ومثله الخلقية فى معاملة جيرانه وضيوفه ، فجاره الذى اختار أن يكون معه لا يمكن أن يقول له تحول فإن المنزل حل به غيرك ، وطفيل السيد فى قومه لا يستطيع أن ينكر مياهه ويقول إنها مشغولة ، فما دام فى البئر جم من ماء وفضل ، فعليه إذن أن يسمح للسائلين وما معهم من إبل وحيوانات أن يردوها ، وطفيل عرف كسائر العرب الكرام أن الزاد سوف يؤكل إن آجلا أو عاجلا ، فمن العبث شده وربطه ومنعه عن الناس، لذلك يقول : لا أكون وثاقا على الزاد أربطه وإنى أعلم أنه سيفنى ويذهب .

ويقول طفيل : (٢)

لحافى لحاف الضيف والبيت بيته — ولم يلهنى عنه غزال مقنع
أحدثه إن الحديث من القرى — وتكلأ عينى عينه حين يهجع

فهو ينزل الضيف أحسن منزل . ويحله محل نفسه، ويقدم له غطائه ، ويبيح له بيته، ولا ينصرف عنه لاهيا مع من تكون فى المنزل من حليلة مقنعة ، كالغزال فى

(١) الديوان ٥٧ ، ٥٨ .
(٢) الديوان ١٠٣ .

جمالها وخفتها ، بل يظل يجاذبه أطراف الحديث لأنه يعــد محادثة الضيف ضرب من القرى الذى ينبغى أن يقوم به المضيف تجاه الضيف ، حتى إذا هجع ظلت عينه يقظة تلاحظه وتحميه وتسهر عليه وتدرأ عنه ما قد يصيبه .

ويعود طفيل فيتحدث بلسان قبيلته مظهراً كرمها وكرمه كعضو فيها، وموقفهما من طفيل بن مالك سيد بنى جعفر بن كلاب الذى ارتبــط بسادات غنى عن طريق المصاهرة ، وقد نزل فى غنى عند أسماء بن واقد بن وقدان وهو خاله فحمله على فرسه وغزا معه فغنموا إبلا كثيرة أصبحت لمالك ولم تـكن له من قبل .

يقول طفيل فى ذلك (١) :

وأشعث يزهاه النبــوح مدفع ... عن الزاد ممن خلف الدهر محثل
أتانا فــلم ندفعه إذ جاء طارقاً ... وقلنا له قد طال طولك فانزل
هنأنا فــلم نمنن عليه طعامنا ... فراح يبارى كل رأس مرجل
فأبل واسترخى به الشأن بعدما ... أساف ولولا سعينا لم يؤبل
فذاك ولم نحرم طفيل بن مالك ... وكنا متى ما نسأل الخير نفعل
لنـا معقل بذ المعاقل كلهـــا ... يرى خاملا من دونه كل معقل

وهنا نرى طفيل الغنوى يذوب فى قبيلته فهو لا يعبر عن كرمه فحسب ، وإنما يعبر عن كرم قومه جميعاً، فشخصيته ذائبة فى شخصية الجماعة الـكبيرة التى ينتسب إليها ، مظهراً كرمها حيال طفيل بن مالك الذى أتاهم وقد أصابته شدة، فماتت إبله ومرث شعره ، وأسلمه نباح الـكلاب إلى حال من الخـــوف والرعب ، وساء غذاؤه، جاءهم فلم يبعدوه بل رثوا لحاله ، فقد طالت عليه ليلته ، ولم يمسكوا عنه طعامهم ، بل قدموا له الطعام وسووه بأنفسهم ، فاكتسب إبلا عندهم بعد أن كانت إبله قد ماتت، وطاب له المقام ، وحسنت حاله فلم يبرح ، ولولا فعلهم

---

(١) الديوان ٧٠ ، ٧١ .

به ما كانت له إبل . وهـــذه عادتهم إذا ما سئلوا الخير قدموه عن طيب خاطر، ولا غرو فلهم مكانة رفيعة وشرف عظيم يصغر بجانبه كل شرف .

ولم يهمل طفيل ذكر المرأة فى شعره ، بل ذكرها فى أكثر من موضـــع فى مناسبات مختلفة،بل له فى النساء رأى معين سنذكره بعد قليل . ولم تـكن المرأة مهملة فى الجاهلية بل كانت لها مكانتها عندهم يدافعون عنها لضعفها، ويعدونها جزءاً لايتجزأ من عرضهم ، ولم يكن شىء يثير حفيظتهم كسبى نسائهم .

وكانت حماية المرأة باعثاً قوياً من بواعث الفروسية فى العصر الجاهلى نجده يقول [١] :

محارمك امنعها من القوم إننى أرى جفنة قد ضاع فيها المحارم

فهو ينصح بأن يحمى المرء كل ماتجب عليه حمايته من نساء وغير ذلك ، وقد رأى آل جفنة لايذودون عن الحرمات .

وتتجلى عنـــد طفيل مثالية رفيعة من الخلق السامى قادته إليها فروسيته ، وكأن الفروسية صفت نفسه وهذبتها وجعلتها نفساً كريمة ذات أخلاق حميدة يقول [٢] :

ولا أخالف جارى فى حليلته ولا ابن عمى غالتنى إذا غـــول

فهو عفيف يرعى للمرأة حرمتها وخاصة إذا كانت زوجة جاره أو ابن عمه فإنه يغض طرفه عنها ، ولا يخالف جاره أو ابن عمه فيها مخالفة تجىء بعـــد مايذهب ، ويدعو على نفسه بالداهية المهلكة إن فعل ذلك . وطفيل بذلك

---

(١) الديوان ١١٠.

(٢) الديوان ٥٨ .

يصور لنا المروءة الجاهلية ، والمثالية الكريمة من الخلق الرفيع التى ظهرت جلية عنده وعند غيره من الشعراء الفرسان .

ويأسرنا طفيل بمثله الخلقية الرفيعة، فهو مع فروسيتهوشجاعته سمح السجايا، واسع الصدر ، ينأى عن أذى الغير ، سهل المخالطة والمعاشرة مع جيرانه ، لايبغى عليهم حتى لايجلب على قومه العار ، يقول عن جاره (١) :

ولا أحدد أظفارى أقاتله ... إن اللطام وقول السوء محمول
إنى أعد لأقوام أفاخرهم ... إذا تنوزع عند المشهد القيل
ولا أجلل قومى خزية أبداً ... فيها القرود ردافاً والتنابيل

فهو لايتعرض لجاره بأذى وشتم لأنه يعرف تمام المعرفة أن الإهانة وكلام السوء منقول فى الناس فاش بينهم . حتى إذا تنازع الناس فى أمر من الأمور واختلفوا فيه ، أعد سلامة الصدر والإخلاص من العيب، فلا يأتى أمراً يكون عاراً على قومه ومأخذاً عليهم .

ولايلبث طفيل فى نفس القصيدة أن يعود إلى الحديث عن كرم نفسه وشرف طباعه فيقول (٢) :

شهدت ثمت لم أحو الركاب إذا ... سوقطن ذو قتب منها ومرحول

فهو لايحارب من أجل الغنائم ، بل يشهد المعركة وليس من همته الغنم وجمع الركاب ، وإنما يحارب ليكسب لقومه شرف الانتصار .

وبجانب ما وجدناه فى شخصية طفيل من شجاعة وكرم ونجدة ، نجد جانباً آخر وهو سيادته لقبيلته ، فالصفات التى ذكرناها تدخل فى واجبات سيد القبيلة

---

(١) الديوان ٥٨ ، ٥٩ .
(٢) الديوان ٦٠ .

كما أن الشجاعة والفروسية ترشحان للسيادة أيضاً ، وقد ذكرنا كيف أن طفيلا جمع فرسان قومه وشن بهم هجوماً على طيء وأحلافهم وأحيائهم المختلفة ، واستطاع بهذه الغارة أن يغسل عار الهزيمة التي لحقت بقبيلته بعد هزيمة محجر ، وكانت هذه الشجاعة سبباً في وصوله إلى هذه المنزلة الرفيعه بين قومه في وقت كان البأس والإقدام هما عدة أولئك المقاتلين المتربصين دائماً ، وهما السبيل إلى تسويد الفرد .

لقد كانت إذن صفة السيادة تخلعها على المرء بطولته الحربية ، وحسن بلاءه في ميدان القتال ، في وقت كانت فيه الشجاعة العملة الدائمه بينهم ، فلم تكن قبيلة غنى لتنقاد خلف طفيل لولا أنه كان أعظمهم شجاعة وأقواهم عوداً .

وهناك نص في العقد الفريد يؤكد ما نذهب إليه من سيادة طفيل لقبيلته « ومن بطون أعصر : غنى بن أعصر بن سعد بن الناس بن مضر ، منهم طفيـــل الخيل ، وقد ربع غنيا [1] » .

وحينما نرجع إلى لسان العرب للبحث في مادة ربع نجده يقول : « وربعهم يربعهم ربعا ، أخذ ربع أموالهم ، وربعهم أخذ ربع الغنيمة ، والمرباع ما يأخذه الرئيس وهو ربع الغنيمة ، قال :

لك المرباع منها والصفايا　　　وحكمك والنشيطة والفضول

الصفايا : ما يصطفيه الرئيس ، والنشيطة : ما أصاب من الغنيمة مثل أن يصير إلى مجتمع الحي ، والفضول : ما عجز أن يقسم لقلته ، وخص به ، وفي حديث القيامة ألم أذرك ترأس وتربع أي تأخذ ربع الغنيمة ، وتأخذ المرباع معناه ألم أجعلك رئيساً مطاعاً ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم قبل إسلامه : إنك لتأكل المرباع ، وهو لايحل لك في دينك . كانوا في الجاهلية إذا

---

(١) العقد الفريد ٣ / ٣٠٢ .

غزا بعضهم بعضاً وغنموا أخذ الرئيس ربع الغنيمة خالصا دون أصحابه وذلك الربع يسمى المرباع ، ومنه شعر وفد تميم :

« نحن الرئيس وفينا يقسم الربع »(١) .

وواضح من نص العقد الفريد وشرح لسان العرب لمادة ربع أن طفيلا كان سيدا على قومه ، له كما للسادة ربع مال الغنائم من سبي وخيـــل وأسلحة وغير ذلك .

وكانت السعة في الثروة من الأمور التي ترشح لسيادة القبيلة ، فهذه الثروة تساعد على إعانة المعوز والضعيف ، وتمكن صاحبها من حمل أكبر قسط من جرائر القبيلة وما تدفعه من ديات . ولم يكن العرب في الجاهلية يعيشون معيشة واحدة فكان فيهم السيد الشريف الثري ، وكان فيهم الفقير البائس المعوز ، كما كان هناك الرقيق والصعاليك والخلعاء . وكان السادة في كل قبيلة يمتلكون مئات الخيول والإبل ، في حين لا يملك الفقراء شيئاً ، وشاعرنا بجانب ماكان يملكه من خيل كان يملك أيضاً مئات الإبل ، وفي الديوان قصيدة يمدح فيها طفيل بني الحارث بن كعب ويتحدث فيها عن إبله الكثيرة فيقول(٢) :

أرى إبلي عافت جدود فلم تذق ... بها قطرة إلا تحـــلة مقسم

وبنيان لم تورد وقد تم ظمئها ... تراح إلى جو الحياض وتندمي

إذا وردت ماء بليـــل كأنها ... سحاب أطاع الريح من كل مخرم

تعارف أشباها على الحوض كلها ... إلى نسب وسط العشيرة معـــلم

غذمنا أباها ثم أحــــرز نسلها ... ضراب العدى بالمشرفي المصمم

فهو في هذه الأبيات يتحدث عن إبله الكثيرة ، وعين الماء الخاصة به والتي

(١) لسان العرب (ربع) .
(٢) الديوان ٧٦ وما بعدها .

تسمى جدود ، وكيف أن إبله عافت ماءها فلم تذق منه إلا قدرا يسيرا بقدر ما يحل المقسم ، وأن الإبل وقد اشتد بها العطش لم ترد مياه عين بنيان ، وهذه الإبل حينما ترد المـــاء بالليل يخيل للرائى من كثرتها كأنها قطع سحاب أطاع الريح من كل منقطع أنف جبل ، وهى إبل أصيلة نسبها معروف وسط العشيرة لأن أباها واحد حافظت السيوف المشرفية على نسله .

ويتحدث طفيل فى قصيدة أخرى عن إبله السمينة فيقول[1] :

أرى إبلى لا تنكع الورد خضعاً إذا شل قوم فى الجوار وصعصعوا

تراعى المهـا بالقفر حتى كأنما إذا أبصرت شخصاً من الإنس تفزع

نظائر أشبـــاه يرعن لمكدم إذا صب فى رقشاء هدراً يرجع

كميت كركن الباب أحيا بناته مقاليتها واستحملتهن إصبـــع

تربع أذوادى فمـــا إن يروعها إذا شلت الأحياء فى الرمل مفزع

وقد سمنت حتى كأن مخـــاضها مجادل بنـــاء تطان وترفع

تهاب الطريق السهل تحسب أنه وعور وراط وهى بيداء بلقع

إذا ساقها الراعى الدثور حسبتها ركاب عراقى مواقـــير تدفع

من النى حتى استحقبت كل مرفق روادف أمثـــال الدلاء تنعنع

فهو يخبرنا بأن إبله فى عز ومنعة وأنها تسير فى الصحراء بدون راع وذلك لعزة أربابها حتى أنها ترعى مع البقر الوحشية ، بل أصبحت رؤية الإنسان لها تفزعها . كما يصف فحلها بالطول وقد بارك الله فى نتاجه ، وأن الإناث من هذا النتاج قد سمنت حتى أشبهت مجادل البناء .

ومن مرشحات السيادة فى القبيلة أن يكون السيد شريف الأصل والأرومة.

(١) الديوان ٨٧ وما بعدها .

وغالباً مايرث سيادته عن آبائه حتى يتم له الحسب الرفيـــع . ويحدثنا طفيل عن حسن بلاء عشيرته وشرفها بين القوم فيقول (١) :

فأقلعت الأيام عنـا ذؤابة ... بوقعنا فى محرب بعد محرب
ولم يجد الأقوام فينـــا مسبة ... إذا استدبرت أيامنا بالتعقب

فهم أعلى قومهم وأشرفهم ، وقد رفعهم حسن بلائهم فى الحروب فجعلهم يبذون الأشراف ، ومن يريد أن يتتبع تاريخهم بغية أن يجد ما يعيب به هـذه العشيرة ، فإنه لن يجد شيئاً يعد عاراً أو مسبة لهم .

والشاعر من عشيرة فناؤها واسع ، ومعقلها فسيح ، تصغر بجانبه كل المعاقل يقول(٢) :

لنا معقل بذ المعـــاقل كلها ... يرى خاملا من دونه كل معقل

فمعقلهم منيع يفوق كل المعاقـــل ، بل إن كل شرف يسقط بجانب أصلهم وشرفهم يقول (٣) :

وما أنا بالمستنكر البين إننى ... بذى لطف الجيران قدماً مفجع
جديراً بهم من كل حى ألفتهم ... إذا أنس عزوا على تصدعوا
وكنت إذا جاورت أعلقت فى الذرى ... يدى فلم يوجد لجنبى مصرع

فهو يقول إنه لاينكر مصيبة الفراق، لأنه دائماً يفجع باللطيف منهم فيفارقه، فهم إذا عزوا عليه وأحب قربهم كان جديراً بأن يفجع بهم، فيتفرقوا ، وهو

(١) الديوان ٣٦ .
(٢) الديوان ٧١ .
(٣) الديوان ٨٦ ، ٨٧ .

حينما يجاور لايجـــاور إلا الأشراف ومن هم على شاكلته من أعالى القوم ، ولاترتفع همته إلا للسيد منهم حتى لا يجترأ عليه أحد ويصيبه بمكروه .

ولكننا نجد الخطيب التبريزى حينما يتعرض لشرح البيت الثـــانى يقول : «يشير إلى أنه يفد على الملوك فلا يخلو من صاحب له يفقده بالموت أو بالظعن »[1] فإن صح ما يذهب إليه التبريزى فى شرحه من أن طفيلا كان يفد على الملوك ، فإن ذلك يؤكد عندنا سيادته لقومه ، فالقبيلة لم ترسل إلى الملوك إلا أشرفها أصلا، وأحسنها حسباً ، وأقواها شكيمة .

كما وأن سيد القبيلة كان يقوم فى الجاهلية بدور السفارة فيستقبل وفود القبائل ويسعى لفض المنازعات ويعقد الصلح والمحالفات والمهادنات بين قبيلته وغيرها من القبائل ، وقد كان لطفيل شىء من هذا فى الحرب التى حدثت بين أبى بكر بن كلاب وبنى جعفر بن كلاب ، وكانت غنى تنزل فى بنى أبى بكر وقد عرض طفيل على بنى بكر موافقتهم على قيامه بدور السفارة لفض المنازعات ، فقال لبنى أبى بكر ادفعونى إلى بنى جعفر فوالله لايتعدون علينا ولا يظلموننا حقاً هو لنا عندهم ، فإن جعفرا لاتقر على هذا ، فأبوا وخرج بنو جعفر متوجهين إلى بنى الحارث ابن كعب ليحالفوهم بعد أن خذلوا فقال طفيل [2] :

لله قوم دفعتم فى جنـــونهم بنى كلاب غداة الرعب والرهب

---

(١) شرح ديوان الحماسة ١/٢٦٦ .

(٢) النقائض ٥٣٢ .

٢ — السمات العقلية

عاش عرب البادية فى الجاهلية عيشة قبائل رحل لاتستقر فى مكان ، والحضارة لاتنشأ إلا عند الأمم المستقرة التى تستخدم العقل فى تنظيم شئون الحياة .

كان عرب الجنوب يعيشون عيشة استقرار لذلك غلبت عليهم الحضارة ، فى حين لم تنشأ الحضارة عند عرب الشمال لأنهم قبائل بدوية ترحل حيث تنبت الأرض الكلأ ، ولكن على الرغم من ذلك فقد كان هؤلاء العرب على صلة بالحضارات المجاورة عند الفرس والروم عن طريق الإمارتين العربيتين المناذرة فى الحيرة ، والغساسنة فى الشام .

وقد ذكرنا عند دراستنا لقبيلة الشاعر أنها كانت تنتقل كثيراً فى أرجاء الجزيرة العربية ، وأنها رحلت جنوبا حتى نزلت فى بنى الحارث بن كعب .

وقبيلة الحارث بن كعب قبيلة يمنية كبيرة تنتسب إلى مذحج إلى كهلان ، احتلت نجران ونواحيها وكانت تدين بالنصرانية ، وكانت نجران أهم موطن للنصرانية فى جزيرة العرب . وقدمات الحارث بن كعب جد هذه القبائل نصرانياً ، (١) وكان من أشراف بنى الحارث بن كعب أسرة بنى عبد المدان بن الديان الذين شيدوا كعبة نجران وكنيستها القليس . وقد شاعت بعضاً من الفنون الجميلة عن هذه الأسرة التى حل طفيل وقومه بسادتها ، كفن التصوير ، ونحت التماثيل ، والتفنن فى بناء القصور والحصون والكنائس . كذلك انتشرت صناعة النسيج والحياكة (٢) ، وكان المثل يضرب برياط اليمن وبروده ، وقد وصفوا أنواعاً من برود اليمن ذكرها ابن سيده فى المخصص .

---

(١) لويس شيخو : النصرانية وآدابها (القسم الأول) ١٢٨ .
(٢) الثعالبى : لطائف المعارف (طبعة ليدن) ١٢٨ .

انتفع طفيل بكل مارآه عند بنى الحارث بن كعب فى نجران ، وأثرت كل هذه العوامل الحضارية فى شخصيته ، فساعدت على رقيه العقلى وجعلت معانيه واضحة سهلة .

وسبق أن ذكرنا حينما تعرضنا لدراسة السمات الاجتماعية وأثرها فى شخصية طفيل أن الخطيب التبريزى حينما تعرض لشرح بيت الطفيل :

جدير به من كل حى ألفتهم — إذا أنس عزوا على تصدعوا

ذكر أن الشاعر يشير إلى أنه كان يفد على الملوك فلا يخلو من صحب له يفقده بالموت أو الظعن[1] .

فإن صح ما يذهب إليه التبريزى من وفادة طفيل على الملوك ، كان طفيل قد اطلع عند هؤلاء الملوك على ضروب من الحضارة والمدنية لم تكن موجودة فى نجد موطن قبيلته ، وساعدت ولاشك على رقيه العقلى .

وكانت للعرب فى الجاهلية معرفة بالنجوم ومطالعها وأنوائها[2] ، وكانت معرفة عملية وليست نظرية ، ولنستمع إلى ما يقوله الجاحظ عن الأعراب حيث يذكر أنهم عرفوا الآثار فى الأرض والرمل . وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء لأن من كان بالصحاصح الأماليس[3] حيث لا إمارة ولا هادى مع حاجته إلى بعد الشقة، مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه[4]، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجدب وضنه بالحياة، اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، ولأنه فى كل حال يرى السماء وما يجرى فيها من الكواكب ، ويرى التعاقب

---

(١) التبريزى : شرح ديوان الحماسة ١ : ٢٦٦ .

(٢) الأنواء : النجوم الساقطة المفرد نوء من ناء إذا سقط .

(٣) الصحاصح : الأرض المستوية ، الأماليس : التى ليس بها ماء ولا شجر .

(٤) يؤديه : يعينه .

بينهما والنجوم الثوابت فيها ، وما يسير منها مجتمعاً ، وما يسير منها فارداً [١]، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً[٢] » .

خلاصة رأى الجاحظ أن الأعــراب استدلوا بالشمس نهاراً وبالقمر والكواكب ليلا ، فعرفوا من الشمس أوقات شروقها وغروبها ، ومن القمر ليالى ظهوره واختفائه ، وكان غرضهم من معرفة الأنواء معرفة أوقات المطر ، وأسمات السفر، يهتدون بسير النجوم ، وهم قوم رحل يقطعون البرارى والقفار، ومنهم القوافل التى كان عليها المعتمد فى المواصلات والأسفار بين الهند وفارس وسواحل الشام .

وحينما تنظر فى شعر طفيل نجد أنه قد تثقف ببعض المعــارف المتصلة بالنجوم والأنواء ، وعرف أسماءها وما زعمته العرب حولها من قصص ،وعرف أوقات تبدى العرب ورجوعها إلى حواضرها . وقد كان العرب فى الجاهلية يخرجون إلى البوادى فى أوقات معينة ، يعرفونها عن طريق النظر إلى النجوم ، وكانوا فى خروجهم يتركون محاضرهم إلى البــوادى ، يبتغون الـكلأ ومسقط الغيث ، ولا يزالون فى البادية ترعى إبلهم ومواشيهم إلى أن يجف النبات وينقطع الرطب ، وتذهب مياه الغدران ، ثم يرجعون بعد ذلك إلى حواضرهم ومياههم التى كانوا عليها قبل التبدى .

ونجد طفيلا وقد عرف أسماء النجوم وأوقات التبدى يقول [٣] :

على إثر حى لا يرى النجم طالعاً   من الليل إلا وهو باد منازله

كما نجد طفيلا يقول [٤] :

---

(١) فاردا : منفردا .
(٢) الحيوان : ٦ / ٣٠ .
(٣) الديوان ٨٣ .
(٤) الديوان ١١٣، واللسان ٨ / ٢٥٠ .

أما ابن طوق فقد أوفى بذمته كما وفى بقلاص النجم حاديها[١]

فطفيل يقـول إن ابن طوق كان صادقاً فأوفى بذمته كما وفى الدبران بذمته ، فساق للثريا فى خطبته لها عشرين نجماً كما تزعم العرب .

وهذا البيت يفيدنا فى أن طفيلا كفرد كان يعيش فى المجتمع الجاهلى،كان على علم بما تزعمه العرب من قصص خيالية كانوا ينسجونها حول النجم وغيره ، كما أنه يعرف الكواكب وأسمائها ، فيعرف قلاص النجم أى العشرين نجماً غنيمة الدبران ، ويعرف الحـادى وهو الدبران ، ويعرف الثريا ، ويعرف أوقات التبدى والانتجاع ، وأوقات العودة إلى الحواضر .

وكان طفيل الغنوى على علم بكل مايتصل بالخيل أصنافها وشياتها وأسماء أعضائها ، وما يستحسن ويستقبح من صفاتها ، وعلى بصر بأمور أسنـانها وأعمارها ، والأمراض التى تصيبهـا ، وما يعالج منها بقطع بعض عروقه ، وما يعالج بالموسى وغير ذلك ، وهو من كثرة ولايتها واقتنائها وركوبها اكتسب معرفة بيطرية واسعة بالنسبة لها ، ولا يخفى أن القـدماء نعتوه بأنه من أعلم العرب بالخيل [٢]. وأن الأصمعى فضله على أوس وزهير فى صفة الخيل حيث قال « من العجب أن النابغة الذبيانى لم ينعت فرساً قط بشىء إلا قوله :

صفر مناخرها من الجرجار

ولم يكن النابغة وأوس وزهير يحسنون صفة الخيل ، ولكن طفيل الخيـل غاية فى النعت وهو فحل ثم أنشد له :

يراد على فأس اللجام كأنما يراد به مرقاة جزع مشذب

---

(١) قلاص النجم : هى العشرون نجما التى ساقها الدبران فى خطبة الثريا كما تزعم العرب. اللسان ٨ / ٣٥٠ ويقال هى قلاصه ، ويقال غنيمه الدبران ،حادى النجم : الدبران .
(٢) الأغانى ١٥ / ٣٥٠ .

وإنما يصف عنقه ، وهو جيد الصفة للخيل جداً » [1] .

وكان طفيل على معرفة واسعة بأمراض الخيــــل وما يصيبها من عروق وأورام جاءته هذه المعرفة من كثرة ركوبه لها واقتنائها وولايتها ، فهو على بصر تام بكل ما يتصل بها وبأعمارها، يؤيدنا فيما نذهب إليه أن كتب البيطرة تستشهد بأبيات له فى هذا المجال هذا بجانب ماوجدناه فى شعره من أبيات تقطع بمعرفته لبيطرة الخيل .

فهذا أبو بكر بن البدر البيطار المصرى والذى كان يعمل بيطاراً باسطبلات الملك الناصر محمد بن قلاوون فى كتابه «كامل الصناعتين ، البيطرة والزردقة » ، استشهد فى كتابه ببيتين لطفيل وهما [2]

إنى وإن قل مالى لا يفارقنى   مثل النعامة فى أوصالها طول
بساهم الوجه لم تقطع أباجله   يصان وهو ليوم الروع مبذول

فهو مهما قل ماله لا يستغنى عن فرسه الذى يشبه النعامة فى طول الوظيف وقصر الساق . هذا الفرس قليل لحم الوجه لطول غزوه وعتقه ، وقلة لحم الوجه فى الفرس صفة مستحبة ، ودلالة على كرم أصله وعتقه [3]، وهذا الفرس سليم، لم يصبه داء فى عروق رجله حتى يقطعه له البيطار .

ويقول طفيل عن عرق النسا [4] :

على كل منشق نساها طمرة   ومنجرد كأنه تيس حلب

---

(١) فحولة الشعراء ١٧ .

(٢) كامل الصناعتين ورقة ٥ ، مخطوط محفوظ بمعهد المخطوطات تحت رقم ٢٠٢ طب ، والبيتان فى الديوان ٥٧، ٦٠ .

(٣) صبح الأعشى ٢/٢١ .

(٤) الديوان ٣٠ .

ويعلق الأصمعي على النسا فيقول « .... ثم النساء عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الحافر فإذا سمنت الدابة انفلقت فخذاها بلحمتين عظيمتين وجرى النسا بينهما واستبان ، وإذا هـــزلت الدابة اضطربت الفخذان وماجت الربلتان جميعاً ، وخفي النسا فإنما يقال منشق النسا يريد منشق موضع النسا » [1] .

ويقـول طفيل [2] :

أو قارح في الغربيات ذو نسب　　　وفي الجراء مسح الشد إجفيـــل

فهو يتكلم عن فرس قارح وليس قروحه بوقوع نابه إنما قروحه بوقوع السن التي تلي الرباعية ، وهو من خيل الغرابيات التي تنتجت عن فحل غني المشهور (الغراب) ، وهو جواد سريع يصب الجرى صبا ... ويقـــول الأصمعي عن الجواد « فإذا ألقى أقصى أسنانه قيل قد قرح ، وقروحه وقـــوع السن التي تلي الرباعيات ، وليس قروحه بنابه » [3] .

ولم تقتصر معرفة طفيـل البيطرية على الخيل ، بل شملت الإبل أيضاً ، وقد أثبتنا في حديثنا عن السمات الاجتماعية في شعره أنه كان يمتلك مئات الابل .

ونراه في شعره يتحدث عن بعـــير لم يجاوز البزول ، أي لم يدخل في سن التاسعة ، وهي السن التي يبزل فيها البعير نابه « ... فإذا دخل في التاسعة قيل بازل لأنه فيها يبزل نابه ، والذكر والأنثى فيه سواء ، وقد يقال فيه فاطر [4] » يقول طفيل عن هذا البعير [5] :

---

(١) الأصمعي : الخيل ٩ .
(٢) الديوان ٥٧ .
(٣) الأصمعي : الخيل ٧ .
(٤) صبح الأعشى ٢/ ٣٤ .
(٥) الديوان ٤ .

تحاتثن واستعجلن كل مواشك بلؤمته لم يعد أن شق بازله

وهو يعرف مايصيب سنام البعير الأجرب من قلع ،وهو القشر الواسع الذى يصير على جلده قطعاً قطعاً ، وعلاجه أن يشق البيطار السنام فيزيله يقول (١) :

نشق العهاد الحو لم ترع قبلنا كما شق بالموسى السنام المقلع

وكان طفيل على معرفة بشيء من الأخبار والقصص والأيام وما دار فيها من وقائع حربية بين القبائل العربية .

وهو يحدثنا فى شعره عن وقعة الفيل،وعصيان الفيل لجند الحبشة عن دخول حرم الكعبة يقول (٢) :

ترعى منابت وسمى أطاع له بالجزع حيث عصى أصحابه الفيل

فهو يشير إلى مجيء أبرهة ملك الحبشة وعزمه على تخريب الكعبة وهدمها ، ثم الانصراف إلى اليمن بعد ذلك عندما عصى الفيل أصحابه بالتعمير ، وهو على أميال من مكة .

وبعد ماذكرنا من معرفة طفيل بالنجوم والأنواء والكواكب وأوقات التبدى ، ومعرفته البيطرية للخيل والإبل ، ومعرفته بالأخبار والقصص التى كانت متداولة فى الجاهلية نستطيع أن نقول إن طفيلا كان كسائر أفراد مجتمعه على علم بمعارف كثيرة ، ولكنه امتاز بعلم واسع بأمور الخيل .

هذا بجانب مانجده فى شعره من حكمة تدل على حنكة وتجربة واقعية ، فقد وقف فى شعره عند ذكر الحياة والموت والدهر ، ومايرمى به الناس ، فوجد أن الناس قبله مضوا وهو سائر فى نفس الطريق الذى سلكوه ، وتلك هى المنايا

---

(١) الديوان ٨٥ .
(٢) الديوان٥٦ .

يقول [١] :

مضوا سلفاً قصد السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تقلب

وإن صح البيت الآتى [٢] له يكون فيه قد حذر المرء من التورط فى الأمر الواسع الذى يبدو سهلا على الإنسان أن يمضى فيه ، ثم يصعب عليه بعد ذلك أن يخلص نفسه منه يقول [٣] :

فإياك والأمر الذى إن تراحبت موارده ضاقت عليك مصادره

---

(١) الديوان ٤٠ .

(٢) يروى أيضاً لمضرس بن ربعى .

(٣) الديوان ١٠٢ .

٣ – السمات العاطفية

حينما نعرض السمات العاطفية فى شخصية طفيل لايغيب عنا ماذكرناه من سمات اجتماعية وعقلية، وقد ذكرنا فى السمات الاجتماعيه أنه كان فارساً شجاعاً، ارتبطت فروسيته المادية بفروسية معنوية خلقية تمثلت فى كرمه وعفته وحمايته للمستجير، ثم أثبتنا سيادته لقبيلته، وذكرنا فى السمات العقلية أنه كان على معرفة بالنجوم والكواكب والأنواء وأوقات التبدى والأخبار والقصص والأيام التى كان العرب يتذاكرونها فى أسمارهم ومجالسهم، وكان على معرفة واسعة بالخيل، وارتبطت معرفته بالخيل بالمعارف البيطرية، وذكرنا أنه كان راقياً من الناحية العقلية لأنه جاب مع قبيلته الجزيرة العربية، ونزل فى ضيافة بنى الحارث ابن كعب فى نجران، واتصل على وجه الخصوص بأسرة بنى عبد المدان بن الديان النصرانية، وكان هؤلاء على جانب كبير من الرقى العقلى.

ووجدنا فى شعر طفيل أيضاً أبياتاً تدل على الحكمة والحنكة والتجربة والخبرة فى الحياة. إذن كل ماذكرنا من سمات اجتماعية وعقلية يجب ألا تغيب عنا ونحن ندرس السمات العاطفية فى شخصية طفيل حتى تبدو لنا شخصيته كاملة متكاملة.

والآن نتساءل هل اكتوى قلب طفيل بنار الحب ؟ أم أنه الجاد المقتصد فى غزله. المتصاون فيه، القليل اللهو، الذى لايكاد يعبث، فيصف الغارات وبلاء قومه، ويتغنى بالشجاعة والكرم والعفة والمآثر، ويفخر بها ويحض عليها.

دليلنا الوحيد للإجابة عن هذين السؤالين هو أن نعود إلى شعره نستقرؤه الإجابة والتوضيح، وسنجد أنفسنا أمام نوعين من الشعر مختلفين وأمام عاطفتين تختلف إحداهما عن الأخرى.

العاطفة الأولى ، يبدو فيها طفيل وقد اكتوى بنار الحب وعرف الحرمان وذاق مرارته ، فهو العاشق الذى ازداد عشقه فأصبح متيما استعبده الحب وغمره ومس شغاف قلبه . يحزن حزن المستهام الذى ذهب الهوى بعقله لظعن الأحبة يقول (١) :

فقلت لحراض وقد كدت أزدهى ... من الشوق فى إثر الخليط المتمم
ألم تر ما أبصرت أم كنت ساهياً ... فتشجى بشجو المستهـام المتيم
وفى الظاعنين القلب قد ذهبت به ... أسيلة مجرى الدمع ريا المخدم
عروب كأن الشمس تحت قناعها ... إذا ابتسمت أو سافراً لم تبسم
رقود الضحى ميسان ليل خريدة ... قد اعتدلت فى حسن خلق مطهم

وواضح من الأبيات أن ظعن الأحبة قد أخذ بعقل طفيل واستخفه الشوق فسأل صاحبه هل رأى ما رأى هو ، أم كان ساهياً ، فإن كان قد رأى ما حدث شاركه الألم والحزن ، ولا غرو فهو المحب المستهام الذاهب الفؤاد وقد سلبت قلبه فتاة جميـلة نقيـة كاملة كأنها الشمس حين تكشف عن قناعها أو تبدو سـافرة نوراً وبهاء ، ناعمة الخدين ، ممتلئة موضع الخلخال ، وهى فتاة منعمة ، ترقد وقت الضحا ، لأن بين يديها من يسهر على خدمتها ، وهى تنعس بالليل لأنها فى صحة جيدة وجسم تام حسن سليم .

ويذكر طفيل فى شعره أسماء محبوبات كانت تربطه بهن علاقات مودة ، ويتألم أشد الألم لظعنهن يذكر شماء ، ويذكر سعدى ، وليلى العامرية ، يقـول فى شماء (٢) :

هل حبل شماء قبل البين موصول ... أم ليس للصرم عن شماء معدول

---

(١) الديوان ٧٣ وما بعدها .

(٢) الديوان ٥٥ ، ٥٦ .

أم ما تسائل عن شماء مافعلت ... وما تحــاذر من شماء مفعول
إذ هى أحوى من الربعى حاجبه ... والعين بالإثمد الحــارى مكحول
بانت وكانت إذا بانت يكون لها ... رهن بما أحكمت شماء مبتــول
فما تجــود بموعــود فتنجزه ... أم لا فيأس وإعراض وتجميل

فالشاعر هنا يتساءل فى خوف هل يمكن لحبل المودة الذى يربطه بشماء أن يظل موصولا ؟ أم لا يمكن تجنب صرمها لنأيها وبعدها ؟ وشماء تشبه الظبى فى لونها ، ذلك الظبى الذى تتج فى الربيــع ، وعيناها تشبهان عينى الظبى الربعى وضعت فيهما الكحل المجلوب من الحيرة ، وهى لا تجود بوعد فيه خير أو شر فتنجزه ، وفى نفس الوقت لا تعرض عمن يطلبها فتصده بالرفض ، ويحدثنا عن سعاد فيقول (١) :

غشيت بقرا فرط حول مكمل ... مغانى دار من سعاد ومنزل
ديار لسعدى إذا سعاد جداية ... من الأدم خصان الحشاغير خثيل

فهو قد أتى للديار التى كانت تسكنها سعاد ، وذلك بعد أن مضى على فراقها حــول كامل . و سعاد البيضاء الخميصة البطن كأنها ظبية صــغيرة خفة ورشاقة وجمالا .

ويذكر ليلى العامرية فيقول (٢) :

عرفت لليلى بين وقط فضلفع ... منازل أقوت من مصيف ومربع
أبى القلب إلا حبهــا عامرية ... تجاور أعدائى وأعداؤها معى

فقد عرف المنازل التى سكنتها ليلى فى فصلى الصيف والربيع . وقد أبى قلبه

(١) الديوان ٦٢ .
(٢) الديوان ١٠٣ .

أن يحب أحداً سواها .

وكثيراً مافجع طفيل بفراق الأحبة يقول : [١]

ومأأنا بالمستنكر البين إننى | بذى لطف الجيران قدماً مفجع
جدير به من كل حى لقيتهم | إذا أنس عزوا على تصدعوا [٢]

وقد ألف طفيل ظعن الأحبة وكثيراً ما فجع بفراقهم ، وكذلك لم يعد يستنكر مصيبة الفراق لأنه اعتاد على ذلك ، فكلما صحب حياً من أحياء العرب وتكونت بينه وبينهم صلات مودة وأصبحوا من أعزائه أصيب بفراقهم .

والعاطفة الأخرى : يبدو فيها الشاعر جاداً مقتصداً فى غزله ، متصاونا فيه قليل اللهو لايكاد يعبث ، عفيفاً جداً ازاء تباريح الهوى ، متزنا من الناحية الانفعالية ، ونستدل على عفته بقوله : [٣]

ولا أخالف جارى فى حليلته | ولا ابن عمى غالتنى إذا غول

وفى الأغانى : قال قتيبة بن مسلم لأعرابى من غنى قدم عليه من خراسان أى بيت قالته العرب أعف قال قول طفيل الغنوى :

ولا أكون وكاء الزاد أحبسه | لقد علمت بأن الزاد مأكول [٤]

ومن النص نفهم رأى أحد الأعراب فيه ، وموافقة قتيبة بن مسلم الباهلى على رأى الأعرابى بدليل أنه لم يعترض على رأيه ، وقد ذكر له الأعرابى أعف

---

(١) الديوان ٨٦ ، وانظر القسم الأول من كتاب الزهرة لمحمد بن داود ، الباب ٢٦ « ماخلق الفراق إلا لتعذيب العشاق » .

(٢) فى الديوان جديراً بهم ، وألفتهم فى موضع لقيتهم . وتوافق رواية الزهرة رواية الحماسة

(٣) الديوان ٥٨ .

(٤) الأغانى ١٤/٨٦ ، ورواية الديوان : ٥٨ ، « إنى لأعلم أن الزاد مأكول » .

بيت قالته العرب، وأجود بيت قالته العرب فى الحرب، وهما من شعر طفيل .

وفى الحقيقة لقد كان طفيل جاداً، فارسا شجاعا يصف فى ديوانه الغارات وبلاء قومه، ويتغنى بالشجاعة والكرم والمآثر، ويفخر بها ويحض عليها، ولذلك أحبه رجال الجد والعمل كمعاوية بن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان .

ويبدو اتزان طفيل الإنفعالى وثباته إزاء تباريح الهوى، وصموده أمام إعراض الحبيب، وقد وجد فى نفسه الإرادة الحازمة التى تجعله يعتز بكرامته فلا تتساقط نفسه حسرة على فراقه يقول[1] :

خلا أننى قد لا أقول إذا اختار المد ... بر صرم الحبل هل أنت واصله

فهو إن أدبر عنه الحبيب لا يذل له نفسه ولا يطلب منه وصل حبل المودة، وفى هذا منتهى الاعتزاز بالشخصية والتعالى على الحبيب .

وهو فى غزله مقتصد ومتصاون وعفيف، يتغزل بصفات تقليدية درج العرب على ذكرها يقول[2] :

تضل المدارى فى ضفائرها العلى ... إذا أرسلت أو هكذا غير مرسل
بأبطح تلفيها فويق فراشها ... ثقال الضحى لم تنتطق عن تفضل
يغنى الحمام فوقها كل شارق ... غناء السكارى فى عريش مظلل
يزين مراد العين من بين جيبها ... ولباتها أجواز جزع مفصل
إذا سئمت من لوحة الشمس كنها ... كناس كظل الهودج المتحجل

فهذه الجارية شعرها طويل، وسواء أكان مرسلا أم مضفراً فإن المشط يضل

---

(١) الديوان ٨٢ .
(٢) الديوان ٦٣ وما بعدها .

فيه لغزارته ، وهى جارية منعمة لها من يقوم على خدمتها فهى جالسة فى بيتها لازمــــة لاتبرحه ، وهى فى بنيان منيف يغرد فيه الحمام كما يغنى السكارى فى عريش مظلل ، ومما يزيد لذة النظر إلى العيون والعنق أنها قد لبست عقداً مقسما توسط عنقها ، وهى إذا ملت حرارة الشمس آوت إلى خدرها المستور .

بل إن طفيلا يصل به الأمر إلى حد مخالفة النهج التقليدى الذى درجت عليه القصيدة العربية من استهلالها بالنسيب والغزل والحنين إلى الحبيبة النائية ، ذلك الحنين الذى يعترى الشاعر عند رؤية أطلالها الدائرة وهو راكب فى القفار ،(١) لذلك نجـــده يستعيض عن بدء القصيدة بالنسيب ، بالحديث عن الشيب وأيام الصبا فيقول (٢) :

صحا قلبه وأقصر اليوم باطله وأنـكره مما استفاد حــــلائله

يرين ويعرفن القوام وشيمتى وأنـكرن زيغ الرأس والشيب شامله

وبعد أن عرضنا لعاطفتى الشاعر المختلفتين تمام الاختلاف نرى لزاما علينا أن نفسر هذا الموقف الغـامض ، فـكيف يـكون طفيل محبا متيما ، وفى نفس الوقت جاداً متزنا متصاونا فى الغزل .

وفى الحقيقة ان طفيلا شأنه فى ذلك شأن الشباب فى كل زمان ومكان ، يحس الشباب بميل إلى الجنس الآخـــر فتنشأ بين الإثنين صلات مودة وعشق ، وقد ساعد على نشوء هذه الصلات اجتماع القبائل فى البـــادية فى مكان واحد أوقات التبدى طلبا للنجعة ، حتى إذا ما جفت الوديان ، ورعى الـكلأ ، وعادت القبائل إلى حواضرها تألموا ، واستيقظت أشجانهم ، فعادوا إلى الأطلال الدائرة يبكونها ويذكرون أيام الوصال والهنـاء . ولـكن طفيلا حينما تقدمت به السن واشتعل

---

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ١/٥٩ .

(٢) الديوان : ٨١ .

رأسه شيبا ترك الصبا واللهو ، وابتعد عن الباطل ، فالإنسان حينما يكبر يبعد بحكم السن والوقار عن اللهو والغزل ، ونجد مصداق ماتذهب إليه عند طفيل حيث يقول : (١)

وكنت كما يعلمن والدهر صالح | كصدر اليمانى أخلصته صياقله
وأصبحت قد عنفت بالجهل أهله | وعرى أفراس الصبا ورواحله

فهو يتحدث للنساء اللاتى أنكرن شيبه ويقول إنه كان كما يعلمن فى شبابه غضا يهتز كأنه سيف يمان مصقول ، وكان يرتكب من الغزل والصبا والحمق فى زمانه الكثير ، بحيث عير الجهل أهله . أما الآن فقد صحا قلب طفيل وأفاق وترك الصبا واللهو .

وهذا طبيعى فلا يمكن أن نتصور طفيلا الذى ساد قومه وقادهم للانتقام من هزيمة محجر ، فأعطوه ربع أموالهم من الغنائم ، وهو الذى كان يقوم بدور السفارة بين قومه وغيرهم من القبائل العربية ، لا يمكن أن نتصوره وقد تقدمت به السن لاهيا ماجنا . نعم لقد كان لاهيا متيما مستهاما يعرف الكثير من النساء ، ولكن ذلك كان فى ربيع شبابه ، أما القيادة والرئاسة فكانت حينما تقدمت به السن وودع فترة الصبا واللهو ، بل ان من شروط الرئاسة الجلد والعلم والعفه والأدب والمعرفة ، وكل هذه الصفات تمثلت فى شخصية طفيل ، وعرضنا لها بشىء من التفصيل حينما تحدثنا عن السمات الاجتماعية والعقلية . فيروى أن الرئيس كان لابد أن تتحقق فيه ست صفات وهى : الجود ، والبطولة الحربية ، والجلد ، والحلم ، والتواضع ، والفصاحة . سئل قيس بن عاصم : كيف وصلت إلى حكم قبيلتك ؟ فأجاب : بإذاعة المعروف ، واغاثة الملهوف ، وفض المنازعات ، ثم أضاف قائلا : ويبلغ الرجل المكان المــــرموق بالذكاء

---

(١) الديوان ٨١ .

والعفة والأدب والمعرفة »(١) .

وقبل أن نختم فصل السمات العاطفية فى شخصيه طفيل لايفوتنا أن نورد له أبياتاً يبين فيها رأيه فى المرأة بوضوح يقول (٢) :

إن النساء كأشجار نبتن معـــاً ... منها المرار وبعض المر مأكول
إن النساء متى ينهين عن خلق ... فإنه واجب لابد مفعـــول
لاينثنين لرشد إن منـــين له ... وهن بعـــد ملومات مخاذيل

فالنساء كأشجار نبتت فى مكان واحد ، بعضها مر ولـكن بعض النبت المر يؤكل ، والنساء إذا منعن فعل شىء عما لا يتفق وطبيعتهن فإن هـــذا المنع يزيدهن إصراراً على تنفيذ أغراضهن ، ومهما حاولت أن تثنيهن عن فعل مايرغبن، وتقودهن إلى جادة الصواب ، إلا أنهن يصررن على فعل مايرين ويجلبن على أنفسهن اللوم .

---

(١) واصف بطرس غالى : تقاليد الفروسية عند العرب ٤٤ .
(٢) الديوان ٦ ، ٦١ .

٤ — السمات الدينية

لقد كانت معظم القبائل العربية فى الجاهلية تدين بالوثنية وتعبد الأصنام، وتؤله الظواهر الطبيعية من شمس وقمر ونجوم وأحجار ومياه، لما لهذه الظواهر الطبيعية من أثر بارز فى حياتهم. وكانوا يعللون عبادتهم للأصنام واتخـــاذهم «أولياء» من دون الله لتشفع لهم وتقربهم إلى الله زلفى «والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. إن الله يحـكم بينهم فيما هم فيه يختلفون».

وكانت هناك ديانة المجوسية لاتصال أهل الحجاز بالحيرة واليمن، كما كانت الدهرية والصابئة التى عبد معتنقوها الـكواكب. كما كان اليهود فى يثرب فى ثلاث قبائل بنى النضير، وبنى قينقاع، وبنى قريظة. ووجدت فى الجزيرة العربية أيضاً النصرانية التى نادت بالثالوث المقدس الأب والإبن والروح القـــدس، وكانت كعبة النصرانية فى جنوبى الجزيرة العربية فى نجران. وكانت تحتل هذه المدينة قبيلة الحارث بن كعب النصرانية، والتى كان من سادتها أسرة بنى عبد المدان بن الديان، ومن كنائسهم كنيسة القليس، والجدير بالذكر أن طفيلا كان قـد اتصل بقبيلة الحارث بن كعب ومدحهم فى قصيدة له فى الديوان، وخص بالذكر منهم أسرة بنى عبد المدان بن الديان. ووجدت فى الجاهلية أيضاً طائفة الأحناف. وكان هؤلاء من قبائل متفرقه لم تجمـــع بينهم رابطة ولم يكن لهم دين خاص كاليهودية والنصرانية والإسلام، إنما اتفقت فـكرتهم فى الميل عن دين الآباء، ورفض عبادة الأصنام، والعودة إلى إبراهيم وإسمٰعيل عليهما السلام [١].

وبعد أن استعرضنا الديانات التى كانت موجودة فى الجزيرة كلها فى عصـــر

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام : ٥/٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٣٦٩ ، والقاموس المحيط : حنف .

طفيل نتساءل عن الدين الذى اعتنقه طفيل ؟

سندنا كى نجيب عن هذا التساؤل أن نرجع أولا إلى الأخبار التى رويت عنه، ثم إلى شعره . ولكن الرواة لم يذكروا شيئاً عن عقيدة طفيل، كذلك فإن شعره القليل الذى وصل إلينا مع خلوه إلا قليلا، لا يمكن أن يتخذ دليلا على دياته؛ ليس لنا إذن إلا أن نعود إلى ماذكرته المصادر القديمة عن ديانة قبيلته غنى، فسنجد ابن الكلبي بعد أن تحدث عن صنم العزى يقول «وكانت قريش تعظمها، وكانت غنى وباهلة يعبدونها معهم . فبعث النبي خالدبن الوليد فقطع الشجر وهدم البيت وكسر الوثن» (١) وسنجد محمد بن حبيب أيضاً يقول: «وكانت العزى شجرة بنخلة عندها وثن تعبدها غطفان، سدنتها من بنى صرمة ابن مرة . وكانت قريش تعظمها وغنى وباهلة تعبدها معهم . فبعث رسول الله ﷺ خالدبن الوليد، فقطع الشجرة وهدم البيت وكسر الوثن» (٢)

وفى دائرة المعارف الإسلامية «وكانت غنى قبيلة وثنية، تعبد الأوثان فى الجاهلية، وهى اللات ومناة والعزى» (٣) .

وليس بعيداً من الصحة ما ذكرته دائرة المعارف الإسلامية من عبادة قبيلة غنى للات ومناة والعزى، بجانب ماذكره ابن الكلبي وابن حبيب من عبادتها العزى . فلم تكن القبيلة فى الجاهلية تقتصر على عبادة صنم واحد، فقريش مثلا عبدت أكثر من صنم، عبدت مناة ثم العزى وهى أحدث من السابقتين، وكان من أصنامها أيضاً اساف ونائلة وهبل .

إذن فقد كانت قبيلة غنى قبيلة وثنية تبعد الأصنام المشهورة اللات والعزى

---

(١) الأصنام : ٢٧ .

(٢) المحبر : ٣١٥ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٣/١٤٠ .

ومنـــــاة شأنها فى ذلك شأن سائر القبائل العربية فى الجاهلية ، ولم يكن لطفيل وهو فرد من أبناء قبيلته بل هو سيد من سادتها المبرزين كما أثبتنا ذلك عنـــد حديثنا عن السمات الاجتماعية فى شخصيته ، أن يخرج على إرادة القبيلة ، بل إن من واجبه أن يرد الخارجين عليهـــا ، وكان فى ذلك الوقت نبذ الفرد لصنم القبيلة وإلاهها معناه نبذه لقبيلته وخروجه عليها ، فلا يمكن لشخص أن يغير عبادة صنم القبيلة إلا إذا خرج على قبيلته وتعبد لصنم آخر ، وحينئذ يكون مثله كمثل من بدل جنسيته فى الوقت الحاضر[1] . نعم إن فى استطاعة القبيلة جميعاً تغيير عبادتها لصنمها ، وعندئذ يغير الأشخاص عبادتهم على وفق مشيئة القبيلة . أما أن يغير فرد عبادته وينخرط فى سلك عبادة جديدة فهذا أمر لا ترضاه القبيلة ، وتعده خروجاً لأن عبادتها لصنمها عبادة موروثة يرثها الأبنـــاء عن الآباء ، وليست بشىء اختيارى من السهل تركه ، ومن السهل الأخذ به ، ليس للرجل أن يختار الصنم الذى يريده بمحض مشيئته ، ان الصنم دين ، وهو رمز لسيادة القبيلة ، وكذلك لأنه الحامى والمدافع عنها ، والرابطة التى تربط بين أفرادها ، والخروج عليه معناه خروج على إرادة القبيلة ، وتفكيك لوحدتها ، وهو مما لا يسمح به وإلا تعرض الخارج للعقاب . وعلى هذا فقد كان طفيل وثنياً يعبد اللات والعزى ومناة .

ولكننا سنجد فى ديوانه أنه اتصل بسادة النصرانية فى نجران ، ونزل فى جوارهم ، ومدح سادة بنى الحارث بن كعب أسرة بنى عبدالمدان ، وكانت نجران معقل النصرانية فى جنوبى الجزيرة العربية ، ومن هذا الاتصال يكون الشاعر قد تعرف على النصرانية كما تعرف عليها عن طريق قبيلة سعد بن عوف التى هى بطن من ربيعة ، بل يعرف بها الفرع الأكبر من ربيعة ، وكان قد نزل فى حمايتها هو وقبيلته فأنزلوهم أحسن منزل وأباحوا لهم مراعيهم [2] ، ولا يخفى عراقة ربيعة فى النصرانية كما سبق أن ذكرنا ، فهل أخـــذ شاعرنا النصرانية واعتنقها من بنى

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٥/٦٧ .

(٢) الديوان ٨٥ .

الحارث بن كعب وربيعة ؟ نقول إن طفيلا لم يكن نصـــرانياً بل كان وثنياً كما ذكرنا منذ قليل ، ولو أنه دان بالنصرانية لنص على ذلك المؤرخون ولم يجدوا فى ذلك حرجا أو غضاضة ، ولما توانى الأب لويس شيخو فى حشره فى زمرة النصارى من شعراء الجاهلية ، وقد أدرج من قبيلته غنى كعب بن سعد الغنوى الشاعر الجاهلى ، وكان سنده ماوجده فى شعره من الحكم والعواطف اللينة والحنان [١] . نحن لاننكر تعرف طفيل على النصرانية ، وتعرفه عليها لايعنى بأى حال من الأحوال اعتناقه لها ، فالتعرف على دين من الأديان ليس معناه الاعتراف به .

هذا مع اعترافنا بتأثير النصرانية فى عقلية طفيل وشعره ، بحيث أصبحت وثنيته من نوع راق . ولقد أثرت النصرانية تأثيراً خفياً فى الثقافة العقلية التى مثلها الشعر فى العصر الجاهلى ، ويذكر بروكلمان أن هناك كثيراً من أفـــكار النصرانية عند النابغة وزهير وعند الأعشى وبعض المتأخرين قليلا عنهما على وجه الخصوص [٢] .

وفى شرح الديوان يروى بيت لطفيل يذكر فيه اسم صنم طىء رضى فى صيغة القسم [٣] :

وقال بصير قد أبان رعالها فهى ورضى من تخائن فاذهبى

ورضى اسم صنم تعبدت له قبيلة تميم وطىء [٤] ، وذكر ابن الـكلبى أنه كان بيتاً لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة فهدمه المستوغر ، وهو عمرو

---

(١) شعراء النصرانية ٧٤٦ — ٧٥١ ، والنصرانية وآدابها ٤٣١ .
(٢) تاريخ الأدب عرب ١٤٢/١ .
(٣) الديوان ٣٠ .
(٤) الديوان ٣٠ ، والأغانى ١٤٧/٧ ، ١٦/٩ ، وتاريخ العرب قبل الاسلام ١٠٥/٥ .

ابن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، هدمه فى الإسلام »[1] ، وقد سمت العرب من بين أسمائها فى الجاهلية اسم « عبد رضى » ومعروف أن غنى انتقمت من طيء بعد هزيمتها فى محجر ، ودخلت أرضها وجبليها أجأ وسلمى حيث يوجد رضى .

ويذكر طفيل فى شعره بعضا من شعائر الحج كزيارة عرفة والتلبية والإحرام ، وكلها مناسك قديمة كان يقوم بها الجاهليون ثم أقرها الإسلام بصورة جديدة يقول[2] :

يزرن إلالا لاينحين غيره ... بكل ملب أشعث الرأس محرم

فهو يذكر زيارة النسوة لجبل عرفات وقد عقدن العزم على زيارته ملبيات ، قد غيرن ملابسهن القديمة ، ولبسن ملابس الإحرام النظيفة الجديدة . وكان الإحرام من العادات القديمة التى كان يقوم بها الجاهليون قبل الإسلام ثم أقرها الاسلام[3] .

ويتردد لفظ الجلالة فى شعر طفيل رغم وثنيته ، والقرآن لم ينكر على الوثنيين معرفتهم لله ، بل إن قريشاً كانت تدعى أنها لاتعبد الأوثان إلا لتقربها إلى الله زلفى ، لذلك أقسم الشعراء الجاهليون بالله وتوجهوا إليه ، ونجد لهذا الرأى سنداً فى القرآن الكريم ففيه أن قريشاً كانت تعترف بأن الله رب السماوات والأرض « قل من رب السماوات والأرض ؟ قل الله . قل : فاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولاضراً . قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق

---

(١) الأصنام ٣٣ ، والروض الأنف ١/٦٧ ، وسبائك الذهب ١٠٤ .

(٢) الديوان ٧٤

(٣) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/١٦٤ ، وانظر المحبر ٣٠٩ وما بعدها ، حيث يعقد فصلا عن السنن التى كانت الجاهلية استنتها فأبقى الاسلام بعضها وأسقط بعضها الآخر .

عليهم . قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار »[١] . وفي سورة العنكبوت سؤال موجـــه إلى المشركين : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن : الله ، قل : الحمدلله ، بل أكثرهم لا يعقلون »[٢].

والله كما ورد فى شعر طفيل هو القوى القادر الذى يسد الثغرات ويصلح ما فسد يقول[٣] :

لعمرى لقد خلى ابن خيدع ثلمة   فمن أين إن لم يرأب الله ترأب

والله وحده القادر على ســـد الثلمات . وهو الذى يجزى على خير الأفعال يقول[٤] :

جزى الله عوفا من موالى جناية   ونـكراء خيراً كل جار مودع[٥]

ويذكر كلمة الإله على رواية الديوان فيقول[٦] :

فقـــال بصير يستبين رعالها   هم والإله من تخافين فاذهبى

فهو يعرف أن الله هو الذى يرأب الثلمات ، وأن الله هو الذى يجزى ، وهو يقسم بالإله .

وربما عرف الجاهليون الإله عن طريق الحنيفية أو النصرانية ، ويصرح

---

(١) الرعد : الآية ١٦ .
(٢) العنكبوت الآية ٦٣ .
(٣) الديوان ٣٩ .
(٤) الديوان ٨٥ .
(٥) موالى جناية : أولياء بعد . ليسو أولياء قرب ، نـكراء . : أى عن غير معرفة ، مودع : لا بد من أن يفارق ، وإنما يجاورهم فى الربيع .
(٦) الديوان ٣٠ .

طفيل بأن الله وحده الذى يسد الثغرات ويرأب الصدع ، وهو وحده الجازى ، وهو وحده الذى يقسم به .

لقد كان طفيل متطوراً من الناحية الدينية لأنه جاب مع قبيلته الجزيرة العربية ، واختلط بالنصارى فى نجران وفى قبيلة سعد بن عوف .

وكانت الوثنية قد تقلص ظلها قبيل ظهور الإسلام ، وقولنا هذا يتمشى مع قول الاستاذ الدكتور شوقى ضيف « وكل ذلك يؤكد أن الوثنية الجاهلية كانت على وشك الانحلال ، فما انبلجت أضواء الإسلام حتى اعتنقه العرب ودخلوا فيه أفواجاً[1] » .

ونستدل على رقى وثنية طفيل من ندرة أسماء الأصنام فى شعره مع كثرتها فى هذا العصر ، ولا نجد فيه إلا بيتاً واحداً على رواية ليست برواية الديوان يذكر فيه رضى صنم طىء ، ويخلو شعره جميعه من أوضار الشرك الجاهلى ، وكان طفيل قد أدرك بعقله أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ولا تغنى شيئاً ، وأن الله هو الجازى ، وهو الدافع ، وهو المقسم به ، ولكنها دين الآباء ودين القبيلة ، من خرج على عبادته فقد تنكر لآبائه ولقوميته ولجنسه .

ويمكن أن نضيف للتدليل على رقى وثنيـــة طفيل ماسبق أن ذكرناه فى السمات الاجتماعية والعقلية والعاطفية ، من عفة ، وسيادة للقبيلة ، وجدية فى الحياة ، واتزان عاطفى ، واقتصاد فى اللهو ، وحكمة ، وكلها دعائم راسخة تدل على رقى وثنيته وبعدها عن الإغراق فى أوضار الشرك الجاهلى . وذلك جعل له شخصية ناضجة تفاعلت مع البيئة ، فقبلت آثاراً وطرحت أخرى فمثلت لنا مرحلة متوسطة بين الوثنيـــة المغرقة ، والوثنية المتطورة ، التى كانت مهيئة لتقبل الدين الجديد .

---

(١) العصر الجاهلى ٩٧ .

الباب الثاني

(شـــــعره)

الفصل الأول : الديـــــــوان

الفصل الثاني : الدراسة الموضوعية

الفصل الثالث : الدراسة الفنيـــة

الفصل الأول

الديوان

١ – مصادر شعر طفيل قبل الديوان

٢ – أصول الديوان :

(أ) الأصل البصرى

(ب) الأصول الكوفية

٣ – تاريخ حياة الديوان

١ ــ مصادر شعر طفيل قبل الديوان

رأيت قبل أن أتحدث عن تاريخ حياة ديوان طفيل أن أعرض للفترة التى انقضت فى الجاهلية على نظم طفيل لشعره إلى أن دون هذا الشعر ، ثم ما لقيته أشعاره من ذيوع وانتشار بين قبيلته والقبائل التى مــدحها ، ومن حب من الإسلاميين لما فى شعره من طرافة ومعان خلقية مثالية كانت موجودة فى الجاهلية ثم أبقى عليها الإسلام

وكان طفيل فى الجاهلية أستاذاً لمدرسة كان لها أثر فيما بعد فى تاريخ الشعر العربى ، ونعنى بها مدرسة الصنعة ، وقد روى فى هذه المدرسة التلميذ عن أستاذه وتأثر به ، فروى أوس عن طفيل الغنوى(١) ، كما روى زهير عن طفيل وأوس(٢) ، وكان الحطيئة راوية(٣) لزهير ، كما كان ابنه كعب راوية له . وكان هدبة راوية للحطيئة وكان جميل رواية لهدبة ، وكان كثير راوية لجميل(٤) . وهذه السلسلة من الشعراء الذين روى كل شاعر منهم عن الآخر كانت لهم من الخصائص الفنية التى تجمع بينهم ما أتاح للأستاذ الدكتور طــه حسين أن يسميها مدرسة شعرية(٥) .

ومعنى هذا أن شعر طفيل رواه ، شاعران مجازان لهما وزنهما فى ذلك العصر وهما أوس بن حجر، وزهير بن أبى سلمى ، وكان لهذين الشاعرين تلاميذ من بعدهما عاشوا إلى ما بعد القرن الأول الهجرى ، وأدركوا علماء القرن الثانى

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية المجلد العاشر / العدد الثانى عشر / (أوس) ص ٤٦١ ، وبروكلمان : تاريخ الأدب العربى ١/٩٥ .
(٢) العمدة ١/١٣٢ .
(٣) الأغانى ٨/٩١ ، ولسان العرب (رتب) .
(٤) الأغانى ٨/٩١.
(٥) فى الأدب الجاهلى ٣٣٦ .

الذين عنوا بتدوين الشعر الجاهلي، وقد اعتمد الرواة من علماء القرن الثاني رواية هؤلاء الشعراء الرواة للشعر الجاهلي، وأخذوا عنهم(١). بل ان الحطيئة الشاعر المخضرم وهو تلميذ من تلاميذ هذه المدرسة الفنية قد أدرك طفيلا وابتلي من أجل غني قبيلة طفيل، فيروى أن زيد الخيل في هجومه على غني وبني عامر وهزيمتهم في محجر أسر الحطيئة فجز ناصيته وأطلقه (٢)

وقد أثبتت بعض الأبحاث الحديثة اعتماداً على أدلة عقلية استنباطية، وأدلة صريحه مباشرة تقييد الشعر الجاهلي في صحف متفرقة لأغراض شتى، سواء كان الذين يقيدونه هم الشعراء الجاهليون أنفسهم، أم كان هؤلاء الشعراء يستكتبون غيرهم لتقييد شعرهم(٣).

ويعنينا من هذه الأدلة الإستنباطية والصريحة ما يتصل بشاعرنا ومدرسته، تلك المدرسة التي كانت تعتمد على الروية والأناة، وتقاوم الطبع والاندفاع في قول الشعر، ويحدثنا الرواة بأن طفيلا الغنوي أستاذ هذه المدرسة كان يدعى في الجاهلية المحبر لتحسينه الشعر، وأن زهيراً كان يصنع شعره ويتكلفه وينفق الحول أحياناً قبل أن يظهر القصيدة من شعره، لذلك سميت قصائده بالحوليات، وأن الحطيئة كان عبداً من عبيد الشعر يتكلفه ويشق في صنعته، وأن كعباً والحطيئة كليهما قد ذكرا صناعة الشعر وتثقيفه والعناء فيه، فهما يتنخلان شعرهما وينقحانه ويلقيان صعوبة في رقي سلمه الطويل.

وإذا كان الأمر كذلك فيما يختص بهؤلاء الشعراء الذين كانوا يرون الشعر عملا عقليا لابد أن يحسنوه ويزينوه ويثقفوا ألفاظه وقوافيه، ويجمعوا له كل ما يمكن من وسائل التزوير والتحبير، فلا يمكن لهؤلاء أن يقوموا بهذا العمل

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ٢٢٥.
(٢) الأغاني ١٦/٥١.
(٣) مصادر الشعر الجاهلي ١٢٥.

العقلى الذى يستغرق هذا الوقت الطويل دون أن يكون الشعر مقيداً أمامهم على صحيفة يرجعون إليهــا بين وقت وآخر ، يزيدون عليه أو ينقصون منه ، ويستبدلون لفظة بلفظة وقافية بقافية ، وهل يصح بعد هذا أن تذهب إلى أن هؤلاء الشعراء الذين كانوا يصنعون الشعر صناعة ، بل يصنعونه تصنيعا ، ويعرفون من بحوره وقوافيه ولغته واعرابه مالا يكتسب إلا بالتعلم والدراسة ، هل يصح أن تذهب إلى أن هؤلاء الشعراء كانوا أميين ويستطيعون أن يقوموا بهذه «العمليات» المعقدة المتراكبة فطرة وطبعا ، والشعر معلق فى ذاكرتهم لا يعدوها ؟ .

أحسب أن لا ، وأحسب أن الأرجح أن هذا الضرب من الشعر المنقح كان يفرض عليهم أن يقيدوه على ماكانوا يملكون من صحف الكتابة »[١] .

عرفنا من شعراء هذه المدرسة الذين عرفوا الكتابة النابغة الذبيانى[٢] الذى كتب قصائده وأرسل بها النعمان بن المنذر يعتذر إليه فيها ويحلف له أنه ما فرط منه ذنب[٣] .

كذلك عرفنا من شعراء هـذه المدرسة الذين عرفوا الكتابة كعب بن زهير وأخاه بجيرا . وقد كتب إليه شعرا يلومه فيه على اسلامه[٤] ، فكتب إليه بجير ينذره ويعلمه أن النبى صلى الله عليه وسلم قد قتل بالمدينة كعب بن الأشرف[٥] .

على أن عدم النص على معرفة بعض شعراء هذه المدرسة بالكتابة لا يعنى

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى ١٢١ .

(٢) انظر فى الأدب الجاهلى من ٣٧٦ ــ ٣٨٧ حيث يصله بشعراء هذه المدرسة لما فى شعره من صور مادية فى جوهرها ، معنوية فى غايتها .

(٣) الخزانة ٢ــ٣٩٢ــ ٣٩٣ .

(٤) الشعر والشعراء ٩١١ .

(٥) جمهرة أشعار العرب ٢٤ .

أنهم كانوا يجهلونها ، وتتضح هذه الحقيقة إذا عرفنا أن النص على معرفة الشعراء بالكتابة لم يكن فى الكتب العربية نصاً صريحاً مقصوداً لذاته ، وإنما أكثر مايكون استطراداً عابراً لتوضيح سياق قصة تتصل بالشاعر أو بقومه ، أو بحادثة بعينها[١] .

وليس ببعيد والأمر كذلك أن يكون طفيل الغنوى كان يقيدشعره أو بعضه فى صحيفة أو صحف يرجع اليها بين وقت وآخر، يزيد أو ينقص ويستبدل لفظة أو قافية ، من أجل التنقيح والتثقيف والتحسين ، ولهذا استحق لقب معاصريه من الجاهليين المحبر لتحسينه شعره .

وحتى الشعراء الذين لم يكونوا يعرفون الكتابة فى هذا العصر، كانوا مضطرين أن يستكتبوا من يعرفها ، نستدل على ذلك بما ذكره ابن الأعرابى حيث يقول بلغ عمرو بن كلثوم أن النعمان بن المنذر يتوعده ، فدعا كاتبا من العرب فكتب إليه:

ألا ابلغ النعمان عــنى رسالة   فمدحك حــولى وذمك قارح
متى تلقنى فى تغلب ابنه وائل   وأشياعها ترقى اليك المسالح[٢]

وبعد هذه الاشارة الناصعة من ابن الاعرابى نقول بأن طفيلا أو غيره من شعراء مدرسة الصنعة ممن لا يعرفون الكتابة ربما كلف غيره بكتابة شعره أو بعضه حتى يتسنى إعادة النظر فيه ، وإدخال ضروب من الزينة والتحسين عليه .

وهناك مصدر آخر لشعر طفيل وهو قبيلة غنى ، فكان أفراد القبيلة فى ذلك العصر يحفظون شعر شعرائها ، وتعد القصائد التى تسجل انتصاراتها أغلى ماتملك، فكانت ترويها جيلا بعد جيل ، يقول الجاحظ : « . . . فكل أمة تعتمد فى استبقاء مآثرها ، وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب ، وشكل من الأشكال،

---

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلى ١١٦ .
(٢) الأغانى ١١/٥٨ .

وكانت العرب فى جاهليتها تحتـــال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون المقفى وكان ذلك هو ديوانها[١] » ، يقول ابن قتيبة عن الشعر : « إن الله جعله لعلوم العرب مستودعاً ، ولآدابها حافظا ، وأنسابها مقيداً ، ولأخبارها ديواناً لا يرث على الدهر ، ولا يبيد على مر الزمان[٢] » .

وكان طفيل كغيره من شعراء عصره لسان قبيلته يذود بشعره من حياضها ويدافع عن أمجادها ، ويسجل وقائعها وأيامها ، ويعدد انتصاراتها ومآثرها ، وفاء لها بما أسدته إليه من تقدير وتكريم ، ويذكر ابن رشيق أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر « أتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس »[٣] . وهو نص له دلالته على أهمية شاعر القبيلة فى ذلك العصر ، وحرص أفراد القبيلة على حفظ شعره وروايته بين سائر العرب .

ومن أنصع الأدلة على عناية الغنويين بشعر طفيـل وحفظهم له ، ما رواه صاحب الأغانى ، قال قتيبة بن مسلم لأعرابى من غنى قدم عليه من خراسان : أى بيت قالته العرب أعف ؟ قال : قول طفيل الغنوى :

ولا أكون وكاء الزاد أحبسه   لقد علمت بأن الزاد مأكول

قال : فأى بيت قالته العرب فى الحرب أجود ؟ قال : قول طفيل :

بحى إذا قيل اركبوا لم يقل لهم   عواوير يخشون الردى أين نركب

قال : فأى بيت قالته العرب فى الصبر أجود ؟ قال قول نافع بن خليفة الغنوى :

---

(١) الحيوان ١/١٧ — ٧٢ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ١٤
(٣) العمدة ١/٤٩ .

ومن خير ما فينا من الأمن أننا متى ما نوافى موطن الصبر نصبر(١)

وهذا النص شاهد قوى على استظهار أعراب غنى لشعر شعرائهم ، وخاصة طفيل أقدم شعراء قيس وأوصف العرب للخيل(٢) .

وهناك مصدر آخر من مصادر شعر طفيل وإذاعته بين العرب ، وهى القبائل التى مدحها والتى نزلت فى حماها قبيلة غنى مستجيرة مستمدية ، وقد منح طفيل بعض سادة هذه القبائل ممن أجاروهم وأثنى عليهم ، من هذه القبائل جعفر بن كلاب ، وبنى الحارث بن كعب فى الجنوب . وخص بالثناء أسرة عبد المدان ابن الديان ، وبنى سعد بن عوف . ومما لا شك فيه أن هذه القبائل كانت تحرص على رواية شعر طفيل وترديده ، لأنه يسجل بعض مفاخرهم ويشيد ببعض أمجادهم .

وهناك مصدر آخر من مصادر شعر طفيل وهو ديوان قبيلته غنى ، فقد أورد الآمدى فى « المؤتلف والمختلف(٣) » فيما أورد من أسماء كتب القبائل ودواوين شعرها — وعددها ستون ديواناً — كتاب بنى أعصر ، وكتاب غنى ، ولكننا نأسف أشد الأسف لأن هذين الديوانين وغيرهما من تلك الدواوين الكثيرة التى زخرت بأسمائها المصادر العربية لم تبق صروف الدهر منها إلا على ديوان وحيد هو ديوان هذيل . وقد رأى الآمدى (ت ٣٧٠ هـ) هذه الدواوين كلها ورجع إليها ، وأخذ منها شعراً كثيراً للشعراء الذين أوردهم فى كتابه .

والأمر الذى لا شك فيه أن ديوان غنى هذا كان يضم بين دفتيه شعر شعراء القبيلة وعلى رأسهم طفيل أكبر شعرائهم قدماً ومنزلة ، وهذه الأشعار إما أن تكون قصائد كاملة ، وإما أن تكون مقطعات قصيرة ، أو أبياتاً متفرقة

---

(١) الأغانى ١٥/٣٥١ .
(٢) المصدر السابق ٣٤١ .
(٣) المؤتلف والمختلف : ١٠٢ ، ١٥٦ .

لشعراء تلك القبيلة أو لبعض شعرائها ، وربما ضمت أكثر شعر هؤلاء الشعراء ، وربما ضمت لطائفة منهم جميع شعرهم ودواوينهم كاملة .

ثم نضيف إلى ذلك من الأخبار والنسب والقصص والأحاديث ما يتصل بالشاعر نفسه أو بعض أفراد قبيلته ، وما يوضح مناسبات القصائد ، ويفسر بعض أبياتها ، ويبين ما فيها من حوادث تاريخية ، ونحن لا نشك فى أن ديوان غنى كان سجلا حافلا لحوادثها ووقائعها ومناقبها ومفاخرها ، ومعرضاً واسعاً لشعرائها ، فقد كانت أيامها فى الجاهلية أيام حروب ووقائع . وقد قال صاحب الأغانى عنها « كان فيها الفرسان والشعراء » .

على أن المصادر العربية تذكر اسم أكثر من عالم جمع هذه الدواوين منهم : أبو عبيدة[1] والأصمعى البصريين ، ومن الكوفيين حماد ، والمفضل الضبى[2] ، وخالد بن كلثوم الكلبى ، غير أن أشهر من جمع دواوين القبائل أبو عمرو الشيبانى الذى جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، فكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها إلى الناس كتب مصحفاً وجعله فى مسجد الكوفة ، حتى كتب نيفاً وثمانين مصحفاً بخطه[3] ، وبلغ من شهرته فى جمع دواوين القبائل أن الناس أخذوا « عنه دواوين أشعار القبائل كلها[4] » .

ولكن بعض الأبحاث الحديثة[5] توصلت إلى إثبات أن العلماء الرواة فى القرن الثانى كانت بين أيديهم دواوين القبائل مكتوبة مدونة ، وأنهم اعتمدوا هذه المدونات مصدراً من مصادر تدوين نسخهم الخاصة من كتب القبائل التى نسبت

---

(١) معجم الأدباء ١٩/١٩٦١ .

(٢) المؤتلف والمختلف ٢٢ .

(٣) الفهرست : ١٠١ .

(٤) المصدر السابق ١٠١ .

(٥) مصادر الشعر الجاهلى : ٥٥٧ — ٥٦١ .

بعد روايتها إليهم ، وأن هذه المدونات التى وصلت إلى علماء القرن الثانى قد كتب بعضها منذ مطلع القرن الأول ، ولعل بعضها الآخر كتب منذ الجاهلية نفسها .

من كل ذلك يتضح لنا أن شعر طفيل عاش فى الجاهلية على ألسنة الرواة ، وقد عرفنا منهم راويتيه أوسا وزهيراً كما عاش على ألسنة أبناء قبيلته وربما عاش فى صحف مفرقة كتبها هو أو استكتبها غيره ، حتى يتسنى له الرجوع إليها بين وقت وآخر ، يضيف ويحذف ويستبدل كلمة بكلمة ، أو قافية بقافية ، من أجل تحسين شعره وزخرفته ، كما عاش أيضاً وربما فى العصر الجاهلى فى ديوان قبيلته غنى الذى ذكره لنا الآمدى .

حتى إذا جاء الإسلام ، ظل شعر طفيل تتداوله الألسنة لما فيه من عفة ومثالية لا تتعارض مع الدين الجديد .

وقد رأينا حينما درسنا الملامح الاجتماعية فى شخصية طفيل أنه كان يدعو للكرم والعفة والبعد عن المخازى التى تجلب العار لقومه ، ورأينا فى سيرته أنه كان يقوم بدور السفارة من أجل حقن الدماء ، وإبقاء على صلات القرابة والجوار . من أجل كل ذلك أحبه المسلمون وحفظوا شعره وأوصلوه إلى علماء القرن الثانى .

فهذا أبو بكر الصديق يحفظ شعر طفيل ويستشهد به ، ويرويه متمثلا به فى مواقفه ، فيروى أنه رضى الله عنه رقى المنبر يوماً وقال — فيما قال — يخاطب الأنصار « زادكم الله عنا يا معشر الأنصار خيراً فما مثلنا ومثلكم إلا كقول طفيل الغنوى :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت	بنا نعلنا فى الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا	تلاقى الذى لا قوه منا لملت
هم أسكنونا فى ظلال بيوتهم	ظلال بيوت أدفأت وأكنت(١)

(١) انظر الديوان : ٩٨ ، ٩٩ ، ومخطوط لباب الآداب فى لطائف ألفاظ المخاطبات والمكاتبات للثعالبى فى ترجمة طفيل الغنوى ، والصولى فى أدب الكتاب /١٩ .

وقد وجدنا عند أبي هلال العسكري في جمهرة أمثاله رجزاً لطفيل استشهد به عمرو بن العاص[١] .

وتقوم الدولة الأموية فنجد مؤسسها معاوية بن أبي سفيان يعجب بشاعرنا ويعبر عن إعجابه بقوله : « دعوا لى طفيلا وسائر الشعراء لكم»[٢] فطفيل فى نظره فى كفة وسائر الشعراء فى كفة أخرى ، وكان معاوية أول الخلفاء الأمويين الذين عنوا بأشعار الجاهلية وأيامها ، وكان له غلمان مرتبون يكتبون له الأحاديث فى دفاتر ويقرأونها عليه فى ساعات معينة من ليله . وكانت لمعاوية مجالس ينشد هو ما يحفظ من الشعر فيها ، ويستشهد من يحضر من الرواة والعلماء والأعراب ، ويستمع فيها إلى أحاديث العرب وأخبارها .

وحكمه السابق على طفيل يدل دلالة قوية على معرفته آنذاك بشعر طفيل ، معرفة جعلته يترك للقوم سائر الشعراء ويحتفظ لنفسه بطفيل . ثم نتقدم فى الدولة الأموية فنجد عبد الملك بن مروان من الخلفاء الذين أعجبوا بطفيل وأحبوه ، حتى أنه قال « من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليرو شعر طفيل[٣] » ، ولا شك أن هذا الحكم الذى يحمل بين جنبيه النصيحة لكل من يريد أن يتعلم الفروسية له وزنه لأنه صادر من خليفة. وقد رأى الفرسان فى طفيل صورة من حياتهم ، وصدى لما يدور فى نفوسهم ، فعملوا على إذاعته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ونجد صاحب الأغانى يروى أن عبد الملك بن مروان قال لولده وأهله : أى بيت ضربته العرب على عصابة ووصفته أشرف حواء ، وأهلا وبناء ؟ فقالوا فأكثروا ، وتكلم من حضر فأطالوا ، فقال عبد الملك : أكرم بيت وصفته العرب بيت طفيل الذى يقول فيه :

---

(١) الديوان ص ٩٩ ، وجمهرة الأمثال ١/٦٩ ، والمعانى ١/١٥ .
(٢) الشعر والشعراء ٧٥ .
(٣) المصدر السابق ٢٧٥ .

وبيت تهب الريح فى حجراته ... بأرض فضاء بابه لم يحجب
سماوته أسمال برد محبر ... وصهوته من أتحمى معصب
وأطنابه أرسان جرد كأنها ... صدور القنا من بادىء ومعقب
نصبت على قوم تدر رماحهم ... عروق الأعادى من غرير وأشهب[1]

ومن النصين السابقين يتضح لنا معرفة عبد الملك بن مروان معرفة واسعة بشعر طفيل ، جعلته ينصح من أراد أن يتعلم ركوب الخيل بروايته ، كما جعلته يستشهد لأولاده وأهل بيته بشعر طفيل فى أكرم بيت وصفته العرب أشرف حواء ، وأهلا وبناء . وفى الحقيقة لقد عنى عبد الملك بن مروان كما عنى سابقه معاوية بجمع الشعر الجاهلى وكتابته وحفظه فى الديوان . وقد ورد أن عبد الملك ابن مروان عنى أيضاً بجمع المعلقات « فطرح شعر أربعة منهم ، وأثبت مكانهم أربعة (٢) » . ويروى أنه قال لمؤدب ولده « روهم الشعر يمجدوا وينجدوا[3] » .

ومما يدل على انتشار شعر طفيل إبان حكم الأمويين بين سائر العرب ما رواه صاحب الأغانى قال : لما مات محمد بن الحجاج بن يوسف جزع عليه الحجاج جزعاً شديداً ، ودخل الناس عليه يعزونه ويسلونه ، وهو لا يسلو ولا يزداد إلا جزعاً وتفجعاً ، وكان فيمن دخل عليه رجل كان الحجاج قتل ابنه يوم الزاوية ، فلما رأى جزعه وقلة ثباته للمصيبة شمت به وسر لما ظهر له منه ، وتمثل بقول طفيل :

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر ... من الغيظ فى أكبادنا والتحوب[4]

---

(١) الأغانى ١٥/٣٥٣ .
(٢) الخزانة : ١٣٤ .
(٣) العقد الفريد ٦ : ١٢٥ .
(٤) الأغانى ١٥/٣٥٢ .

٢ ـ أصول الديوان

فى منتصف القرن الثانى تتبلور الحركات اللغوية والأدبية فى كل من البصرة والكوفة فى شكل مدرستين ، ومنذ ذلك الحين شرع رجال كل من المدرستين يبارون الآخرين فى زعامة هذه الحركات وتطويرها ، فكان أن وصل ديوان طفيل إلى هاتين المدرستين فتصدى له من البصرة إمامها الأكبر الأصمعى ، وتصدى له من الكوفة أبو عمرو الشيبانى ، ومن بعده يعقوب بن السكيت .

١ ـ الأصل البصرى :

ليس أمامنا من مدرسة البصرة إلا رواية واحدة لديوان طفيل ، هى رواية أبى حاتم السجستانى عن الأصمعى . ويعد السجستانى من علماء البصريين من الطبقة الثانية (ت ٢٥٥ هـ) الذين أخذوا عن الأصمعى كثيراً من دواوين الشعراء، وبجانب ما أخذه من الأصمعى من رواية لديوان طفيل بقيت لنا روايته لديوان امرىء القيس عن الأصمعى كاملة فى نسخة الأعلم الشنتمرى . ومن تلاميذ أبى حاتم الذين أخذوا عنه رواية دواوين الشعر : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (المتوفى ٣١١ هـ) . ومن المفيد أن أذكر تلمذة ابن دريد على السجستانى لأننا سنجد أن أبا على القالى فى كتابه « الأمالى » يقرن معظم الأشعار التى يستشهد بها لطفيل بقوله « وقرأت على أبى بكر بن دريد رحمه الله لطفيل الغنوى » (١) .

وهذه الرواية البصرية هى التى اعتمد عليها كرنكو فى نشره لديوان طفيل والطرماح ، وهى فى مجلد واحد محفوظ فى المتحف البريطانى ، وورد فى آخره أنه كتب سنة ثلاثين وأربعمائة . وكان نشره للديوانين فى سنة ١٩٢٧ بتكليف من لجنة جب التذكارية .

---

(١) الأمالى ١/٥٥ ، ٢/٢٣٦ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٨١ ، ٨٣ .

أما الديوان الأول فهو ديوان طفيل رواية أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي ، عدد قصائده عشر ، مع شرح موجز للسجستاني ، عدا ما استدركه كرنكو فجعله ملحقاً بالديوان وهو ما عثر عليه من شعر طفيل مما لم يرد في الديوان .

ويأتي في نفس المجلد بعد ديوان طفيل ديوان الطرماح بن حكيم الطائي ، وعليه شرح موجز . ولكن لم يذكر فيه اسم جامعه ، ويظن الأستاذ كرنكو أنه الطوسي أحد من جمع شعر الطرماح ، وعدد قصائد الديوان ثمان ، ولها ذيل جمعه كرنكو ، وفيه طائفة من شعر الطرماح مما خلا منه الديوان .

ولقد ترجم كرنكو الديوانين المذكورين مع استدركه عليهما إلى اللغة الإنجليزية ، وجعل لهما مقـــدمة وفهارس للقصائد والمقطوعات والأعلام ، ومعجماً لمفردات الديوانين ، مع ترجمة المفردات إلى اللغة الإنجليزية .

ويذكر كرنكو في مقدمته أن نص الديوانين يعتمد أساساً على مخطوط محفوظ في مكتبة المتحف البريطاني تحت رقم ٦٧٧٢ مشرقيات ، وهذا المخطوط نسخ في أسبانيا عام ثلاثين وأربعمائة هجرية بواسطة كاتب توفرت له أصول محققة ، ولكنه ارتكب عدة أخطاء في الكتابة .

كما يذكر أنه وجد ديوان طفيل كاملا في المخطوط الأصلي ، في الوقت الذي وجد فيه ديوان الطرماح ناقصاً . ومن المحتمل أن هاتين المجموعتين من شعر طفيل والطرماح كانتا متداولتين في مجلد واحد في العصور الماضية ، ونستند في قولنا هذا على الخلط الذي وجدناه في « كتاب ليس في كلام العرب » . لأبي عبد الله الحسين أحمد المعروف با بن خالويه النحوي اللغوي (المتوفى ٣٧٠ هـ) فهو ينسب عن طريق الخطأ بعض القصائد إلى الطرماح مما نجده من أشعار طفيل وفي ديوانه[1] .

---

(١) كتاب ليس في كلام العرب : ٢٤ .

ولقد أسعدنا الحظ بأن لدينا في ديوان طفيل نموذجاً مما جاء في نسخة البصرة التي أشرف على إعدادها أبو حاتم السجستاني ، الذي كان من أنبه تلاميذ عبد الملك بن قريب الأصمعي الذي كان أول جامع لهذه القصائد . وقد حفظ لنا السجستاني رواية شيخه الأصمعي لديوان طفيل كما خلفها ، وكان عمله في رواية الديوان هو نقله وشرحه والتعليق عليه ، ولم يطمس هذا العمل معالم الرواية الأصلية التي صنعها الأصمعي .

وتطالعنا من خلال هذه النسخة الطريقة التي كان يعمل بها هؤلاء الدارسون القدامى ، فإن مجموعة أشعار طفيل ـ رغم صغرها ـ مقسمة إلى أربعة أجزاء في الأصل ، ولم تكن هذه الأجزاء الأربعة تنتهي عندما تنتهي قصيدة من القصائد ، فقد ينتهي الجزء وتكون للقصيدة بقية تأتي في الجزء الثاني ، وأرجح أن كل جزء من هذه الأجزاء كان عبارة عن درس ليوم واحد أو لعدة أيام .

والأمر الذي لا شك فيه أن مصادر الأصمعي في جمع شعر طفيل رغم أنه لم يشر إليها ، كانت أبناء قبيلة الشاعر من غني ، وكان من هذه القبيلة الشعراء والفرسان[١] والفصحاء والشيوخ العالمون بالشعر وأيام العرب ، يجتمع إليهم فتيان العرب وينشدونهم الأشعار[٢] .

وكانت صلة الأصمعي بغني صلة قوية ، وكان ينزل عندهم في البادية ليأخذ عنهم[٣] .

وقد كان هؤلاء يحفظون شعر طفيل ويستشهدون به في مجالسهم ومحافلهم . ومن أنصع الأدلة على أخذ الأصمعي عن فصحاء غني في البادية ما يرويه نفسه

---

(١) الأغاني ٨/٢٢٣ .
(٢) الأمالي ٢/٤٦١ .
(٣) الأصمعي حياته وآثاره ٧٦ .

من أنه نزل بقوم من غنى وفيهم شيخ لهم عالم بالشعر وأيام الناس فاستمع إليه وأخذ عنه[١] .

كما يورد لنا أبو حاتم السجستانى فى شرحه للبيت التاسع والأربعين رواية أخرى عن أعرابى من غنى . وبيت طفيل هو[٢] .

رأى مجتنو الكراث من رمل عالج رعالا مطت من أهل شرج وتنضب

فقال أبو حاتم فى شرحه أنشد أعرابى غنوى :

رعالا مطت من أهل سرج وتنضب

والأصمعى فى جمعه الشعر يأخذ عن الأعراب . نستدل على ما نقول « وقرىء يوماً على الأصمعى فى شعر أبى ذؤيب « بأسفل ذات الدبر أفرد جحشها »فقال أعرابى حضر المجلس للقارىء : ضل ضلالك أيها القارىء ، إنما هى « ذات الدبر ، وهى ثنية عندنا ، فأخذ الأصمعى بذلك فيما بعد »[٣] ، وفى رواية الأصمعى لديوان امرىء القيس « قال أبو حاتم : قال الأصمعى : كل شىء فى أيدينا من شعر امرىء القيس فهو عن حماد الراوية إلا نتفاً سمعتها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء » ورأينا فى روايته أخبار طفيل ينقل لنا عن شيخ من نجد « قال أبو حاتم : حدثنا الأصمعى قال : حدثنا شيخ من أهل نجد قال : كان طفيل الغنوى يسمى فى الجاهلية محبراً لحسن شعره[٤] » .

فهو يذكر لنا الأعراب ضمن مصادره التى يأخذ عنها .

---

(١) الأمالى ٢/٢٦٩ .
(٢) الديوان (نشر كرنكو) ٣٩ .
(٣) الشعر والشعراء ٨/٢٩ .
(٤) فحولة الشعراء ١٦ .

وربما رجع الأصمعى كغيره من رجال الطبقة الأولى إلى نسخ مدونة وصلت إليهم من العصور التى سبقتهم ، وكان هؤلاء الرواة أحياناً يجمعون بين هذه النسخ ويضيفون إليها ما يصلهم بالرواية الشفهية عن شيوخ مدرستهم أو شيوخ المدرسة المخالفة ، أو عن الأعراب الرواة . ثم ينظرون فى كل ذلك نظرة تمحيص ونقد ، حتى يستخرجوا منه ما ترجح لديهم صحته ، فيضمنوه فى نسخهم التى يروونها عنهم تلاميذهم .

إذن فلم تكن هذه المدونات هى مصدر الأصمعى الوحيد ، وإنما كانت أحد مصدرين ، أما المصدر الآخر فقد كان الرواية الشفهية ، والأخذ عن الأعراب الذين كان يطمئن إلى صدقهم ويعتمدهم مصدراً من مصادره كما ذكرنا . وبعض هؤلاء الأعراب كانوا من قبيلة الشاعر الذى يروون شعره ، تناقلوه جيلا بعد جيل ، وتوارثوه خلفاً عن سلف . كذلك أخذ الأصمعى كغيره من الرواة والعلماء من رجال الطبقة الأولى عن الشيوخ العلماء الذين تتلمذ على أيديهم بالرواية الشفهية وبالقراءة والإملاء كعبد الله بن عون ، وشعبة بن الحجاج ، وحماد ابن سلمة ، وحماد بن درهم ، والخليل بن أحمد[1] .

وبعد أن جمع الأصمعى من هذه المصادر المختلفة شعر طفيل محصة ، ثم أبقى منه على ما رجحت له صحته ، وهى مجموعة العشر قصائد التى رواها لنا أبو حاتم السجستانى ، وكان من نتيجة ما قام به الأصمعى من نقد وتحقيق ونخل وتمحيص لما استقاه من شعر طفيل من تلك المصادر المختلفة ، أن جاءت روايته لديوانه فى عشر قصائد فقط . وتعليل ذلك :

فى هذا المنهج الذى أخذ به البصريون عامة أنفسهم ولا سيما الأصمعى ، وهو منهج يقوم على التضييق فى المصادر التى يستقون منها ، والتحرى فى الرواية التى يقبلونها .

---

(١) نزهة الألباء ٢٥٣ ، ١٥٤ .

وأخذ الأصمعى نفسه ـ فى حدود هذا المنهج ـ بأكثر مما أخذ به البصريون عامة نفوسهم ، فقد قال ابن مناذر «كان الأصمعى يجيب فى ثلث اللغة ، وكان أبو عبيدة يجيب فى نصفها ، وكان أبو زيد يجيب فى ثلثيها ، وكان أبو مالك (عمرو بن كركرة الأعرابى) يجيب فيها كلها » . وقد فسر أبو الطيب اللغوى المقصود بهذا الكلام فقال « وإنما عنى ابن مناذر توسعهم فى الرواية والفتيا ، لأن الأصمعى كان يضيق ولا يجوز إلا أفصح اللغات ويلح فى ذلك ويمحك ، وكان مع ذلك لا يجيب فى القرآن وحديث النبى صلى الله عليه وسلم فعلى هذا يزيد بعضهم على بعض[١] » .

ولقد نهج الذين جمعوا الدواوين منهجين فإما أن يجمعوا كل ما يمكن أن ينسب إلى شاعر معين ، وإما أن ينتخبوا من مجموعته ما يعتقدون أنه صحيح وأحسن ما قيل من شعره .

ويبدو أن الطريقة الثانية كانت الطريقة التى اتبعها الأصمعى فى عمله لديوان طفيل ، فقد كان يرى من واجبه أن يجمع كل القصائد التى يطمئن إلى مصادرها ، ويرى أنها صحيحة من ناحية اللغة والقافية .

ولنا بعد ذلك أن نتساءل لماذا خلت رواية الأصمعى من إسناد أشعار طفيل إلى سابقيه ممن أخذ عنهم ؟ فهو لا يخبرنا بالمصادر التى استقى منها هذه الأشعار ، كما أن مقدماته التاريخية للقصائد تخلو خلواً تاماً من الإشارة إلى روايتها ، وهى لا تعدو أن تكون شرحاً مقتضباً لمناسبة بعض القصائد أو سبب نظمها .

والأصمعى لا يشير إلى مصادره إلا حينما يتعرض بالشرح لبعض الكلمات ، فحينما تعرض لكلمة السميدع فى قول طفيل[٢] .

---

(١) مراتب النحويين : ٦٧ .

(٢) الديوان (نشر كرنكو) ٢٠ .

وفينا ترى الطولى وكل سميدع مدرب حرب وابن كل مدرب

« . . . . قال الأصمعى : قلت للمنتجع بن نبهان ما السميدع ؟ قال : السيد الموطأ الأكناف ، يريد السيد الذى يلاذ به ويضاف فى كنفه[١] ».

وفى شرح بيت طفيل[٢] :

حتى يقال وقد عوليت فى حرج أين ابن عوف أبو قران مجعول

يروى فى ظعن غرائب أى فى النعش ، وزعم أن أبا عمرو بن العلاء قال : أمرت بكم ظعينة فلم ندر ما قال ، حتى بين لنا فقال أمر بكم نعش »[٣] .

وللاجابة عن السؤال : لماذا لم يشر الأصمعى إلى مصادر شعر طفيل ومقدمات قصائده التاريخية ؟

سنجد كرنكو يجيب عن هذا السؤال فى مقدمته للديوانين اجابة لا تقنعنا ، إذ يرى أن السبب فى إغفال الأصمعى وغيره ذكر المصادر التى استقوا منها مجموعة أشعارهم ، يرجع لما يشعرون به من زهو وخيلاء بالأستاذية فى مهنتهم ، مما جعلهم بلا شك لا يخبروننا من أين جاءوا بأشعارهم . كما لا يخبروننا بمصادرهم .

والجواب عن ذلك قائم على أمرين :[٤] .

الأول : أن رواية الجاهلية كانت من الثقافة العامة التى لا يختص بها أحد

---

(١) الديوان (نشر كرنكو) ٣٢ .
(٢) الديوان (نشر كرنكو) ٥٨ .
(٣) الديوان (نشر كرنكو) ٣٢ .
(٤) مصادر الشعر الجاهلى ٢٥٨ ، ٢٧٦ .

ومع ذلك لا يتجرد منها أحد ، فقد كانت الأشعار والأخبار من آلات المفسرين والمحدثين والفقهاء والقصاص ، يتوسلون بها لتفسير كتاب الله أو حديث رسوله أو ليزينوا بها قصصهم . وبجانبهم كانت طائفة الخلفاء والأمراء والولاة وأبنائهم ممن يتعلمون الشعر الجاهلى ، كذلك أبناء الشاعر ، وأفراد قبيلته ، ولكن هؤلاء جميعاً لم يكونوا من العلماء المختصين بهذا الضرب من العلم ، المشتغلين به ، كما صار شأن العلماء فى القرن الثانى . ومع ذلك فإننا نجد بعض الشعر الجاهلى يرويه علماء القرن الثانى عن بعض من ذكرنا من المفسرين والمحدثين والفقهاء أو أبناء الشاعر وأفراد قبيلته .

فالرواية الأدبية بمعناها العلمى الذى عرفه القرن الثانى لم تكن موجودة قبل زمن أبى عمرو بن العلاء وحماد الرواية ومن عاصرهما . ومن هنا كان هؤلاء فى الغالب الأعم نهاية الإسناد فى الرواية الأدبية ، يأخذها من جاء بعدهم ـ على مر العصور ـ على أنها فى جملتها صحيحة موثقة لا يسأل عمن أخذها هؤلاء ، ولا يجد فى انقطاع الإسناد عندهم ما يضعف من هذه الرواية . ومن هنا كان الإسناد فى الرواية الأدبية هو القاعدة العامة فى القرنين الثالث والرابع ، يرتفع حتى يصل إلى هذه الطبقة الأولى من العلماء ، ثم يقف عندها لا يتجاوزها .

والأمر الثانى منبثق من هذا الأمر الأول ، إذ أن أمر الشعر الجاهلى كان عرضا من أعراض هذه الدنيا يرتزقون بروايته وذكر أخباره حينا ، وينتشون بما فيه من امتاع فى حينا آخر ، ويتحلون به فى ثقافتهم العامة حينا ثالثا ، ويتناولونه فى جميع هذه الأحوال تناولا فيه يسر واسماح ، فلم يكن يتصل بأمور دينهم كما كان يتصل الحديث أو التفسير ، ولم يكن يترتب عليه شأن من شئون التشريع أو الفقه ، ولذلك وجدنا بعض المحدثين أنفسهم يضيقون بما يأخذون به أنفسهم وما يأخذهم به الناس من أمر الإسناد والتشدد فى روايه الحديث والتحرج من الإكثار منها ، وتحرى الضبط والدقة لئلا يقولوا على رسول الله

صلى الله عليه وسلم مالم يقل فيتبوءوا مقعدهم من النار.[١] ولا يجد هؤلاء لأنفسهم متنفساً يتنفسون فيه أرحب وأوسع من رواية الشعر وإنشاده، حيث لا حرج ولا إثم . ومن هنا كان التزام الإسناد المرفوع في رواية الحديث، وانقطاع الإسناد في رواية الأدب والشعر .

وقد رتب ديوان طفيل بالطريقة التي اتبعت في ترتيب غالبية دواوين الشعر ، وهي أن توضع أشهر القصائد وأطولها في صدر الديوان ، أما بقية الديوان فيضم القصائد الأقل شهرة ،أو مقتطفات غير كاملة . لذا بديء الديوان بأشهر قصيدة لطفيل وهي التي قالها حينما أغارت غني على طيء بعد وقيعة محجر ودخولها جبلي سلمى وأجأ ، وسبيها سبايا كثيرة ، وتقع هذه القصيدة في سبعة وسبعين بيتاً .

ويضن علينا كرنكو فلا نحظى منه بوصف مخطوطة الديوان التي اعتمد عليها . ولكننا لانعدم ذكراً لبعض الإشارات التي يثبتها في حاشية التحقيق ، ككتابة الحرف مفرداً أسفل الحرف في الكلمة[٢] ، أو النص على تآكل بعض الكلمات في الجملة وإثباتها[٣] ، أو ورود بعض حروف الكلمات من غير أعجام[٤] . كما وردت بعض الكلمات مصحفة من الناسخ ، ولكنها صوبت بمداد أحمر بيد شرقية[٥] .

وبعد أن جمع الأصمعي من مصادره المختلفة ديوان طفيل أخذه السجستاني فقام بتفسير ما غمض من مفرداته اللغوية وشرح أبياته ، ثم حفظه عنده لأنه كان

---

(١) إشارة إلى حديث رسول الله : (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) ونص الحديث وطرق تخريجه في : الخطيب البغدادي (تقييد العلم ص ٢٩ ، ٣٢) وهوامش الصفحات .

(٢) الديوان (نشر كرنكو) .

(٣) الديوان (نشر كرنكو) ١١ .

(٤) الديوان (نشر كرنكو) ٤٩ .

(٥) الديوان (نشر كرنكو) ٣٨ .

ممن يحفظون أشعار الشعراء .

قال أبو حاتم : طلب اسحق بن العباس الهاشمي من الأصمعي رجز الأغلب فطلبه مني ، فأعرته إياه . فأخرج منه نحوا من عشرين قصيدة[١]، كما يروى أنه انصرف إلى بيع الكتب في البصرة[٢] .

ولم يقتصر عمل السجستاني في الديوان على مجرد تفسير المفردات اللغوية وشرح معاني الأبيات ، إنما تناول أيضاً تفصيلا لما ورد في مقدمات القصائد التي رويت عن الأصمعي ، ففي مقدمة القصيدة الأولى روى عن الأصمعي «كانت غني قد أغارت على طيء بعد وقيعه محجر ودخلوا سلمى وأجأ ، وهما من جبال طيء وسبوا سبايا كثيرة قال طفيل في ذلك »[٣] ولكنه في شرح البيت :

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر من الغيظ في أجوافنا والتحوب

يفصل فيقول « محجر : مكان الوقيعة التي كانت بين غني وطيء، كانت لطيء على غني ، ثم أغارت غني على طيء بعد ذلك فدخلوا سلمى وأجأ وهما جبلا طيء فسبوا سباياً كثيرة فلذلك قوله : فذوقوا كما ذقنا غداة محجر »[٤] .

كما فصل أسماء الأشخاص الغنويين الذين ورد ذكرهم في الأبيات ، وما كان من أمرهم مع قبيلة طيء وعرف بهم في شرحه للبيت :

وكان هريم من سنان خليفة وحصن ومن أسماء لما تغيبوا[٥]

قال : قوله وكان هريم من سنان خليفة ، فهو سنان بن عمرو بن يربوع

---

(١) الموشح ، ٢١٣ .
(٢) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ١٢٢ .
(٣) الديوان ١٧ .
(٤) الديوان (نشر كرنكو) ١٤ .
(٥) الديوان (نشر كرنكو) ٢٨ .

ابن طريف بن خرشة ، وكان فارساً حسيبا ، وقد قاد ورأس ، وهو صاحب ابن غانم العبسى طريد الملك ، وقتله سنان ، فقال له الملك كيف قتلته ؟ قال : « حملت عليه فى الكبة . فطعنته فى السبة . فخرج الرمح من اللبة » وهريم عم سنان وقد ساد ورأس . وقوله «ومن أسماء لما تغيبوا» فهو أسماء بن واقد بن وقيد ابن رماح بن يربوع ، بن ثعلبة بن سعيد بن عوف بن كعب بن جلان وهو من النجوم ، وحصن هلك أيضاً ، هؤلاء من غنى . وهريم بن سنان بن يربوع بن رباح ، وقيس بن خيدع أمه »(١) .

وفى شرح قول طفيل :

ومن قيس الثاوى برمان بيته ... ويوم حقيل فاد آخر معجب

قال : « قوله من قيس الثاوى برمان بيته فهو قيس بن عبد الله بن طريف ابن خرشة قدم على بعض الملوك فقال الملك : لأضعن التاج على أكرم العرب ، فوضعه على رأس قيس بن عبد الله الغنوى وأعطاه ماشاء ، ثم خلى سبيله إلى بلده فلقيته طيء برمان وهو راجع إلى أهله فقتلوه ، ثم عرفوه بعد ، وذكروا أيادى كانت له عندهم ، فندموا ودفنوه وبنوا عليه بيتاً ، ولذلك يقول طفيل : « فاد آخر معجب » . أى من رآه أعجبه لشرف فضله »(٢) .

وقال فى قول طفيل :

فأبل واسترخى به الشأن بعدما ... أساف ولولا سعينا لم يؤبل

أبل : اتخذ ابلا واكتسبها عندنا . أساف : ماتت ابله ، والسواف : الغدة ، واسترخى به الشأن :أى طاب له الجو وحسنت حالة فلم يبرح ، ولولا فعلنا به لم تكن له ابل . وكان طفيل بن مالك أتى أسماء بن واقد بن وقدان بن رباح

---

(١) الديون(نشر كرنكو) ١٨ .
(٢) الديوان ١٨ .

ابن عوف بن يربوع وهو خاله فحمله على فرسه وغزا معـــه فسلم ماغنموا ، وغنموا ابلا كثيرة (١) .

ونراه يعلق على الاشارات التاريخية التى وردت فى الأبيات ، ففى قـــول طفيل (٢) :

يرعى منابت وسمى أطاع لــــه بالجذع حيث عصى أصحابه الفيل

قال « يريد أطاع له النبات : جاء منه ما يريد ، عصى أصحابه الفيل : أى حيث أقام بالتعمير وهو على أميال من مكة لما بلغه الفيل كف ولم يدخل الحرم . يعنى بالفيل الذى جاء به أبرهة إلى البيت وإنما أراد أن الظبي إنمـــا يرعى بذلك المكان (٣) .

وقد استفاد أبو حاتم السجستانى فى شرحه لديوان طفيل من ثقافة أساتذته السابقين ، ومن ثقافة عصره فقد أخذ عن أبى زيد ، وأبى عبيدة ، والأصمعى ، وقرأ كتاب سيبويه على الأخفش مرتين (٤) ، وهو فى أثناء شرحه يورد للأصمعى ما يكون قد ذكره من شرح معانى الأبيات ، أو سؤاله هو له عن معنى كلمة ، أو تعليق الاصمعى على بيت من الأبيات بذكر حادثة . ففى شرحه للبيت (٥) :

وللخيل أيام فمن يصطبر لها ويعرف لها أيامها الخير تعقب

يقول : « قال الأصمعى يقول الخيل تأتى بالغنم فمن يعرف لها أيامها الخير أعقبته (٦) ، وفى شرحه للبيت (٧) :

---

(١) الديوان ٤١ .
(٢) الديوان ٣٠ .
(٣) الديوان ٤٠ .
(٤) نزهة الألباء ٢٥١ :
(٥) الديوان (نشر كرنكو) ١٠ .
(٦) الديوان ٢٦ .
(٧) الديوان ٥٤ .

أبيت اللعن والراعى متى ما يضع تكن الرعية للذئاب

يقول : « سألت الأصمعى عن قولهم أبيت اللعن ، فقال : أبيت لأن تأتى من الأمر ما تلعن عليه [١] » .

وفى شرحه لقول طفيل :

فذوقوا كما ذقنا غـــداة محجر من الغيظ فى أجوافنا والتحوب

ذكر تعليق الأصمعى عليه فقال :«قال الأصمعى قتل الحجاج بن يوسف ابنا لشيخ كبير ، فاشتد حزنه عليه فبينما الشيخ قاعد فإذا بجنازة آهلة ، فقال الشيخ : جنازة من هذه ؟ قيل : ابن الحجاج مات فاشتد وجده عليه ، فقال الشيخ :

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر من الغيظ فى أجوافنا والتحوب[٢]»

وفى شرحه للأبيات لا يطيل ولا يستطرد ولا يهتم إلا باللغة ، ولا غرو فقد كان عالما ثقة قيما بعلم اللغة والشعر.[٣] أما النحو فيمسه مسا خفيفاً،وهو فى ذلك يعتمد على النحويين من أساتذة البصرة ، وربما كانت ظاهرة انصرافه عن النحو فى شرحه ترجع لما نراه فى ترجمته من أنه « لم يكن بالحاذق فى النحو ، وكان إذا التقى هو والمازنى تشاغل أو بادره خوفا أن يسأله المازنى عن النحو » [٣].

فمن تعرضه للنحو قوله فى شرح بيت طفيل :

لأيامها قيدت وأيامها جرت لغنم ولم تؤخذ بأرض وتغصب

« قيدت وأصلحت لأيام يرجى فيها غنمها، وجرت فى أيامها للغنم قبل ذلك فتؤخذ وتغصب » .

---

(١) الديوان (نشر كرنكو) ٥٤ .
(٢) الديوان ١٤ .
(٣) نزهة الألباء ٢٥١.

قال الرياشي: «لأيامها جرت . غيره قيدت وأيامها جرت ،فيجوز الرفع والنصب والخفض فيه »[1] .

كما نجد تعرضه النحو في إعرابه لكلمة في قول طفيل :

غدو فتأملت الحدوج فراعني   وقد رفعوا في السير ابراق معصم

قال « رفعوا : ساروا سيراً سريعاً ، راعه معصم لائح له ، والمعصم : موضع السوار . ابراق معصم : أبرقت له كأنها لمعت . غدو : يعني الظعن ، تأملت : نظرت . والحدوج : الهوادج . راعني : وهو من راعك الشيء إذا أعجبك وهالك ، يقول راعني ابرق معصم وابراق فاعل »[2] .

وإذا كان للبيت الواحد رواية أخرى سوى رواية الأصمعي فإننا نجد أبا حاتم يذكرها وهذا يدل على تعدد النسخ التي كانت بين يديه ، والتي كان ينظر فيها أثناء شرحه لشعر طفيل برواية الأصمعي .

وفي شرحه لبيت طفيل :

رأى مجتنو الكراث من رمل عالج   رعالا مطت من أهل شرج وتنضب

قال : « أنشد أعرابي غنوي . رعالا مطت من أهل سرج وتنضب »[3]

وفي شرحه لقول طفيل :

وكنـــا مدماة كأن متونهـــا   جرى فوقها واستشعرت لون مذهب

قال : ويروى واستشربت لون مذهب ... »[4]

---

(١) نزهة الألباء : ٢٠٢ .

(٢) الديوان (نشر كرنكو) ١٥ .

(٣) الديوان ١٢ .

(٤) الديوان ٧ .

وفى شرحه لقول طفيل :

أم ما تسائل عن شماء مافعلت ... وماتحاذر من شماء مفعول

قال : ويروى اما تحاذر من شماء مفعول . والمعنى الذى تحاول من شماء تدركه أم لا ، وهذا استفهام ومن روى اما تحاذر فالمعنى ما تحاذر منها هو مقضى عليك » [١] .

وهو فى شرحه يستشهد أحيانا بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والأمثال ، فمن استشهاده بالقرآن الكريم قوله فى شرح بيت طفيل :

تأوبنى هم مع الليــــل منصب ... وجاء من الأخبار مالا أكذب

« الاياب : الرجوع ، أى وقت كان من ليل أو نهار ، أما ترى قول عبيد ابن الأبرص :

وكل ذى غيبــــة يئوب ... وغائب الموت لايؤوب

أى لا يرجع قال عز وجل « إن إلينا إيابهم » أى رجوعهم » [٢] .

ومن استشهاده بالحديث الشريف قوله فى شرح بيت طفيل :

وللخيل أيام فمن يصطبر لها ... ويعرف لها أيامها الخير تعقب

قال : « ... وقال ﷺ : الخيل معقود فى نواصيها الخير » [٣] .

أما استشهاده بالأمثال العربية فيتضح فى شرحه لقول طفيل :

وبيت تهب الريح فى حجراته ... بأرض فضاء بابه لم يحجب

---

(١) الديوان (نشر كرنكو) ٢٩ .
(٢) الديوان ١٧ .
(٣) الديوان ١٦ .

قال : « ... حجراته : نواحيه ، ومثل من الأمثال : يأكل وسطا ويربض حجرة ... »(١)

أما استشهاده بالشعر فى خلال شرحه للأبيات فأكثر من أن يعد ، ولعل ذلك يرجع إلى أنه كان حسن العلم بالشعر والعروض وإخراج المعمى ، وقول الشعر الجيد (٢) ، وهو فى استشهادة بالشعر إما أن ينسب البيت إلى قائله ، وإما أن يكتفى بذكر ماقال الشاعر ، فمن الضرب الأول قوله فى شرح قول طفيل :

وأذنابها وحف كأن ذيولها مجـــر أشاء من سميحة مرطب

قال .. « وسميحة : بئر بالمدينة . قال كثير :

كأنى أكف وقد أصعبت بها من سميحة عزباً سجيلا(٣)

ومن الضرب الثانى الذى لا يسند فيه البيت المستشهد به لقائله قوله فى شرح بيت طفيل :

تبارى مراخيها الزجاج كأنها ضراء أحست نبأة من مكلب

قال . والنبأة :الصوت . وقال الشاعر يصف ذئباً وانتصابه لصوت سمعه :

يصيخ للنبـــأة أسمـــاعه إصاخة الناشـــد للمنشد(٤)

ونجد فى شرح السجستانى ما يدل على علمه بالشعر ومقدرته على كشف المعمى كما قال ابن الأنبارى ، فنجده ينص على من تأثر طفيلا من الشعراء الذين أتوا بعده سواء فى لفظ أو معنى فمثلا فى شرحه لقول طفيل :

---

(١) الديوان (نشر كرنكو) ٣ .

(٢) نزهة الألباء ٣٥١، ٣٥٢ .

(٣) الديوان (نشر كرنكو) ٨ .

(٤) الديوان (نشر كرنكو) ٨ .

ولم يجد الأقوام فينـــا مسبة إذا استدبرت أيامنا بالتعقب

قال بعد الشرح « ... ومثله قول حسان بن ثابت :

فما وجد الأقوام فينا غميزة ولا طاف لى منهم بوحشى صائد (١)

وقال فى شرحه لقول طفيل :

وكنت كما يعلمن والدهر صالح كصدر اليمـــانى أخلصته صياقله

ومثله قول مزاحم :

وإذ أنا فى رؤد الشباب الذى مضى وكنت كنصل السيف أحوى المرجل (٢)

وقال فى قول طفيل :

وأصبحت قد عنفت بالجهل أهله وعرى أفراس الصبا ورواحله

وهذا كقول زهير .

وأقصرت عما تعلمين وسددت على سوى قصد السبيل معادله (٣)

وسيجد قارىء الديوان أمثلة كثيرة لمن تأثر طفيلا من الشعراء الذين جاءوا بعده سواء فى لفظ أو معنى ، ولعل الذى دفع السجستانى إلى أن ينص على ذلك ماروواه فى مقدمة الديوان « قال الأصمعى أخذ كل الشعراء من طفيل حتى زهير والنابغة » (٤)

---

(١) الديوان (نشر كرنكو) ١٧ .

(٢) الديوان ٤٨ .

(٣) الديوان : ٤٨ .

(٤) الديوان : ١٧ .

وقد تأثر السجستانى فى شرحه لديوان طفيل بنص الأصمعى « وقد أخذ طفيل من امرىء القيس شيئاً »[١] .

لذلك وجدناه ينص على تأثر طفيل بامرىء القيس . فنراه يقول فى شرح بيت طفيل :

كجمر غضا هبت له وهو ثاقب   بروحة لم تستتر ريح شمأل

. . . . . . وسرق هذا من قول امرىء القيس :

كأن على لباتها جمـــر مصطل   أصاب غضاً جزلا وكف بأجزال
وهبت له ريح بمختلف الصوى   صبا وشمال فى منازل قفال[٢]

وقال فى شرح بيت طفيل :

تظل مداريهـــا عوازب وسطه   إذا أرسلته أو كذا غير مرسل

وهو كقول امرىء القيس :

تضل المـــدارى فى مثنى ومرســـل[٣]

وأخيراً فلا نجد لأبى حاتم السجستانى نظرات نقدية فى شعر طفيل إلا فى بيت واحد هو قوله[٤] :

وشد العضاريط الرحال وأسلمت   إلى كل مغوار الضحى متلبب

قال أبو حاتم : « العضاريط : الأجراء واحدهم عضروط . والرحال :

---

(١) فحولة الشعراء ١٦ .
(٢) الديوان ٣٧ .
(٣) الديوان (نشر كرنكو) ٢٧ .
(٤) الديوان ١١ .

واحدها رحالة، وهى سروج من أدم تعمل للبقاء على طول السير والوطء . أسلت : دفعت إلى كل فارس مغوار، وإنما تكون الغارة مع الصبح فلم يستطع أن يقول مغوار الصبح فقال مغوار الضحى . متلبب : قد لبس اللبة وهى الدروع »[1] .

الأصول الكوفية :

لسوء الحظ لم يصل إلينا ديوان طفيل برواية مدرسة الكوفة ، ولكننا لا نعدم الإشارات فى المصادر التى بين يدينا إلى رواية أشعاره من أساتذة كوفيين . ومن شرح لديوانه على يد علم من أعلام مدرسة الكوفة كما سوف نذكر بعد قليل . ويعد كرنكو أول من أشار إلى وجود نسخة من ديوان طفيل برواية أبى عمرو الشيبانى[2] . يقول : « ومن مادة من القاموس[3] الجغرافى لأبى عبيد البكرى يمكننا أن نستخلص وجود نسخة كتبها أبو عمرو الشيبانى تحوى تعليقات تاريخية . وانه لمن الحزن أننا لم نستطع الحصول على هذه النسخة التى كان من الممكن أن توضح ما بقى غير واضح حتى الآن . وان الجزازات التى جمعت من مختلف المصادر كلها غير ذات قيمة حتى تضيف شيئاً إلى معلوماتنا ، ولكنها تبرهن على أن كثيراً من أشعاره الأخرى احتوتها نسخ أخرى من دواوين شعره »[4] .

وقد رجعت إلى كتاب « معجم ما استعجم » الذى أشار إليه كرنكو فى مقدمته ، وبالبحث فيه وجدت خبراً برواية أبى عمرو للشيبانى مستشهداً فيه بشعر طفيل يقول فيه : « وروى فى شعر طفيل كتلة بالتاء المعجمة باثنتين قال :

(١) الديوان (نشر كرنكو) ١١ .

(٢) مقدمته الانجليزية للديوان ٢١ .

(٣) يعنى بالقاموس الجغرافى كتاب «معجم ما استعجم» .

(٤) النص مترجم من مقدمته الانجليزية المختصرة عن طفيل ٢١ .

وأنت ابن أخت الصدق يوم بيوتنا ... بكتلة إذ سارت إلينا القبائل

قال أبو عمرو الشيباني كتلة : هضبة اجتمعت عندها غنى ، وخرج إليهم عوف بن الأحوص فى بنى كلاب وكعب ، فحجز بينهم يزيد بن الصعق وخاف تفانى الناس »[١] ، ولعل كرنكو يشير إلى هذا الخبر الذى أوردناه لأنه الخبر الوحيد المروى عن أبى عمرو فى هذا الكتاب ، كما أن الخبر يتضمن إشارة تاريخية هامة تضيف جديداً فى تاريخ الصراع بين قبيلة غنى وغيرها من القبائل العربية .

كما ينقل كرنكو فى التعليقة التى أضافها فى نهاية الديوان والتى اشتملت على أبيات لطفيل نقلها من كتب مختلفة بيتاً لطفيل نقله عن لسان العرب[٢] ، وتاج العروس[٣] ، والبيت برواية أبى عمرو الشيبانى ففى الديوان : « وقال طفيل :

أمسى مقيما بذى العوصاء صيره ... بالبئر غادره الأحياء وابتكروا

قال أبو عمرو (الشيبانى) صيره : قبره[٤] » .

ولعل هذين الخبرين هما اللذان دفعا بكرنكو إلى القطع بوجود نسخة من ديوان طفيل برواية أبى عمرو الشيبانى الكوفى . ونحن من جانبنا نسلم بما قال كرنكو لأن المنزلة التى احتلها طفيل والثناء عليه وخاصة من الخلفاء ، جعلت الكثير من الدارسين فى نهاية القرن الثانى يهتمـــون بأشعاره ويسارعون إلى روايتها .

وقد كان أبو عمرو الشيبانى جامعاً لأشعار العرب عالماً بأيامها ، ويروى عن عمر ابنه أنه قال : « لما جمع أبى أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة ،

---

(١) معجم ما استعجم ٤/١١١٦ .
(٢) لسان العرب ٦/١٤٨ .
(٣) تاج العروس ٣/٣٠٤ ، ٣٠٥ .
(٤) الديوان ١٠٠ .

وكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها إلى الناس كتب مصحفاً بخطه »[١] كما روى أنه « قرأ دواوين الشعراء على المفضل »[٢] وحكى أنه أخذ دواوين العرب عنه[٣] كما روى عن يعقوب بن السكيت: « مات أبو عمرو الشيبانى وله مائة وثمانى عشرة سنة، وكان يكتب بيده إلى أن مات ، وكان ربما استعار منى الكتاب وأنا إذا ذاك صبي آخذ عنه وأكتب من كتبه[٤] » .

وبعد عرض هذه النصوص يتضح لنا أن أبا عمرو الشيبانى كان حريصاً على جمع شعر الشعراء وكتابته سواء فى ديوان القبيلة ، أو فى الدواوين المفردة، وأنه قرأ هذه الدواوين على المفضل الضبي أستاذه .

ونستدل فى تأييدنا لكرنكو على وجود نسخة من ديوان طفيل برواية أبي عمرو الشيبانى على ما وجدناه فى الأغانى فى ترجمة طفيل من نقل صاحب الأغانى عن هذه النسخة فى موضعين :

الموضع الأول : فى قول أبى الفرج الأصفهانى حيث ينقل نقلا مباشراً « وقال أبو عمرو الشيبانى كانت فزارة لقيت بنى أبى بكر بن كلاب وجيرانهم من محارب فأوقعت بهم وقعة عظيمة ، ثم أدركتهم غنى فاستنقذتهم فلما قتلت طيء قيس الندامى، وقتلت بنى عبس هرم بن سنان بن عمرو بن يربوع بن طريف ابن خرشة بن عبيد بن سعد بن كعب بن جلان بن تميم بن غنى، وكان فارساً حسيباً قد ساد ورأس ، قتله ابن هدم العبسى طريد الملك : فقال له الملك : كيف قتلته ؟ قال : حملت عليه فى الكبة ، وطعنته فى السبة ، حتى خرج الرمح من اللبة، وقتل أسماء بن واقد بن رفيد بن رياح بن يربوع بن ثعلبة بن سعد بن عوف

(١) نزهة الألباء ١٢١ .
(٢) وفيات الأعيان ١ / ٦٥ .
(٣) نزهة الألباء ١٢١ ، ١٢٣ .
(٤) الفهرست : ١٠٢ .

ابن كعب بن جلان ، وهو من النجوم ، وحصن بن يربوع بن طريف وأمهم خيدع بنت عمرو بن الأغـــر بن مالك بن سعد بن عوف فاستغاثت غنى ببنى أبي بكر وبنى محارب فقعدوا عنهم فقال طفيل فى ذلك يمن عليهم بما كان منهم فى نصرهم ويرثى القتلى [١] » .

الموضع الثانى :

ينقل فيه صاحب الأغانى فى ترجمـــة طفيل عن أبي عمرو الشيبانى والطوسى فيما رواه عن الأصمعى وأبى عبيدة ، أن رجلا من غنى يقال له قيس الندامى ، وفد على بعض الملوك وكان قيس سيداً جواداً فلما حفل المجلس أقبل الملك على من حضره من وفود العرب فقال : لأضعن تاجى على أكرم رجل من العرب ، فوضعه على رأس قيس ، وأعطاه ما شاء ونادمه مدة ، ثم أذن له فى الانصراف إلى بلده ، فلما قرب من بلاد طيء خرجوا إليه وهم لا يعرفونه فلقوه برمان فقتلوه فلما علموا أنه قيس ندموا لأياد له كانت فيهم فدفنوه وبنوا عليه بيتا ، ثم إن طفيل جمع جموعاً من قيس فأغار على طيء فاستاق من مواشيهم ماشاء ، وقتل منهم قتلى كثيرة ، وكانت الوقعة بين القنان وشرقى سلمى فذلك قول طفيل فى هذه القصيدة :

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر ... من الغيظ فى أكبادنا والتحوب

فبالقتل قتـــل والسوام بمثله ... وبالشل شل الغائط المتصوب [٢]

وبعد هذا العرض يتضح لنا :

أن أبا عمرو الشيبانى روى ديوان طفيل الغنوى ، وأن نسخة من روايته كانت بين يدى صاحب الأغانى بدليل نقله عنها ، ولكن تبقى بعض الحقائق التى نستنبطها من النصوص :

---

(١) الأغانى ١٠/٣٥١ .

(٢) الأغانى ١٠/٣٥٤ .

الحقيقة الأولى : أن نسخة الشيبانى كانت تحتوى على إضافات تاريخية ، وأشعار مما نعدمه فى رواية الأصمعى التى وصلت إلينا بدليل ماذكره الشيبانى عن يوم كنلة وماصاحب ذلك اليوم من شعر لطفيل، وبدليل ماروواه صاحب لسان العرب وتاج العروس مما نجده فى رواية أبى حاتم السجستانى عن الأصمعى التى بين أيدينا ، لذلك حق لكرنكو أن يحزن لأنه لم يستطع الحصـــول على هذه النسخة كما ورد فى نصه .

الحقيقة الثانية : وجود خلافات بين الرواية البصـــرية وأعنى بها رواية الأصمعى ، والرواية الكوفية وأعنى بها رواية الشيبانى (١) .

الحقيقة الثالثة : نخرج بها من النص الثانى الذى رواه صاحب الأغانى ونقل فيه عن أبى عمرو الشيبانى والطوسى فيما رواه عن الأصمعى وأبى عبيدة ، وهذه الإشارة تؤكد ماسبق أن قلناه من أن كثيراً من الدارسين فى نهاية القرن الثانى من الهجرة قد رووا شعر طفيـــل وأذاعوه . والإشارة إلى الطوسى وروايته نجدها فى مواضع أخرى مما سوف نذكره بعد قليل ، لذلك أرجىء الحديث عن هذه الحقيقة .

أما عن الحقيقة الأولى : وهى اشتمال نسخة الشيبانى على إضافات تاريخيـــة وأشعار مما لانجده فى رواية السجستانى عن الأصمعى فإن ذلك كامن فى طبيعة ومنهج كل من الرواية البصرية والكوفية على وجه العموم .

وقد اختلفت مصادر كل من المدرستين ومنهجهما ، فقد أخذ الكوفيون عن أعراب رواة لم يأخذ عنهم البصريون ، كما أخـــذوا عن علماء وشيوخ من أهل البصرة نفسها، وزادوا فأخذوا عن علماء وشيوخ لم يأخذ عنهم البصريون ، ووقع

(١) استخلصت هذه الحقيقة بالنظر فيما جاء فى المصادر العربية من أخبار وأشعار لطفيل بالرواية الكوفية ، ومقارنة ذلك بما هو فى ديوانه بالرواية البصرية .

بين أيدى أهل الكوفة من الصحف المدونة مالم يقع لأهل البصرة وفى الوقت الذى كان أهل الكوفة فيه يلتزمون الحرية والجرأة فى منهجهم ، كان البصريون يجنحون إلى التعقيد والتضييق فى مصادرهم التى يأخذون عنها ، لذلك كثرت رواية الكوفيين ونصوا على أشعار وحوادث فى دواوينهم خلت منها الدواوين البصرية .

وفى الوقت الذى احترم فيه الكوفيون كل ماجاء عن العرب وأجازوه ، وجدنا البصريين يهدرون الشواذ ، فإذا ثبت صحتها قالوا إنها تحفظ ولا يقاس عليها ، بل خطأوا بعض العرب فى أقوالهم إذا لم تجر على القواعد (١) .

وهذه الزيادة فى الإضافات التاريخية والأشعار مما هو موجود فى نسخة الشيبانى لاتعنى أنه كان يصنع أو ينحل ويتزيد ، لأن الشيبانى كان ثقة ثبتا عند أصحاب المدرستين يوثقونه جميعاً ، ولم نجد لأحد طعنا عليه فى روايته ، أو توهينا له ، وإنما مرد هذه الزيادة كما ذكرناه منذ قليل إلى اختلاف مصادر المدرستين واختلاف منهجيهما .

أما الحقيقة الثانية :

وهى وجود خلافات بين رواية المدرستين فى الكلمات أو عدد الأبيات فإن ذلك يحدث فى أثناء التناقل ، فقد تستبدل بعض الكلمات المترادفة بغيرها وقد يؤدى عدم تثبت الذاكرة إلى أسقاط أبيات أو تغيير فى ترتيبها ، أو وضع عبارات الراوى بدل العبارات التى نسيها ، وربما كان هذا الاختلاف راجعاً إلى اختلاف النسخ التى أخذ عنها كل من الأصمعى والشيبانى والتى كانت بين أيديهم .

وفى سنة ١٩٠٧ ينشر كرنكو فى مجلة الجمعية الملكية الاسيوية بحثا بعنوان طفيل الغنوى : « قصيدة من الأصمعيات بشرح وتعليق ابن السكيت » وهو يذكر فى هذا البحث أن ابن السكيت قام بجمع قصائد طفيل الغنوى فى ديوان ، وأن

---

(١) ضحى الإسلام ٢ / ٢٩٤ .

نسخة من هذا الديوان بها شروح وتعليقات كانت فى حوزة عبد القادر البغدادى، وأن هذه النسخة كانت تحتوى على القصيدة التى نشرها والتى ذكر البغدادى أن عدتها ستة وسبعون بيتا، لأن عدد أبياتها هنا سبعة سبعون بيتا، وربما ارتكب البغدادى خطأ فى الإحصاء، ومن المؤسف أن هذا الديوان لم يكتشف حتى الآن، وربما كان مطمورا فى مكتبة من مكتبات بغداد أو القاهرة مع غيره من المخطوطات الثمينة .

وان هذه القصيدة التى نشرها أخذها من مخطوط قديم يمتلكه معنون بـ « الجـزء الثانى من كتاب الاختيارين مما روى عن المفضل الضبي والأصمعى » برسم الخزانة السعيدة النبوية العزية الناصرية عمرها الله بتخليد عز مالكها ، والنسخة ليست مؤرخة ولكن يرجح كرنكو أنها كتبت لمكتبة مافى حوالى نهاية القرن السادس الهجرى أو أوائل القرن السابع .

وفى بداية الصفحة الثانية من هذا المخطوط بعد بسم الله العبارة التالية :

« الجزء الثانى من الاختيارين اختيار المفضل الضبي وعبد الملك بن قريب المعروف بالأصمعى من أشعار فصحاء العرب فى الجاهلية والإسلام مما روى على مشايخ أهل اللغة الموثوقة روايتهم » .

ونحن من جانبنا لا ننكر ماذكره كرنكو من شرح ديوان طفيل لابن السكيت، فقد اشتهر ابن السكيت (ت ٢٤٤ وقيل ٢٤٦ هـ) بكثرة مصنفاته ، وعرفنا له من الدواوين غير كتب اللغه شرح ديوان عروة بن الورد، وديوان مزرد بن ضرار[1] وذكر صاحب خزانة الأدب أن من كتب بن السكيت التى كانت بين يديه ونقل عنها شرح ديوان طرفة[2] ، وشرح ديوان طفيل الغنوى[3] . وبالرجوع إلى

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ٢٠٧/٢ .
(٢) خزانة الأدب ٥٠٥/١ ، ٣٩٤ .
(٣) المصدر السابق ٦٤٢/٣ ، ٢٤٦/٤ .

خزانة الأدب للبغدادى نجده يذكر ابن السكيت وشرحه لديوان طفيل فى أكثر من موضع ، وينقل عنه فهو يقول فى إعراب بيت طفيل :

وللخيل أيام فمن يصطبر لها ‍‍‍‍‍‍‍‍ ويعرف لها أيامها الخير تعقب

قال يعقوب بن السكيت فى شرح ديوان طفيل أراد تعقبه الخيل الخير، فقدم وأخر[1] ، ويقول « والماضى أعقب بالهمزة وهو متعد لمفعولين كما فهم من ابن السكيت ، والبيت من قصيدة طويلة عدتها ستة وسبعون بيتا قالها فى غارة أغارها على طىء أكثرها فى وصف الخيل وبعده :

وقد كان حيانا عدوين فى الذى ‍‍ خلا فعلى ما كان فى الدهر فارتبى
إلى اليوم لم نحدث إليكم وسيلة ‍‍ ولم تجدوها عندنا فى التنسب
جزيناهم أمس القطيعة إننا ‍‍ متى ما تكن منا الوثيقة نطلب

قال ابن السكيت « قوله فارتبى : يريد فاثبتى أيتها العداوة ، وقوله إلى اليوم الخ يقول :

لم تكن بيننا مودة ، ولا نسب فيستعطف به ، والوثيقة : الطريدة ... »[2]
وحينما تعرض البغدادى لشرح أبيات طفيل التى يقول فيها :

فلما بدا دمخ وأعرض دونه ‍‍ غوارب من رمل تلوح شواكله
وقلن ألا البردى أول مشرب ‍‍ أجل جير إن كانت رواء أسافله
تحاشن واستعجلن كل مواشك ‍‍ بلاومته لم يعد أن شق بازله

قال : وقوله فلما بدا دمخ هو بفتح الدال وسكون الميم ، بعدها خاء معجمة

---

(١) خزانة الأدب ٣/٦٤٢ .
(٢) المصدر السابق ٣/٦٤٢ .

جبل من جبال ضرية طوله فى السماء ميل ، قال ابن السكيت فى شرح ديوان طفيل غواربه : أعاليه ، وشواكله : نواحيه وجنوبه »(١) .

وفى شرح البيت الثانى يقول « قال ابن السكيت : يعنى بالبردى غديراً ينبت البردى »(٢) .

وفى شرح البيت الثالث يقول « ... واللؤمة بضم اللام وسكون الهمزة ، قال ابن السكيت هى متاع الإبل وما يلقى عليها من رحل ومفارش ، وجملة لم يعد دمخ صفة لمواشك ، وأن مصدرية أى لم يتجاوز ، شق نابه يريد أنه كامل القوة ، وشق بفتح الشين المعجمة ، والبازل الناب . قال ابن السكيت : يقال شق نابه وشقا نابه وفطر نابه ، وبزل نابه وأصله الاشتقاق يقال تبزل ما بينهم »(٣).

وبعد هذه النصوص التى نقلناها من خزانة الأدب يتضح لنا أن البغدادى كانت بين يديه نسخة من ديوان طفيل بشرح ابن السكيت ، وأنه كان ينقل منها ويستشهد بروايتها ، ونجد كرنكو يذكر فى بحثه أن هذه النسخة اعتمد عليها تشارلس لايل فى نشره لديوان المفضليات(٤) . وقد ذكر لايل فى مقدمته لديوان المفضليات أن هذا المخطوط يحتوى على ١١٦ قصيدة يوجد منها فى ديوان المفضليات ٢٣ قصيدة ، كما يوجد فى الأصمعيات منها ١٨ مقطوعة ، وينفرد المخطوط بـ ٧٥ قصيدة مما لا يوجد فى المفضليات أو الأصمعيات .

وذكر لايل أن الشروح والتعليقات المصاحبة للقصائد تختلف من قصيدة لأخرى ، إذ أن بعض القصائد تصاحبها شروح ، وبعضها أهمل بدون شروح ، ويبدو أن مادة الشروح قد أخذت من عدة مصادر . كما يخلو المخطوط من أى

---

(١) خزانة الأدب ٢٣٦/٤ .
(٢) المصدر السابق ٢٣٧/٤ .
(٣) المصدر السابق ٢٣٧/٤ .
(٤) مجلة الجمعية الملكية الاسيوية لسنة ١٩٠٧ م .

إشارة إلى من قام بجمع هذه الاختيارات[١] . كما يخلو من الإشارة إلى الذى قام بوضع الشروح المصاحبة للأبيات ، ويشير الأنبارى فى شرحه لديوان المفضليات فى عدة مواضع إلى هذه المختارات دون أن يذكر اسم مصنفها ، بل يشير بكلمة «غيره» ويرى ليال أنه يستطيع أن يقول إن نسخة من هذا المخطوط كانت بين يدى الأنبارى أثناء وضعه لشرحه ، أو ربما يرجع الأنبارى إلى نفس المصادر التى رجع إليها واضع هذا الشرح .

وقد أثار كرنكو فى بحثه المذكور قضية أرى من واجبى أن أناقشها فهو يقول . « وإن المخطوط ليدعنا فى شك من معرفة مؤلف هذه الشروح والتعليقات التى تصاحب الأشعار ، ولكن لما كانت قصيدة طفيل أول ما بدىء به المخطوط فلقد وضع فى الاعتبار أنه ليس هناك شك فى أن ينسب هذا العمل لابن السكيت إذ نعرف خصائص هذا اللغوى من مصنفاته المشهورة مثل كتاب الألفاظ ، وكتاب إصلاح المنطق ، وكتاب القلب والإبدال . وهذا الشرح أقرب إلى عمل ابن السكيت منه إلى الأصمعى أو أبى عمرو الشيبانى » .

والواضح من هذا النص وغيره من نصوص عديدة فى هذا البحث أن كرنكو قد أقنع نفسه أن قصيدة طفيل هذه بشرحها المصاحب لها مأخوذة من شرح ديوان طفيل لابن السكيت الذى ذكره البغدادى فى خزانته ، وحجته فى ذلك أنه عرف خصائص ابن السكيت من خلال مصنفاته وأن هذه الخصائص تكاد تتفق مع الشرح المصاحب لهذه القصيدة . ولكن العجيب فى هذا الأمر أن كرنكو لم يذكر لنا سمة واحدة من السمات التى اتصف بها ابن السكيت فى شروحه ثم وردت فى شرح هذه القصيدة حتى يتسنى لنا على ضوءها أن نسلم معه أن الشرح المصاحب لهذه القصيدة من عمل ابن السكيت . وانى إذ أرفض ما رآه كرنكو من أن هذه القصيدة وشرحها المصاحب لها مأخوذ من ديوان طفيل

---

(١) مقدمة ديوان المفضليات لليال .

بشرح ابن السكيت فإن رفضى يقوم على الأمور التالية :

الأمر الأول : أن عدد أبيات القصيدة يختلف فى نسخة شرح ديوان طفيل لابن السكيت فى الجزء الثانى من الاختيارين ، الذى أخذ عنه كرنكو قصيدة طفيل فقد كان عدد أبيات القصيدة فى نسخة ابن السكيت التى كانت فى حوزة عبد القادر البغدادى ستة وسبعين بيتاً فى حين أن عدد أبيات قصيدة الاختيارين التى نشرها كرنكو وأدعى أنها هى وشرحها من شرح ابن السكيت لديوان طفيل سبعة وسبعون بيتاً . يقول البغدادى عن بيت طفيل نقلا عن شرح ديوان طفيل لابن السكيت :

وللخيل أيام فمن يصطبر لها ويعرف لها أيامها الخير تعقب

« والبيت من قصيدة طويلة عدتها ستة وسبعون بيتاً قالها فى غارة أغارها على طىء أكثرها فى وصف الخيل » .

أما هذا القول الواضح الصريح من البغدادى من أن عدد أبيات قصيدة طفيل فى شرح ابن السكيت ستة وسبعون بيتاً فى الوقت الذى يكون فيه عدد أبيات قصيدة الاختيارين سبعة وسبعين بيتاً نجد كرنكو يحتال للتبرير فيقول : « وقد جمعت قصائد طفيل فى ديوان من عمل ابن السكيت، وأن نسخة من هذا الديوان كانت فى حوزة عبد القادر البغدادى ، وقد احتوت هذه النسخة على القصيدة التى ننشرها هنا والتى ذكرت أن عدتها ستة وسبعون بيتاً . ومن المحتمل أن خطأ فى العدد قد حدث » (١)

أما هذا الاختلاف فى عدد أبيات القصيدة فى النسختين فنجد كرنكو يتلمس الأسباب الواهية ليجبرنا على الأخذ برأيه وحجته فى ذلك أن البغدادى قد أخطأ فى إحصائه لأبيات هذه القصيدة فى نسخة ابن السكيت فعدها ستة وسبعين فى حين

---

(١) خزانة الأدب ٣/٦٤٣ .

أنها على مذهبه هو سبعة وسبعون كى يستقيم له القول . والرأى عندى أن البغدادى لم يخطىء فى الإحصاء . وأن كرنكو ما كان له أن يذهب هذا المذهب وخاصة أنه لم يعثر على شرح ديوان طفيل لابن السكيت حتى يحصى هو ويقارن ، ثم يقطع أن هذه القصيدة بشرحها هى نفس تلك القصيدة الموجودة فى الديوان .

الأمر الثانى : اختلاف شرح الأبيات فى النسختين نسخة ديوان طفيل بشرح ابن السكيت التى ينقل عنها البغدادى ، والشرح المصاحب للقصيـــدة فى نسخة « الجزء الثانى من الإختيارين » يتضح لنا ذلك من النصوص التالية : قال صاحب الخزانه فى شرح بيت طفيل :

وللخيل أيام فمن يصطبر لها ويعرف لها أيامها الخير تعقب

« قال يعقوب بن السكيت فى شرح ديوان طفيل : أراد تعقبه الخيل الخير فقدم وأخر ا هـ [١] » . وكما وهو واضح أن البغدادى قد ختم النص الذى استشهد به من شرح ابن السكيت بالحرفين ا هـ ومعناهما انتهى النص المستشهد به ، وبذلك يكون هذا النص منقولا عن نسخة ابن السكيت . ثم يقول البغدادى فى تتمة شرح هذه البيت : والماضى أعقب بالهمزة وهو متعد لمفعولين كما فهم من ابن السكيت . . وحينما نرجع للشرح المصاحب لهذا البيت فى القصيدة التى نشرها كرنكو بشرحها أخذاً عن « الجزء الثانى من الاختيارين والتى أدعى أنها نفس القصيدة بشرحها الموجودة فى«شرح ديوان طفيل لابن السكيت». نجد الاختلاف بين الشرحين واضحاً إذ نجد شارح قصيدة الاختيارين يقول فى شرحه لهذا البيت قوله وللخيل أيام فمن يصطبر لها أى يصطبر للأيام ، وقوله أيامها الخير يقول : أيامها الصالحة ، ويقال معناه تعقب الخير» [٢] .. وكذلك الحال فى بقية الأبيات التى وردت فى الخزانة وكانت موجودة ضمن أول قصيدة لطفيل والتى جاءت

---

(١) خزانة الأدب ٣/٦٤٢ .

(٢) مجلة الجمعية الملكية الاسيوية لسنة ١٩٠٧ ص ٨٦٤ .

فى كتاب الإختيارين نقول ذلك على الرغم مما يحاوله كرنكو من تلمس أسباب الاتفاق بين شرح الأبيات .

والخلاصة أن هذه القصيدة التى نشرها كرنكو بشرحها المصاحب لأبياتها ليست مأخوذة بشرحها من ديوان طفيل بشرح ابن السكيت للسببين اللذين ذكرناهما آنفا ، بل هى لشارح نجهل اسمه حتى الآن ، كما جهلنا اسم جامع الاختيارين . ولكن الأمر الذى لاشك فيه أن هذا الشارح توفرت له أصول متعددة من ديوان طفيل وما صاحبه من شروح جعلته يشير إلى الروايات المختلفة للأبيات ، ويتوسع فى الشرح ، ويذكر أسماء من أخذ عن رواياتهم . وهذا ماسوف نوضحه فى الصفحات التالية ، على أننا قبل أن نأخذ فى التعليل فى شرح هذه القصيدة يحسن أن نذكر أن هذا الكتاب الذى أخذ منه كرنكو قصيدة طفيل والموسوم « الجزء الثانى من الإختيارين » قد نشر فى جامعة الدكن بالهند سنة ١٩٣٨ باسم « نخبة من كتاب الاختيارين ، اختيار المفضل الضبى ، وعبد الملك بن قريب الأصمعى ، ومن أشعار فصحاء العرب فى الجاهلية والإسلام مما روى عن مشايخ أهل اللغة الموثوق بروايتهم » بتحقيق وترجمة الدكتور السيد معظم حسين وطبع بالمطبعة اللطيفية فى دلهى ١٣٥٦ هـ — ١٩٧٨ م [١] . وقد رجعت إلى هذا الكتاب فألفيت فيه قصيدة طفيل فى مقدمته ، وما صاحبها من شروح ، وهى نفس القصيدة التى نشرها كرنكو بشرحها سنة ١٩٠٧ م ، ولكن بتحقيق يختلف فى بعض المواضع عن تحقيق كرنكو . ولم يتعرض الدكتور المحقق للشارح أو البحث عنه . ولكن الأستاذ عبد العزيز الميمنى الذى أهدى نسخة من هذا الكتاب للأستاذ محمود محمد شاكر كتب فى أول صفحة من هذا الكتاب وبخط يده فى ١١/١٠/١٩٦٠م إن هذا الشرح من صنعة على بن سليمان الأخفش أبى الحسن . ووقع بعد ذلك باسم العاجز عبد العزيز الميمنى .

---

(١) بروكلمان « تاريخ الأدب العربى » ٢/٢٠١ .

ومما يؤيد ما ذهب إليه الأستاذ الميمنى من أن شرح قصيدة طفيل الموجودة فى نخبة الإختيارين عن عمل الأخفش ما عثرنا عليه فى فهرسة ابن خير الأشبيلى (ت ٥٧٥ هـ) مما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وأنواع المعارف، من أن جامع هذه الاختيارات ومفسرها هو الأخفش [١]

وبالنظر فى شرح هذه القصيدة المأخوذة من الاختيارين يمكننا أن نسجل الملاحظات التالية :

أولا : وفرة المصادر التى أخذ عنها الأخفش شرحه فهو يشير إلى الأصمعى فى مواضع متعددة فيذكر فى شرحه للبيت الثامن من القصيدة العبارة التالية : « وقال الأصمعى مرة أخرى »[٢] كما ينقل عنه فى البيت الثانى والعشرين بعبارة « وقال الأصمعى »[٣] فى موضعين من شرحه للبيت . كما ينقل عنه فى شرح البيت الرابع والعشرين فى موضعين أيضاً[٤] . كذلك ينقل عنه فى شرح البيت السادس والثلاثين والخامس والأربعين [٥] وينص على ذلك .

كما نجد إشارات فى مواضع متعددة لأبى عبيدة، فقد ذكر فى الشرح فى أحد عشر موضعاً: فى البيت التاسع عشر[٦]، والثانى والعشرين فى موضعين،[٧] والثالث والعشرين، والسادس والعشرين، والخامس والثلاثين، والأربعين، والثامن والأربعين، والثالث والخمسين، والخامس والخمسين، والسابع والخمسين . ولقد تردد ذكره بصفة خاصة فى الموضوعات ذات الصبغة التاريخية . ويبدو أنه كان

---

(١) فهرست ابن خير الأشبيلى ٢٩٠ .

(٢) مجلة الجمعية الملكية الاسيوية لسنة ١٩٠٧ ص ٨٣٢ .

(٣) المصدر السابق ٨٣٩ .

(٤) المصدر السابق ٨٤٥ .

(٥) انظر المصدر السابق فى شرح البيتين المذكورين .

(٦) مجلة الجمعية الملكية الاسيوية سنة ١٩٠٧/٨٣٨ .

(٧) المصدر السابق ٨٣٩ .

مبرزاً فى هذه الناحية ويفهم من مزهر السيوطى[١] أنه صنف كتاباً فى أيام العرب ، يذكر بروكلمان أنه كان المصدر الأساسى للأغانى والكامل لابن الأثير فى أخبار هذه الأيام[٢]. ويأسف كرنكو لعدم ورود الكثير عنه فى هذه الناحية . ولو تم هذا لكنا حصلنا على معلومات قيمة لتفوقه فى الناحية التاريخية ، وعلو شأنه فى هذا المجال عن الأصمعى الذى كان ناقصاً فى هذا الجانب [٣] .

كما نجد نقلا عن ابن السكيت فى شرح البيتين السابع والخمسين ، والثامن والخمسين ، ففى الأول يذكر عبارة « قال أبو يوسف قال ابن الكلبي »، وفى الثانى يذكر « قال أبو يوسف وسمعت أبا عمرو الشيبانى يقول » . وسبق أن أثبتنا وجود نسخة من ديوان طفيل برواية أبى عمرو الشيبانى ، ونجد هنا فى هذا الشرح تأييداً لما سبق أن ذكرناه ، إذ يستشهد الأخفش بأبى عمرو الشيبانى فى موضعين الموضع الأول فى شرحه للبيت الأربعين ، والموضع الثانى فى شرحه للبيت الخامس والأربعين .

وما سبق أن ذكرناه يعكس لنا تعدد المصادر التى يرجع إليها الأخفش فى شرحه للأبيات ، فجعلته يأتى على هذه الصورة المطولة المسهبة .

ثانياً : كثرة المصادر التى يرجع إليها الأخفش ، وجعلته يثبت الروايات المختلفة للأبيات ، ففى شرحه لبيت طفيل :

كأن على أعرافه ولجامه   سنا ضرم من عرفج متلهب

قال : « ويروى تخال بكنفيه إذا اشتد ملهباً سنى ضرم » .

وخلال شرحه للبيت الثلاثين وهو :

---

(١) المزهر ، الطبعة الأولى ٨٤ .

(٢) بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ٢/١٤٠ .

(٣) مجلة الجمعية الملكية الاسيوية لسنة ١٩٠٧ .

وآخت إلى أجوازها وتقلقلت   قلائد فى أعناقها لم تقضب

قال « ويروى : وتمت إلى أجوازها ».

وفى شرحه للبيت التاسع والثلاثين :

إذا انصرفت من عنة بعد عنة   وجرس على آثارها كالمؤلب

قال : « ويروى من غمة بعد غمة » .

وفى شرحه للبيت الخمسين وهو قول طفيل :

فألوت بغاياهم بنا وتباشرت   إلى عُرْض جيش غير أن لم يكتب

قال : « ويروى : إلى عَرْض جيش » .

وعندما ذكر بيت طفيل :

فقال بصير يستبين رعالهـــا   هم والإله من تخافين فاذهبي

قال يروى :

وقال بصير قد أبان رعالها   فهي ورضى من تخافين فاذهبي

وقال عن بيت طفيل :

لأيامها قيدت وأيامها غزت   بغنم ولم تؤخذ بأرض فتغصب

« ويروى : ولم توخذ أى مهلة » .

ونص على رواية أبى عبيدة بعد قول طفيل :

تصانع أيديها السريح كأنها   كلاب جميع غرة الصيف مهرب

فقال : « رواها أبو عبيدة : كأنها كلاب يطأن فى هراس مصيب » .

ولكثرة ما استشهد الأخفش بأبي عبيدة وإثباته لرواياته ، يمكننا افتراض أن أبا عبيدة وربما كان قد روى ديوان طفيل ، ولكن روايته هذه لم تصل إلينا ، كما لم تصل إلينا رواية الشيبانى وابن السكيت .

ثالثاً : الإطالة والاستطراد فى شرح الأبيات ، فهو لا يقنع بمجرد شرح المفردات اللغوية ، وإيضاح معانيها ، بل يستطرد ويطنب على نحو ما نرى فى شرحه لبيت طفيل :

وفينا رباط الخيل كل مطهم   رجيل كسرحان الغضا المتأوب

حيث يقول : « يقال فى آل فلان رباط أى أصل خيل مرتبطة بنجد ، ويقال هذا من رباط آل فلان أى من أصل خيلهم ، والمطهم . الذى يحسن كل شيء منه على حدته ، والرجيل الشديد الحافر قال الغنوى وذكر امرأة :

أنى سريت وكنت غير رجيلة   شهدت عليك بما فعلت شهود

والسرحان . الذئب وجمعه سراحين ، وقال ذئب الغضا أخبث من غيره ، لأنه يستخفى بالشجر ، ويقال أخبث الذئاب ذئب الغضا ، وأخبث الأفاعى أفاعى الجدب ، وأخبث الحيات حيات الحماط ، وأسرع الظباء تيس الحلب ، وأسرع الأرانب أرانب الخلة ، لأنها تطويها وتضمرها ، والحمس يفتقها ، وأشد الناس الأعجف الضخم ، وأجمل النساء الضخمة الأسيلة ، وأقبحهن الجهمة القفرة ، وهى القليلة اللحم ، وأغلظ المواطىء الحصى على الصفا . والمتأوب : الذى يأتى أهله ليلا ، فأراد كسرحان يتأوب فذاك أشد لعدوه ومضيه »[1] .

---

(١) مجلة الجمعية الملكية الاسيوية فى شرح البيت .

ويدخل فى هذا الاستطراد أن الشارح عمد إلى شرح الشواهد التى استشهد بها فى أثناء شرحه ففى شرحه لقول طفيل فى البيت الحادى والعشرين من هذه القصيدة :

جنبنا من الأعراف أعرف غمرة   وأعراف لبن الخيل يا بعد مجنب

قال : « لبن : جبل ويقال هذه لبن كما ترى غير معروفة ، وأنشد للراعى :

« كجندل لبن تطرد الصلالا » أى تتبع مواقع المطر ، والصلال : أمطار متفرقة »[١] .

والأمثلة متعـــددة على الاستطراد والاطناب وإثبات الوجوه المختلفة ، والاستقصاء فى تفسير معانى الكلمات ، وكلها شاهدة على استيعاب الأخفش لمصادر من سبقوه ممن رووا ديوان طفيل وشرحوه .

---

(١) مجلة الجمعية الملكية الاسيوية فى شرح البيت الحادى والعشرين .

٣ — تاريخ حياة الديوان

لقد تتبعت من قبل حياة شعر طفيل منذ العصر الجاهلي حتى منتصف القرن الثانى ، عصر ظهور المدارس المختلفة ، وذكرت أن شعره روته كلتا المدرستين ، فروى شعره من المدرسة البصرية الأصمعى ، ثم السجستانى ، فرواه نقلا عن أستاذه الأصمعى . وربما كانت هناك رواية بصرية أخرى لأبى عبيدة . أما المدرسة الكوفية فروى شعره منها أبو عمرو الشيبانى ، ثم أثبتنا وجود نسخه أخرى كوفيه برواية وشرح ابن السكيت ، وكانت نسخة من هذا الديوان فى حوذة عبد القادر البغدادى وقد نقل منها فى خزانته ، ونص على وجودها بين يديه . وبذلك نستطيع أن نقول باطمئنان أنه كان لديوان طفيل أصـــل مسجل فى القرن الثالث .

ويبدو أن نسخاً من هذا الديوان بروايات مختلفه قد تكاثرت لدى العلماء والأدباء فى هـذا القرن . ومن هؤلاء أبو تمام الشاعر (ت ٢٢٨ هـ) وذلك فى حماسته التى انتقاها من دواوين الشعراء ومجامعهم ، فهو ينقل فيها أبياتاً من ديوان طفيل . ومما لاشك فيه أن أبا تمام قد وجد هذا الديوان أمامه فى همذان فى شرقى الدولة الإسلامية فى خزانة كتب آل سلمة ، كما وجد غيره من دواوين الشعراء التى طالعها وألف منها حماسته .

وحينما أقول إن أبا تمام قـــد نظر فى ديوان طفيل ، كما نظر فى غيره من دواوين الشعراء وأخذ منها ، لا أعتسف الطريق إلى هـذه النتيجة اعتسافاً بل أفهم ما أقول من نص المرزوقى فى شرحه لديوان الحماسة إذ ذكر ذلك فى مقدمته فقال : « وهذا الرجل لم يعمد من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الإغفال ، ولا من الشعر إلى المتردد فى الأفواه المجيب لكل داع ، فكان أمره أقرب ، بل اعتسف فى دواوين الشعراء جاهليهم ومخضرميهم وإسلاميهم ومولدهم ، واختطف

منها الأرواح دون الأشباح ، واخترف الأثمار دون الأكمام ، وجمع ما يوافق نظامه ويخالفه ، لأن ضروب الاختيار لم تخف عليه ، وطرق الإحسان والاستحسان لم تستتر عنه ، حتى أنك تراه ينتهى إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه ، فيجبر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها فى نقده . وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم مقابل مافى اختياره بها »[1] .

وفى نفس هذا القرن نجد الجاحظ (ت ٢٥٥ ﻫ) يأخذ من ديوان طفيل فى كتابيه الحيوان ، والبيان والتبيين . والجاحظ كما نعلم معروف بكثرة جمعه للكتب وشغفه بها ونقله منها فى كتبه . وقد استشهد بطفيل فى أربعة عشر موضعاً فى كتابه الحيوان ، فكان جملة ما ذكره من أبيات طفيل سبعة عشر بيتاً . والأمر الذى لا شك فيه عندنا أن النسخة التى كانت بين يدى الجاحظ من ديوان طفيل لم تكن بالرواية البصرية ، بل كانت بالرواية الكوفية ، لاشتمالها على تفسيرات ومقدمات تاريخية لانجدها فى نسخة البصرة التى بين أيدينا ، كما اشتملت هذه النسخة على أبيات لم ترد فى النسخة البصرية . فمثلا القصيدة الخامسة فى الديوان المطبوع وهو بالرواية البصرية رويت بدون مقـــدمة تاريخية تبين مناسبتها ، وهى التى تبدأ بقول طفيل[2] :

هل حبل شماء قبل البين موصول أم ليس للصرم عن شماء معدول

وهى التى يقول فيها طفيل عن ابله[3] :

ترعى منابت وسمى أطاع له بالجزع حيث عصى أصحابه الفيل

فى الوقت الذى نجد فيه الجاحظ يستشهد بهذا البيت الأخير لطفيل موثقاً به الأشعار التى رواها لأبى قيس بن الأسلت فى قصة الفيل وذلك بعد أن

(١) المرزوقى (شرح ديوان الحماسة) ١/٢٥٥ .
(٢) الديوان ٥٥ .
(٣) الديوان ٥٦ .

سرد مناسبته التاريخية ، ولاجدال فى أنه أخذها من النسخة التى كانت بين يديه . نسمعه يقول : ويدل على صحة هـــذا الخبر قول طفيل الغنوى وهو جاهلى : وهذه الأشعار صحيحة معروفة لايرتاب بها أحد من الرواة ، وإنما قال ذلك طفيل لأن غنياً كانت تنزل تهامة فأخرجتها كنانة فيمن أخرجت فهو قوله :

ترعى مذانب وسمى أطاع له   بالجوع حيث عصى أصحابه الفيل[١]

وواضح أيضاً اختلاف رواية بعض كلمات البيتين .

ومن أنصع الأدلة على اختلاف هذه النسخة التى كانت عند الجاحظ عن النسخة التى نملكها الآن أنها اشتملت على أبيات لم ترد فيها ، فمن ذلك قول طفيل مما أورده الجاحظ[٢] :

وعملى نصي بالثأن كأنها   ثعالب موتى جلدها قد تسلعا

وقبل أن نختم هذا القرن الثالث نجد أبا العباس المبرد (ت ٢٨٦ هـ) يأخذ من شرح ديوان طفيل ، ويغلب شرح الديوان على ما عداه من شروح ، نقرأه فى التشبيه يأتى بيت طفيل[٣] :

تقريبه المرطى والجوز معتدل   كأنه سبـــد بالمـاء مغسول

ثم يشرحه كما يلى : « السبد : طائر بعينه . وقد قالوا : الخصفة التى توضع عند البئر ، وهو بالطائر أشبه . وإنما أراد العرق فى هذا الوقت . وخير الخيل مالم يسرع ولم يبطء ، فإذا جاء فى وقته شمله[٤] » .

---

(١) الحيوان ١٩٧/٧ .
(٢) المصدر السابق ٢٠٧/٦ .
(٣) الكامل ٨٧٨/٣ .
(٤) المصدر السابق ٧٧٨/٣ .

وإذا عارضنا ما جاء فى هذا الشرح من أخذ المبرد بشرح السبد بطائر وليس خصفة ، توضع عند البئر ، وجدناه يسير جنباً إلى جنب مع شرح ديوان طفيل ، ولعل من أبرز الأدلة على أخذه من ديوان طفيل قوله : والشاهد على أنه يريد أعلاه قول طفيل :

سماوته أسمـــال برد محبر وسائره من أتحمى مشرعب

ويروى : معصب ، وإنما سماوته من قوله سماء فاعلم[١] » .

كذلك قوله : « وقال طفيل الغنوى يصف كيف تزجر الخيـــل ، فجمعه فى بيت واحد :

وقيل اقدمى واقدم وأخ وأخرى وها وهلا واصبر وقادعها هي[٢]

وحينما أرجح وجود نسخة من ديوان طفيل عند المبرد ، لا أكون مغالياً فيما أذهب إليه ، فبجانب ما أثبتناه من أخذ من شروح وأبيات فهناك رابطة أخرى تربط بين المبرد وراوى الديوان ، وهى رابطة التلمذة فقد كان المبرد تلميذاً لأبى حاتم السجستانى ، كما كان تلميذاً لأبى عثمان المازنى[٣] .

وسبق أن ذكرنا أنه كانت عند أبى الفرج الاصفهانى (ت ٣٥٦ ﻫ) فى القرن الرابع نسخة من ديوان طفيل ، ورجحنا أنها برواية أبى عمرو الشيبانى ، بدليل ما نقله عنها فى موضعين ذكرناهما آنفاً[٤] .

وفى القرن الرابع نجد أن أبا على القالى يأخذ من ديوان طفيل فى ستة عشر موضعاً فى كتابه الأمالى . وقد بلغ مجموع ما أورده من أبيات لطفيل اثنين وعشرين بيتاً قرأ منها ثلاثة عشر بيتاً على أبى بكر بن دريد (ت ٣٢١ ﻫ) . ومن

(١) الكامل ١/١٣٠ .
(٢) المصدر السابق /٣٣٦ .
(٣) نزهة الألباء ٢٧٩ .
(٤) الأغانى ١٥/٣٥١ ، ٣٥٤ .

المفيد أن نعرف أن أبابكر بن دريد هذا كان تلميذاً لأبي حاتم السجستاني راوي ديوان طفيل . والجدير بالذكر أن أبا علي القـــالي يذكر دائماً عبارة « وقرأت على أبي بكر بن دريد لطفيل الغنوي » ولعل هذه العبارة تعكس لنا أن شعر طفيل كان مدوناً بين يدي صاحب الأمالي ثم قرأه على أستـــاذه ابن دريد . وحينما عارضنا الأبيات التي أوردها القالي وماصاحبها من شرح للسجستاني على الديوان وجدناها تتفق إتفاقاً تاماً في شرح المفردات اللغوية . وكذلك في المعنى الإجمالي للأبيات ، ولكن القالي يسهب في بعض الأحيان ، من ذلك مثلا أنه يذكر :

ويقـــال اغتفت الخيل ، واغتثت إذا أصابت شيئاً من الربيع ، وهي الغفة والغثة قال طفيل الغنوي

وكنا إذا ما اغتفت الخيل غفة تجرد طلاب الترات مطلب[١]

ومن ذلك أنه يورد شرح البيت :

كأن على أعطافه ثوب مائح وإن يلق كلب بين لحييه يذهب

كما يلي : « أعطافه : جوانبه ، وإنما له عطفان . والمائح : الذي ينزل البئر فيملأ الدلو ، فكلما جذب دلواً انصب عليه من مائها فابتل ، فشبه الفرس وقد ابتل من العرق بثوب المائح ، ومثله :

أبيت كأني آخر ليـــلة من الرحضاء آخر الليل مائح

وقوله وإن يلق كلب بين لحييه ، أراد أنه واسع الشدقين »[٢] .

ثم يورد شرح الأبيات :

---

(١) الأمالي ٢/٣٤ .
(٢) الأمالي ٢/٣٥ ، وراجع الديوان ٢٧ .

وأصفر مشهوم الفؤاد كأنه غداة الندى بالزعفران مطيب
تفلت عليـــه تفلة ومسحته بثوبي حتى جلده متقوب
يراقب إيحاء الرقيب كأنه لما وترونى أول اليوم مغضب

كما يلى : « أصفر يعنى قدحاً ، مشهوم الفؤاد أى كأن فؤاده مذعور من سرعة خروجه ، والشهم : الحديد ، الفؤاد : الذكى . وقـــوله : بالزعفران :أراد قد أصابه الندى فأصفر كأنه مطيب بالزعفران . وقوله . تفلت عليه ، يقول : كأن ضرب به فتترب ، فتفلت عليه ومسحته بثوبى ليتملس . فيكون أسرع لخروجه. ومتقوب : متقشر ، وقوابته . قشره . وقوله : يراقب إيحاء الرقيب . يقول كأن هذا القدح بصير بما يراد منه ، فهو يلامح الرقيب فإذا قيل للمفض افض ، فكأنه يومىء إليه إيماء ، وقوله : لما وترونى : كأنه مغضب لقهرهم إياى فى أول النهار فهو يثأر »(١)

ويورد شرح الأبيات .

عوازب لم تسمع نبوح مقـامة ولم تر ناراً تم حول مجرم
سوى نار بيض أوغزال صريمة أغن من الخنس المناخر توأم
إذا ساعياها أنتنجاه ترامیــــا به خلسة أو شهوة المتقرم

كما يلى : « عوازب . بعيدات عن البيوت . والنبوح : أصوات الناس . والمقامة حيث يقيم الناس ، وتم : إتمام ، والمجرم المكمل ، يقول : هـــذه الإبل عوازب لعز أربابها ترعى حيث شاءت ، لا تمنع ولاتخاف ، فلم تسمع أصوات أهل مقامة ، ولم تر ناراً سنة تامة سوى بيض نعام يصيبه راعيها فيشويه ، أو غزال يصيده والصريمة : القطعة من الرمل . وأغن : فيه غنة ، والأخنس:

(١) الأمالى ٢/ ١٨ ، وراجع شرح الديوان ٥٠ .

القصير الأنف، وكل ظبي أخنس . والتوأم الذى ولد مع غيره ، وذلك أشد لضئولته، وصغر جسمه ، وقيل للشعبي : مالك ضئيلا ؟ قال . لأنى زوحمت فى الرحم . وقيل لبعضهم . مالك ضئيلا ؟ قال . صاف بى أبى، أى ولدت وهو كبير السن . وإذا اصفر ما يشوى صفرت النار . وقوله . ترامياً أى بالغزال وترى هذا إلى هذا ، وهـذا إلى هذا ، خلسة أى اختلاساً شبه العاشقين ، أو يفعلان ذلك قرماً إلى اللحم وذلك لاستغنائهما عنه باللبن[١] »

ثم يورد شرح البيت التالى : « ويستحب من الفرس طول الذنب فى كثرة شعر ، ولذلك قال طفيل الغنوى :

وأذنابها وحف كأن ذيولها بجر أشاء من سميحة مرطب

سميحة كجهينة بئر بالمدينة أو بقديد أو اسم موضع[٢] »

على أننا نجده فى أماليه يورد بيتاً لطفيـــل قرأه على أبى بـكر بن دريد وهو قوله

فلو كنت سيفاً كان أثرك جعرة وكنت ددانا لا يغيرك الصقل

ثم يذكر شرحه كما يلى . « الجعرة : أثر الجعار ، والجعار : حبل يوثق به حقو الساقى إلى عمود القامة ، فإن انقطع الرشاء لم يهو المائح فى البئر ، فيقول كنت سيفاً كليلا لا يؤثر إلا كأثر الجعار ، والددان والـكهام والـكهم : الـكليل[٣] »

فإذا ماعدنا نفتش عن هذا البيت فى ديوانه المطبوع لم نجده ، وتفسير ذلك اما انه كانت عند القالى نسخة أخرى بصرية قرأها على أبى بكر بن دريد ، وأما

---

(١) الأمالى ٨١/٢٢ ، وراجع شرح الديوان ٧٨ .
(٢) المصدر السابق ٨٣/٢ ، وراجع شرح الديوان ٢٤ .
(٣) المصدر السابق ٤١/٢ .

أن تكون النسخة التى بين أيدينا قد أصابتها يد الزمن بالحذف والإسقاط ، فسقط منها هذا البيت ، كما سقط غيره من الأبيات وربما المقطوعات والقصائد .

ثم نجد أبا على القالى فى هـــذا القرن يحمل نسخة من ديوان طفيل إلى الأندلس ، فقد روى ابن خير الأشبيلى فى الفهرست عن أبى على القالى تسميته الدواوين التى حملها معه إلى الأندلس سنة ٣٣٠ هـ « . . . وشعر طفيل ، تام فى جزء قرأته على ابن دريد ، وجزء من شعر أبى تمام حبيب بن أوس[١] » .

وفى القرن الرابع نفسه نجد نسخة من ديوان طفيل عنـــد ابن خالويه « ت ٣٧٠هـ » يأخذ منها فى كتابه « ليس فى كلام العرب » فى أكثر من موضع[٢] . ولكن يبدو أن شعر طفيل قد اختلط بشعر الطرماح لطول ملازمة المجموعتين فى ديوان واحد فنجد ابن خالويه يخلط بين شعر طفيل وشعر الطرماح فيسند للطرماح ما هو من أشعار طفيل ، إذ يروى الأبيات الآتية للطرماح وهى لطفيل[٣] :

أشاقتك أظعان بجفن[٤] يثيم	نعم بكراً مثل الفسيل المكمم
ألم تر ما أبصرت أم كنت ساهماً	فتشجى بشجو المستهام المتيم
فقال ألا لا لم تر العين شبحة[٥]	وما شمت إلا لمح خلب مغيم
غدو فتأملت الحدوج فشاقنى	وقد رفعوا فى السير ابراق معصم
فقلت [illegible] وقد كدت أزدهى	من الشوق فى اثر الخليط الميمم

ولا يقف الأمر عند نسبتها إلى الطرماح فى حين أنها لطفيل ، بل يتعداه إلى التصرف فى ترتيب الأبيات فقدم وأخر حسبما تراءى له .

---

(١) الفهرست ص ٣٩٧ .
(٢) كتاب ليس فى كلام العرب ٧٤ ، ٧٥ .
(٣) المصدر السابق ٧٤ ، والأبيات فى الديوان ٧٢ ، ٧٣ باختلاف فى الرواية .
(٤) فى كتاب ليس ، بجفو ، والتصويب من الديوان ٦٧ .
(٥) فى الأصل بشحة والتصويب من الديوان ص ٤٦ .

وفى القرن الخامس نجد أكثر من نسخة عند الوزير أبى عبيد البكرى (ت ٤٨٧هـ) بالأندلس، فعنده النسخة الكوفية برواية أبى عمرو الشيبانى، وهو ينقل عنها وينص على راويها وقد استفاد من هاتين النسختين فى كتبه «معجم ما استعجم»، و «التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه»، و «سمط اللآلى».

وتمثل الرواية البصرية قاسماً مشتركا اعظم بين كتبه الثلاثة وهو فى كتابه «معجم ما استعجم» ينص عليها كما يلى: «أيهب: بفتح أوله، وبالهاء والباء المعجمة بواحدة: موضع فى ديار غنى، مما يلى اليمامة، قال طفيل الغنوى:

رأى مجتمع [illegible] من عالج ... رعالا مطت من أهل شرح وأيهب

و «شرح» هنالك أيضاً، هكذا ذكر أبو حاتم عن الأصمعى»[1].

وبالرجوع إلى رواية أبى حاتم عن الأصمعى التى بين أيدينا نجد أبا حاتم رواها «سرح»، أيضاً كما ذكر البكرى. وهذا دليل ناصع على وجود هذه النسخة بين يدى البكرى. وربما كانت هذه النسخة موجودة منذ عصر القالى، فقد ذكرنا آنفاً أن القالى قرأ شعر طفيل على ابن دريد أستاذه، وابن دريد أخذ شعر طفيل عن أبى حاتم عن الأصمعى، فسلسلة الرواية البصرية متصلة بدأت فى المشرق واستقرت فى المغرب فى الأندلس. ومما يؤيد ما نذهب إليه ما رواه البكرى «شه [illegible]» بفتح أوله وثانيه، بما [illegible] معجمة بواحدة. هكذا أثبتت الرواية عن [illegible] الطوسى، ورواه [illegible] بكسر الر [illegible] الغنوى.

أمن رسوم أعلى الجزع [illegible]

[illegible] يأخذ [illegible] الدارجين [illegible] وما صار [illegible] القالى بقوله:

---

(١) معجم ما استعجم ١/٢٠٧.

(... فالأولى على هذا أن يكون الأصمعى صاحب تلك المقـــالة منكراً على أبى عبيدة روايته ، وإنما أنـكر أن يكون كلابى يمدح غنوياً ، لأن فزارة كانت قد أوقعت ببنى أبى بكر من كلاب وجيرانهم من محارب وقعة عظيمة ، ثم أدركتهم غنى فاستنقذتهم ففى ذلك يقول طفيل الغنوى [١] :

وحى أبى بـكر تداركـكن بعدما أذاعت بسرب الحى عنقاء مغرب

تداركن : يعنى خيلهم . وأذاعت : فرقت ، فلما قتلت طىء قيس الندامى الغنوى ، وقتلت عبس هريم بن سنان الغنوى ، استغاثت غنى ببنى أبى بـكر وبنى محارب ليكافئوهم بيدهم عندهم ، فقعدوا عندهم ، فلم يزالوا بعد ذلك متدابرين ، وأدرك غنى بثأر قيس الندامى من طىء وقال فى ذلك طفيل :

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر من الغيظ فى أجوافنا والتحوب

ولعل من أظهر الأدلة على نقله كثيراً من النصوص النثرية التى وردت فى الديوان شرحا لشعر طفيل إيراده شرح الأبيات :

وعوج كأحناء السراء مطت بها مطارد تهديهـــا أسنة قعضب
إذا قيل نهنها وقد جد جدها ترامت كخزروف الوليد المثقب
قبائل من فرعى غنى تواهقت بها الخيل لاعزل ولامتأشب

كما يلى : قوله . وعوج : يريد أن فى يديها تحنيبا ، وفى أرجلها تجنيبا ، كما يحنى السراء ، وهو من عيدان القسى . ويقال ، عوج : ضمر مهازيل من الغزو ، مطت بها . أى مدت بها أعناق كالمطارد أى رماح . تهديها : أى تقدمها ، أسنة قعضب : وهو رجل من بنى قشير كان يعمل الأسنة بأضاخ ، جاهلى : ونهنها : أى كفها ، يقول : إذا ذهب بكفها ترامت : أى تتابعت : والخزروف : الخرارة

---

(١) انظر الديوان ص ٤٢ ، وقارن الشرح المصاحب للبيت تجده متفقاً .

وقوله : ولا متأشب : أى لا خلط فيهم من غيرهم ، يقال أشابات من الناس وأوباش ، وأوشاب : أى أخلاط [١] » .

فإذا نظرنا فى كتابه « سمط اللآلى » ألفينـاه ينقل عن النسخة البصرية الأبيات التالية :

مجاورة عبد المدان ومن يكن مجاورهم بالقهر لم يتطلع
أناس إذا ما أنكر الكلب أهله حموا جارهم من كل شنعاء مضلع
وإن شلت الأحياء بات ثويهم على خير حال آمنا لم يفزع

« ثم يورد شرح مفرداتها بما يتفق والشرح الموجود فى الديوان ، كما يلى : القهر : جبل فى بلاد بنى الحارث بن كعب . ولم يتطلع : أى لم يستطع ظلمه ، ولم تطلعه أمور يكرهها . وإن شلت أى طردت إبل أحياء ، بات جارهم آمنا من أن تطرد إبله [٢] » .

وعند ما تحدثنا عن الرواية الكوفية ذكرنا أن فى نسخة من ديوان طفيل برواية أبى عمرو الشيبانى كانت عند أبى عبيد البكرى ، وأثبتنا ذلك من مادة فى كتاب « معجم ما استعجم » إذ أثبت ذلك فقال : « روى فى شعر طفيل كتلة بالتاء المعجمة باثنتين ، قال :

وأنت ابن أخت الصدق يوم بيوتنا بكتلة إذ سارت إلينا القبائل

قال أبو عمرو الشيبانى : كتلة : هضبة اجتمعت عندها غنى ، وخرج إليهم عوف بن الأحوص فى بنى كلاب وكعب ، فحجز بينهم يزيد بن الصعق وخاف

---

(١) التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه ٩٦ .
(٢) سمط اللآلىء ١/٦١٠ ، وراجع شرح الأبيات فى الديوان ٥٣ .

تفانى الناس » . [١] على أن هذا الخبر وما صاحبه من شعر نعـــدمه فى الرواية البصرية التى بين أيدينا .

فإذا تصفحنا القرن الخامس طالعتنا نسخة من ديوان طفيل فى حوزة ابن السيد البطليوسى يرجع إليهـا كلما أراد التحقق من نسبة شعر لطفيل ، فبعد أن أورد البيت التالى فى كتاب الاقتضاب :

وأحمر كالديباج أما سمـــاؤه فريا وأمـا أرضـــه فمحول

قال : « هذا البيت ينسب إلى طفيل الغنوى ، ولم أجده فى ديوان شعره »[٢].

ثم نجده ينسخ عن ديوان طفيل شرح البيت :

كأن على أعطـــافه ثوب مائح وإن يلق كلب بين لحييه يذهب

كما يلى : « وقوله كأن على أعطافه ثوب مائح يريد جوانبه ، وإنما له عطفان .. والمائح : الذى ينزل فى البئر إذا قل ماؤها فيملأ الدلو ، وفعله ماح يموح ميحاً ، فإذا جذب المائح الدلو ليخرجها سقط ما يتطاير من مائها فابتل ثوبه فأراد طفيل أن الفرس عرق ، فكأنه لبس ثوب مائح ، واللحيان : عظما الشدقين .

فيقول لو أتى فى فيه كلب لغاب لسعته وعظمه (٣) » .

ثم قال ابن السيد : وقبل هذا البيت :

كأن رعال الخيل لما تبادرت بوادى جراد الرهـة المتأوب

يبادرن بالفرسـان كل ثنيـــة جنوحاً كفراط القطا المتسرب

وعارضتها رهواً على متتـــابع شديد القصيرى خارجى محنب

---

(١) معجم ما استعجم ٤/١١١٦ .

(٢) كتاب الاقتضاب ٤٣٥ .

(٣) المصدر السابق ٢٢٧ .

كما نجده ينسخ شرحها من الديوان على النحو التالى : « الرعال : الجماعات واحدتها رعلة ، وبوادى الجراد : أوائلها وسوابقها وقيل المجتمعة ، والفراط : المتقدمة ، المتسرب : الذى يمضى سربة سربة أى قطعة قطعة ، والرهو : السير السهل ، والمتتابع : الذى تتابع خلقه فى الجودة ، أى اتسق واطرد فليس فيه عضو يستقبح ويخالف غيره ، والقصيرى : الضلع التى فى آخر الأضلاع ، وأراد ها هنا الخاصرة كلها ، والخارجى : الذى خرج بنفسه وشرف بها »[1]

فإذا غادرنا الأندلس واتجهنا إلى الكرخ فى بغداد وذلك فى القرن السادس الهجرى أيضاً ، وجدنا ابن الشجرى أبا السعادات هبة الله بن على (ت ٥٤٢هـ) يؤلف مجموعته فى الحماسة ويضمنها فى باب الحماسة أبياتاً من ديوان طفيل عدتها فى هذا الباب من قصيدة واحدة سبعة أبيات وهى كما أوردها[2] :

إنى وإن قل مالى لن[3] يفارقنى   مثل النعامة فى أرساغها[4] طول
تقريبا المرطى والجوز معتـــدل   كأنها سبـــد بالماء مبلول[5]
أو قارح فى الغرابيات ذو نسب   وفى الجراء مسح الشد اجفيل
مطهم الخلق[6] لم تقطع أباجله   يصان وهو ليوم الروع مبـــذول
ولا أخالف جارى فى ظعينته[7]   ولا ابن عمى غالتنى إذا غـــول
ولا أكون وكاء الزاد أحبسه   لقد علمت[8] بأن الزاد مأكول
إن النســـاء متى ينهين عن خلق   فانه واجب لابد مفعـــول

---

(١) الاقتضاب : ١٩٧ .
(٢) ابن الشجرى : كتاب الحماسة ٩١ .
(٣) فى الديوان من ٥٥ — ٦١ ، وقد تصرف ابن الشجرى فى الأبيات تقديماً وتأخيراً ورواية .
(٤) فى الديوان ٥٧ أوصالها .
(٥) فى الديوان ٥٧ مغسول .
(٦) فى الديوان ٦٠ بساهم الوجه .
(٧) فى الديوان ٥٨ حليلته .
(٨) فى الديوان ٥٨ : إنى لأعلم أن .

ويبدو أن نسخة ابن الشجرى من ديوان طفيل التى انتقى منها مختاراته كانت نسخة كوفية ، لاشتمالها على مقطوعات لاتوجد فى النسخة البصرية ، أو لعلها وجدت فى وقته ولكنها سقطت أثناء تداول النسخ على مر العصور ، وذلك لأننا نجده يورد فى باب المراثى مقطوعة لطفيل عدتها ثمانية أبيات لانجد أحداً ممن ألف فى العربية أوردها سواه ، وهى قول طفيل(١) :

ولم أر هالكا فى الناس أودى … كزرعة يوم قام به النواعى
أجل رزيئة وأعزّ فقداً … على المولى وأكرم فى المساعى
وأغزر نائلا لمن اجتداه … من العافين والهلكى الجياع
وأكثر رحلة لطريق مجد … على اقتاد ذعلبة وساع
وأقول للتى ندبت بنيها … وقد رأت السوابق لاتراعى
شهدى بالذى قد قلت فيه … بنو بكر وحى بن الرواع
فلا فرح بخير إن أتاه … ولا جزع من الحدثان لاع
ولا وقافة والخيل تردى … ولاخال كأنبوب اليراع

وفى أواخر القرن السابع وأوائل الثامن نجد نسخاً من ديوان طفيل عند ابن منظور (ت ٧٢١ هـ) نقل عنها فى مؤلفه الضخم (لسان العرب) فى خمسة وثمانين موضعاً .

وحينما تصفحت هذه الموسوعة الضخمة وجدت خلال أجزائها صدى لديوان طفيل بالرواية البصرية . وقد اتضحت لى هذه الحقيقة حينما عارضت الشروح التى أوردها ابن منظور مصاحبة لمواد معجمه بالشروح المصاحبة لأبيات النسخة البصرية من الديوان . ومن ذلك قول ابن منظور : والحجبة بالتحريك رأس الورك ، والحجبتان حرفا الورك اللذان يشرفان على الخاصرتين قال طفيل :

---

(١) ابن الشجرى كتاب الحماسة ٨ .

ورادا وحوا مشرفا حجباتها   بنات حصان قد تعولم منجب[١]

وقوله « الشرعب : الطويل ... وشرعب الشيء طوله ، قال طفيل :

أسيلة مجرى الدمـــع خمصانة الحشى   برود الثنايا ذات خلق مشرعب[٢] »

ومن أظهر الأدلة قوله « والبغية : الطليعة التي تكون قبل ورود الجيش قال طفيل :

فألوت بغاياهم بنا وتباشرت   إلى عرض جيش غير أن لم يكتب

فألوت : أي أشارت ، يقول ظنوا أنا عيراً فتباشروا فلم يشعروا إلا بالغارة ، وقيل إن هذا البيت على الأماء أدل منه على الطلائع[٣] » .

وبالمقارنة بما هو في ديوان طفيل يتضح الاتفاق بين رواية الأبيات والشروح المصاحبة لها بما أورده ابن منظور .

على أننا نلمح في نفس الوقت صدى لنسخة أبي عمرو الشيباني الكوفي ، وذلك من ذكره له عقب الاستشهاد بشعر طفيل ، فمثلا قوله في مادة (شمط) :« وقد يقال لبعض الطير إذا كان في ذنبه سواد وبياض إنه لشميط الذنابى ، وقال طفيل يصف فرساً :

شميط الذنابى جوفت وهي جونة   بنقبة ديبـــاج وريط مقطع

الشميط . الخلط يقول : اختلط في ذنبها بياض وغيره ، أبو عمرو والشمطان : الرطب المنصف ، والشمطانة : البسرة التي يرطب جانب منها ، ويبقى سائرها يابساً[٤] » .

---

(١) لسان العرب ٢٩١/١ مادة (حجب) ، وانظر الديوان : ٢٣ .
(٢) لسان العرب ٤٣٦/١ مادة (شرعب) ، وانظر الديوان : ١٨ .
(٣) لسان العرب ٨٣/١٨ مادة (بغى) .
(٤) لسان العرب ٢٠٩/٩ مادة (شمط) .

كما نراه يذكره فى مادة (ردى) عقب استشهاده ببيت له قال : « راودته على الأمر ، ورادينه مقلوب منه ، قال ابن سيدة راديته على الأمر راودته كأنه مقلوب ، قال طفيل ينعت فرسه :

يراد على فأس اللجـــام كأنما   يراد به مرقاة جذع مشذب

أبو عمرو : راديت الرجل وداجيته وداليته وفانيته بمعنى واحد » .

كما يذكره فى مادة (صيّر) فيقول . « وصيّور الشىء آخره ومنتهاه وما يؤول إليه ، كصيره ومنتهاه وهو فيعول وكقول طفيل الغنوى :

أمسى مقيما بذى العوصاء صيّره   بالبئر غادره الأحياء وابتكروا

قال أبو عمرو (الشيبانى) صيّره : قبره يقال : هذا صيرفلان أى قبره »[1] .

ومن الواضح أيضاً أن ابن منظور كانت لديه نسخة من الديوان بشرح ابن السكيت ، نفهم ذلك من قوله : (والرؤبة مهموزة ما تسد به الثلمة) قال طفيل الغنوى :

لعمرى لقد خلى ابن خيدع ثلمة   ومن أين إن لم يرأب الله ترأب

قال يعقوب هو مثل : لقد خلى ابن خيدع ثلمة . قال وخيدع هى امرأة ، وهى أم يربوع ، يقول ومن أين تسد تلك الثلمـــة إن لم يسدها الله »[2] . كما يتضح ذلك أيضاً من قوله « وأساف الرجل وقع فى ماله السواف أى الموت ، قال طفيل :

فأبل واسترخى به الخطاب بعدما   أساف ولولا سعينا لم يؤبل

ابن السكيت : أساف الرجل فهو مسيف ، إذا هلك ماله ، وقد ساف المال نفسه

---

(١) لسان العرب ٦/١٤٨ مادة « صير » ، وانظر الديوان ١٠٠ .
(٢) لسان العرب ١/٣٨٤ مادة « ربب » .

يسوف إذا هلك »⁽¹⁾ وفى بعض مواضع نجد ابن منظور يأخذ فى استشهاده بشعر طفيل بتفسيرات ليست موجودة فى شرح النسخة البصرية الموجودة بين أيدينا ولعل هذه التفسيرات كانت موجودة فى النسخ الكوفية التى لم تصل إلينا كتفسيره لبيت طفيل :

تقريبه المرطى والجوز معتدل   كأنه سبــد بالماء مغسول

على النحو التالى . « المرطى : ضرب من العدو ، والجوز : الوسط ، والسبد: ثوب يسد به الحوض المركو لئلا يتكدر الماء ، يفرش فيه وتسقى الابل عليه وإياه عنى طفيل »⁽²⁾ .

ومن القرائن التى تتكىء عليها فى قولنا بأن ابن منظور كان يمتلك نسخاً عدة من ديوان طفيل بروايات مختلفة ، ما نجده عنده من اختلافات فى روايات الأبيات والشروح والقصص التاريخية المصاحبة لها عما هو موجود فى نسختنا البصرية ، فرواية الحادثة التاريخية المصاحبة لبيت طفيل :

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر   من الغيظ فى أجوافنا والتحوب

تختلف عند ابن منظور عنها فى النسخة البصرية التى بين أيدينا ، ولا يقتصر الخلاف على متن القصة بل يتعدى ذلك إلى الاسناد أيضاً فابن منظور يرويها بالسند والنص التاليين :

«وحكى ابن برى هنا حكاية لطيفة عن ابن خالويه قال حدثنى أبو عمرو الزاهد عن ثعلب عن عمر بن شبة قال : قال الجارود وهو القارىء :

« وما يخدعون إلا أنفسهم » ـ وقال غسلت ابنا للحجاج ثم انصرفت إلى شيخ كان الحجاج قتل ابنه فقلت له مات ابن الحجاج فلو رأيت جزعه عليه فقال :

---

(١) لسان العرب ٦٦/١١ مادة « سوف » .

(٢) لسان العرب ١٨٩/٤ قارن ما جاء فى ديوان طفيل ٥٧ من تفسير السبد بطائر مثل الخطاف ، وتحقق من الخلاف بين الشرحين .

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر البيت[1] » .

فاذا عارضنا هذه القصة متناً وسنداً بما ورد فى الديوان نجدها تختلف اختلافاً تاماً مما يدل على اختلاف المصدر الذى نقل عنه ابن منظور .

ولعل من أقوى الأدلة على تعـــدد نسخ الديوان عند ابن منظور اثباته للروايات المختلفة لأبيات الشاعر ، من ذلك قوله عن بيت طفيل :

عناجيج منهن الصريح ولاحق مغاوير فيها للأريب معقب

ويروى من آل الصريح . . . [2]

وقوله عن بيت طفيل الذى يصف فيه فرساً :

كأنه بعد ماصدرن من عرق سيد تمطر جنح الليل مبلول

« كأنه الهاء لفرسه ، بعد ماصدرن يعنى خيلا سبقن بصدورهن ، والعرق : الصف من الخيل . . . وقال أبو سعيد فى قوله : بعد ماصدرن من عرق أى هرقن صدراً من العرق ولم يستفرغنه كله ، وروى عن ابن الاعرابى أنه قال رواه بعد ماصدرن على مالم يسم فاعله ، أى أصاب العرق صدورهن بعد ما عرقن قال : والأول أجود » .

ومن ذلك أيضاً قوله عن بيت طفيل[3] :

أتانا فلم تدفعه إذ جاء طارفاً وقلنا له قد طال طولك فانزل

ويروى قد طال طيلك فانزل .

---

(١) لسان العرب ٤٣/٥ مادة (حجر) .
(٢) المصدر السابق ٣٤١/٣ مادة (صرح) .
(٣) المصدر السابق ٤٣٩/١٣ مادة (طول) .

وقد وجدنا ابن منظور يثبت لنا رواية أبي عبيدة عقب بيت طفيل :

فأثل واسترخى به الخطب بعدما ... أساف ولولا سعينا لم يؤثل

بقوله : رواية أبي عبيدة فأبل ولم يؤبل) (١) .

كما نص على رواية الأصمعي وأبي زيد وابن الأعرابي تحت مادة (عقر)

فقال : « وأما قول طفيل يصف هوادج الظعائن :

عقار تظل الطير يخطف زهوه ... وعالين أعلاقا على كل مفأم

فان الأصمعي رفع العين من قوله عقار ، وقال هو متاع البيت ، أبو زيد وابن الأعرابي روياه بالفتح »(٢)

ومن الأدلة التي تدعم قولنا مانراه في لسان العرب من استشهاد بأبيات لطفيل ليست موجودة في ديوانه المطبوع . ومن المعروف أن النسخة المطبوعة بالرواية البصرية رواية أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي . فلا مناص من أن تكون هذه الأبيات وما عليها من شروح مأخوذة من روايات أخرى . ومن هذه الأبيات قول طفيل (٣):

فمشوا إلى الهيجاء في غلوائها ... مشى الليوث بكل أبيض مذهب

وقوله (٤) :

نهوض باشناق الديات وحملها ... وثقل الذي يجني بمنكبه لعب

(١) لسان العرب ٩/١٣ مادة (أثل) .
(٢) المصدر السابق ٦/٢٧٥ مادة (عقر) .
(٣) المصدر السابق ١٩/٢٧٠ مادة (غلا) .
(٤) المصدر السابق ٢/١٢٠ مادة (علب) .

وقوله [١] :

طوال الساعدين يهز لدنـــا   يلوح سنانه مثـــل الشهاب

وقوله [٢] :

أمسى مقيما بذى العوصاء صيره   بالبئر غادره الأحياء وابتكروا

وقوله [٣] :

فهياك والأمر الذى إن تراحبت   موارده ضاقت عليك مصادره

وقوله [٤] :

أذودهم عنـــكم وأنتم رئالة   شلالا كما ذيد النهال الخوامس

وقوله [٥] :

شميط الذنابى جوفت وهى جونة   بنقبـــة ديباج وريط مقطع

وقوله :

أظعن بصحراء الغبيطين أم نخـــل   بدت لك أم دوم بأكمامها حمل [٦]

فإلا أمت أجعـــل لنفر قـــلادة   يتم بهـــا نفر قلائده قبل [٧]

---

(١) لسان العرب ٤٣٦/١٣ مادة (طول).
(٢) المصدر السابق ٦ /١٤٨ مادة (صير) .
(٣) المصدر السابق ٢٠٣/٢٠ مادة (هيا) .
(٤) المصدر السابق ٢٧٨/١٣ مادة (رأل) .
(٥) المصدر السابق ٢٠٩/٩ مادة (شمط) .
(٦) المصدر السابق ١٠٨/١٥ مادة(دوم) .
(٧) المصدر السابق ٣٣٧/١٤ مادة (تم) .

ولو كنت سيفاً كان أثرك جعرة　　　وكنت دداناً لايغيرك الصقل[١]

وقوله[٢] :

وحملت كورى خلف ناجية　　　يقتات شحم سنامها الرحـــ

وقوله[٣] :

هنالك يرويها ضيفي ولم أقم　　　على الظلفات مقفعل الأنامل

وقوله[٤] :

فذب عن العشيرة حيث كانت　　　وكن من دون بيضتها جمالا

وقوله[٥] :

فليتك حال البحر دونك كلــه　　　ومن بالمرادى من فصيح وأعجم

وقوله[٦] :

ودار يظعن العاهون عنهـــا　　　لذمتهم وينسون الذماما

وقوله[٧] :

أما ابن طوق فقد أوفى بذمته　　　كما وفى بقلاص النجم حاديها

(١) لسان العرب ٦/٢١٧ مادة (جعر).
(٢) المصدر السابق ٢/٣٧٩ مادة (قوت).
(٣) المصدر السابق١١/١٣٦مادة (ظلف).
(٤) المصدر السابق١٣/١١٨ مادة (جمل).
(٥) المصدر السابق ٤/٤٠٩ مادة (مرد).
(٦) المصدر السابق ١٧/٤١٦ مادة (عوه).
(٧) المصدر السابق ٨/٣٠٠ مادة (قلص).

وبعد الرجوع إلى لسان العرب فى أكثر من موضع نستطيع أن نقول إن هـــذا المعجم الكبير بجانب ماقدمه لنا من شرح لمعانى المفردات ، قد أتاح لنا فرصة الاطلاع على الروايات المختلفة والموازنة بينها ، بجانب ما انفرد به من أبيات لم ترو فى ديوانه الأصلى تصلح أن تكون تكملة لما روته المصادر الأخرى ، وقد استفاد من ذلك كرنكو فى الإضافات التى جمعها من المصادر المختلفة وأثبتها فى نهاية الديوان .

أما فى القرن التاسع فتحس بصدى ديوان طفيل عند العينى (ت ٨٥٥ هـ) فى مؤلفه (المقاصد النحوية فى شرح شواهد الألفية) إذ يستشهد أولا ببيت لطفيل ، ثم يذكر أن هذا البيت من قصيدة بائية فى صفة خباء وخيـــل ، ثم يستشهد بأبيات من هذه القصيدة يذكر ضمنها هذا البيت ، وقد بلـــغ مجموع ما استشهد به من أبيات اثنى عشر بيتاً نسخها بشروحها من الديوان مع شىء من التحريف والتصحيف . وأبرز مثال على أخذه شروح الأبيات من ديوان طفيل شرحه للبيت الثانى وهو كما أورده [١] :

سماوته أسمال برد مفوف [٢] وصهوته من أتحمى معصب

وشرحه كما ذكر « سماوته : سقفه ، الأسمال : جمع سمل وهو الثوب الخلق . المفوف : البرد الذى فيه الخطوط البيض ، وصهوته : أى أعلاه ، وصهوة كل شىء أعلاه ، الأتحمى : ضرب من البرود ، معصب : من العصب وهو نوع من برود اليمن » [٣] .

ثم شرحه للبيت السابع [٤] :

وفينا رباط الخيل كل مطهم وخيل كسرحان الغضى المتأوب

---

(١) المقاصد النحوية ٢٤ .

(٢) فى الديوان ١٩ (عبر) .

(٣) المقاصـــد النحوية ٢٥ .

(٤) المصـــدر السابق ٢٥ .

كما يلى المطهم التام كل شىء منه على حدته فهو بارع ، السرحان : الذئب ، الغضى : الشجر يقال ذئب غضى ، المتأوب : الذى يجىء أول الليل »[١] .

وشرحه للبيت الثامن :

تبارى مراخيها الزجاج كأنها ضراء أحست نبأة من مكلب

كما يلى « تبارى : تعارض ، المراخى : جمع مرخاء وهو الفرس الذى يخلى وشهوته فى العدو ، ضراء : جمع ضرو ، وهو الضارى من أولاد الكلب ، نبأة . الصوت الخفى ، المكلب : الذى يعلم الكلاب الصيد ، وبفتح اللام الأسير المقيد »[٢] .

وفى القرن الحادى عشر نجد البغدادى (ت ١٠٩٣ هـ) فى خزانته يذكر ضمن الدواوين التى رجع إليها ديوان طفيل ، ثم نجده فى جزأيه الثالث والرابع يفيدنا بأن النسخة التى كانت بين يديه من ديوان طفيل كانت بشرح ابن السكيت ، وهو فى الموضعين يكرر عبارة « قال ابن السكيت فى شرح ديوان طفيل »[٣] .

ثم تتتابع القرون فلا نكاد نلمس لديوان طفيل ذكراً حتى يأتى عمر بن رمضان ابن محمد بن درويش الهيتى (ت ١٢٥٣ هـ) على ما أفاد به الأستاذ ابراهيم الدروبى[٤] فينسخ ديوان طفيل ضمن مصنفه « ديوان الشعراء الجاهلين » والكتاب مجموعة مختارة من دواوين جماعة من شعراء الجاهلية هم : طفيل الغنوى ، وعامر بن الطفيل ، وعبيد بن الأبرص ، وامرؤ القيس ، وطرفه بن العبد ، وزهير بن أبى سلمى ، وعنترة بن شداد .

وقد توصلت إلى هـــذا الأصل عن طريق الرؤية والمشاهدة لا عن طريق القراءة فى المصادر العربية إذ أثناء زيارتى لبعض البلاد العربية لتصوير نماذج من

(١) المقاصد النحوية ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ٢٥ .

(٣) خزانة الأدب ٣/٦٤٢ ، ٤/٢٣٦ .

(٤) مجلة سومر المجلد الرابع عشر لسنة ١٩٥٨م ، الجزء الأول والثانى فى مجلد ص ٩٤٦ مقال المخطوطات العربية فى مكتبة المتحف العراقى ببغداد بقلم كوركيس عواد مدير مكتبة المتحف العراقى آنذاك .

المخطوطات العربية ، ونماذج من الخطوط العربية عثرت فى مكتبة المتحف العراقى على هذا المخطوط بعنوان « ديوان الشعراء الجاهلين » والنسخة غير مؤرخة ، وقد قال الشيخ محمود شكرى الالوسى عن ناسخها أن المفتى كتب كثيراً من الكتب الفريدة ، وجمع بخطه اللطيف مجاميع مفيدة[١] توفى سنة ١٢٥٣ ﻫ (١٨٣٧ م) على ما أفاد به الأستاذ ابراهيم الدروبى[٢] .

ورقم المخطوط فى مكتبة المتحف ١٤٦٩ ، ومقاسه ٢١ × ١٥ سم ، ويقع فى ١١١ صفحة ومسطرته ٢٠ سطراً .

وكتب الديوان بخط نسخى حديث ، وأثبت الناسخ بخطه على الهامشين فى أول صفحة فقط بعض الشروح لمفردات ومعانى الأبيات ، وكتب على أول صفحة أيضاً تمليك نصه « قد دخل فى ملك الأقل جواد بن المرحوم الحاج عبد الرازق سنة ١٢٩٥ ، وفى أسفل هذا التمليك كتب « ديوان الشعراء الجاهلين وفيه ديوان عامر بن الطفيل، والطفيل، وديوان عنترة ، والذبيانى، وعبيد بن الأبرص، وامرىء القيس . وطرفة ، وزهير بن أبى سلمى ،وفى قصيدة طفيل التى قالها حين قتل الغنوى ابن عروة الرحال فأبت بنو جعفر أن يأخذوا دية جعفرى من غنوى فارتحلت عنهم غنى والتى مطلعها :

غشيت بقرا فرط حول مكمل　　　مغانى دار من سعاد ومنزل

وبعد أن أكمل الناسخ القصيدة نسى اثنى عشر بيتاً فأثبتها بنفس الخط والمداد فى هامش القصيدة[٣] .

وقد خلا الديوان من ذكر اسم الراوى أو التعريف به ، ولكن الأمر لايحتاج إلى كبير عناء لمعرفة نوع الرواية فالرواية بصرية ، وهى رواية أبى حاتم السجستانى عن الأصمعى . والديوان نسخة خطية من الديوان البصرى قبل أن يحقق ويطبع ، اللهم إلا بعض التعديلات والحذف مما أحدثه الناسخ .

---

(١) محمود شكرى الالوسى « المسك الأذفر » : ١٢٠ .
(٢) مجلة سومر المجلد الرابع عشر لسنة ١٩٥٨ الجزء الأول والثانى ١٤٦ .
(٣) ديوان الشعراء الجاهليين : ٨ .

وإذا نظرنا فى ترتيب الأبيات نجده واحداً فى النسختين . وكذلك الرواية واحدة لا اختلاف بين كلمات الأبيات ، وتتفق النسختان أيضاً فى سلسلة نسب الشاعر التى وردت فى أول كل منهما ، ولكنها مختصرة فى المخطوط بعض الشىء . كما تتفق النسختان فى مقـــدمات القصائد التاريخية ، وهى مختصرة إلى حد ما فى المخطوط عنها فى المطبوع ، ولكنها ليست ملتزمة فى المخطوط . كما تتفق اتفاقاً تاماً فى الشروح المصاحبة للأبيات والتى وجدتها على هامش بعض أبيات الصفحة الأولى فى المخطوط ، وهى بنفس خط ناسخ الديوان .

الفصل الثاني

« الدراسة الموضوعية »

الانتحال وشعر طفيل

الموضوعات :

١ — الوصف .

٢ — الفخر .

٣ — الرثاء .

٤ — المدح .

٥ — الغزل .

الفصل الثاني

« الدراسة الموضوعية »

الانتحال وشعر طفيل

الانتحال وشعر طفيل

حينما بدأت الدراسة فى شعر طفيل تذكرت الصيحة التى أطلقها الدكتور طه حسين فى محاضراته وكتابه ... « فى الأدب الجاهلى » من أن الشعر الجاهلى لا يمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا دياناتهم ولا حضارتهم ، وأنه قد وضع وضعاً وحمل على أصحابه حملا بعد الإسلام . وأن هذا الشعر الذى ينسب إلى امرىء القيس أو إلى الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء ، ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن[1] .

ولكننا نعود فنجد الدكتور طه حسين يعتدل فى حكمه على الشعر الجاهلى فيقسمه ثلاثة أقسام ويقول: «عرفت أنا رفض شعر اليمن فى الجاهلية، وتكاد ترفض شعر ربيعة أيضاً . وأقل ماتوجبه علينا الأمانة العلمية أن نقف من الشعر المضرى الجاهلى لانقول موقف الرفض والإنكار وإنما نقول موقف الشك والاحتياط»[2].

ونحن من جانبنا لانشك فى الشعر الجاهلى ذلك الشك الذى ينتهى بنا إلى رفضه وانكاره جملة ، وإنما نساير القدماء فيما شكوا فيه فنرفضه، ونقبل ما اطمأنوا إليه ووثقوه وخاصة ثقاتهم أمثال أبى عمرو بن العلاء ، والمفضل الضبى ، والأصمعى ، ثم نخضعه بعد ذلك لنقدنا القائم على أسس علمية منهجية ، يقول الدكتور شوقى ضيف : « فنى الشعر الجاهلى منتحل لاسبيل إلى قبوله ، وفيه موثوق به ، وهو على درجات ، منه ما أجمع عليه ثقات لاشك فى ثقتهم وأمانتهم ، من مثل المفضل والأصمعى ، وأبى عمرو بن العلاء .

وقد يغلب المنتحل الموثوق به ، ولكن ذلك لايخرج بنا إلى إبطال الشعر

---

(١) فى الأدب الجاهلى ٨٣ .

(٢) المصدر السابق ٣٠٨ ، ٣١١ .

الجاهلي عامة ، وإنما يدفعنا إلى بحثه وتمحيصه ، مهتدين بما يقـــدم لنا الرواة الأثبات من أضواء تـكشف الطريق [١] » .

ولما كان طفيل الغنوى شاعراً من شعراء العصر الجاهلي مات قبل ظهور الإسلام ، ينتهى نسبه إلى قبيلة قيس عيـــلان من مضر ، لذلك ينسحب عليه موقف الدكتور طه حسين إزاء الشعر المضرى ، لذا وجب علينا أن نعرض شعره على منهج للنقد العلمى .

هذا دافع لـكتابة هذا الفصل ، وهناك دافع آخر وهو ما وجدته مبعثراً فى الـكتب المختلفة من أشعار تنسب لطفيل كما تنسب لغيره من الشعراء ، وكان لابد من دراسة هذه الظاهرة ومحاولة تعليلها .

فإذا نظرنا فى شعر طفيل لنرى إلى أى حد تنطبق أسباب الانتحال عليه ، وجدناه يخرج إلى حد كبير عن دائرة الانتحال التى رسمها الدكتور طه حسين ، فطفيل من قيس عيلان التى تنتهى إلى مضر ، فهو مضرى لحماً ودماً فلا اعتراض على أن يقول شعره بلغة قريش التى نزل بها القرآن ، مطابقاً فى اللفظ والإعراب وما يتصل بذلك من قواعد الـكلام . ولم يكن طفيل يمانياً فيضيف إليه اليمنيون أشعاراً لتمجيد اليمانية ورفع شأنها ، وإثبات أن لها سابقة فى الجاهلية تستطيع أن تثبت بها أمام نبوة المضريين وخلافتهم ، لاغبار إذن فى أن ينظم طفيل الغنوى شعره فى لغة أهل الحجاز بل فى لغة قريش خاصة ، وحتى إذا سلمنا بأن لـكل قبيلة من القبائل العدنانية لهجتها الخاصة ، فلم يكن التميمى أو القيسى حين يقول الشعر فى القرن السادس الميـــلادى يقوله بلهجة تميم أو قيس ، إنما يقوله بلغة قريش ولهجتها . كما أننا نجد شعره يخرج عن دائرة نحل الرواة ، فالدكتور طه يشك فى ثلاثة من الرواة هم حماد وخلف الأحمر وأبو عمرو الشيبانى ، ولانجد

---

(١) العصر الجاهلي : ١٦٦ .

واحداً من هؤلاء روى شعر طفيل إلا أبا عمرو الشيباني ولكن روايته ضاعت وضاع معها شعر كثير. كما لا نجد أثراً للقصص أو الشعوبية أو الدين في نحل الشعر وإضافته لطفيل.

أما ديوان طفيل الذي بين أيدينا فهو بالرواية البصرية، رواية أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي وكلاهما ثقة، فالأصمعي عرفت عنه الدقة وتحري الصحة في روايته، وكذلك السجستاني الذي كان تلميذاً نابهاً للأصمعي. على أن الدكتور طه حسين كما يشك في الكوفيين يشك في البصريين أيضاً رغم تشددهم فهو يقول:

« ومهما يكن في تشـــدد البصريين واحتياط ابن سلام ومن إليه فنحن نقف منهم أيضاً موقف التردد، ونستكثر ما اطمأنوا إليه، ونرى أن المنصفين الصادقين منهم قد خدعوا وقبلوا مالم يكن ينبغي أن يقبلوا »[1] ولما كان الأمر كذلك فقد نادى الدكتور طه بالنقد الخارجي وهو نقد السند والراوي، والنقد الداخلي وهو نقد النص الشعري نفسه، في لفظه ومعناه ونحوه وعروضه وقافيته. وحينما ننظر في شعر طفيل نجده شعر شاعر جاهلي فالألفاظ متينة رصينة، والشعر شديد الأسر، قوي المتن، حظ الشدة أكثر فيه من حظ اللين، ولا غرو فقد لقب شاعرنا بالمحبر « لتحسينه الشعر ». على أن هذه النظرة إلى الشعر الجاهلي من هذه الزاوية هامة في نظر الدكتور طه حسين. فقد شك في شعر عبيد بن الأبرص وعمرو بن قميئة لأن في شعرهما ليناً وضعفاً وسهولة في اللفظ لا يمكن أن تضاف إلى شاعرين قديمين »[2].

مقياس آخر يدعونا إلى الثقة في شعر طفيل. هذا المقياس ذكره الدكتور طه حسين بجانب ماذكر من أمر النظر في اللفظ والمعنى، وهو تلمس الخصائص

---

(١) في الأدب الجاهلي : ٢٦٣.

(٢) المصدر السابق : ص ٢٦٥.

الفنية المشتركة بين مجموعة من الشعراء ، وبعد هذا يمكن للدارس أن يستخلص لنفسه مقياساً يقرب له صواب الرأى فى طائفة من هذا الشعر المضرى [١] ،

وقد ذكرنا أن ألفاظ طفيل ومعانيه ملائمة ملاءمة تامة للحياة البدوية فى العصر الجاهلى ولكن الدكتور طه يثير أمامنـــا مشكلة أخرى فيقول : « فاذا تحققنا ملاءمة اللفظ والمعنى للعصر الذى قيل فيه ، بقيت أمامنا مشكلة عسيرة جداً ، وهى مشكلة إمكان التقليد والتزييف » . وهنا نلجأ إلى شىء آخر غير اللفظ والمعنى وملاءمتها للعصر الذى قيل فيه الشعر ، وهو الخصائص الفنية وفيها يقول . « وهذه الخصائص الفنية يمكن أن تلتمس عند شاعر واحد ، عند زهير مثلا ، ويمكن أن تلتمس عند طائفة من الشعراء . ولكننا نريد أن نبالغ فى الاحتياط فلا نكتفى بالخصائص الفنية التى نظفر بها عند شاعر واحد لأننا لانأمن أن تكون هذه الخصائص ليست حظ الشاعر نفسه ، وإنما هى حظ الراوية الذى نحل الشعر وأضافه إلى الشاعر [٢] » .

فالدكتور طه لايكتفى بالخصائص الفنية عند شاعر معين ليقطع بصحة شعره فقد تكون هذه الخصائص خصائص راو وضع هـــذا الشعر ، وإنما يلتمس الخصائص الفنية عند مجموعة من الشعراء بين هذا الشاعر وبينهم صلة ما . فإذا ظفر بهذه الخصائص رجح أن لشعر هذه الطائفة نصيباً من الصحة [٣] .

وقد ظفر الدكتور طه حسين بمدرسة شعرية مضرية ، وضح لنا خصائصها الفنية وما بين شعرائها من صلات ، هـــذه المدرسة أستاذها الأول كما يذهب الدكتور طه حسين أوس بن حجر وراويته زهير وراوية زهير الحطيئة ، وأن كعب بن زهير تعلم الشعر عن أبيه . ولكنا من جانبنا نتعمق فى جذور هذه المدرسة لنقول إن استاذها الأول هو طفيل الغنوى فقد كان أوس بن حجر وزهير

---

(١) فى الأدب الجاهلى ٣٣٤ .
(٢) المصدر السابق ٣٣٥ .
(٣) المصدر السابق ٣٣٥ .

راويتين له [١] . وقد كان طفيل بحق الممثل الأول لهذه المدرسة ، وكان زهير تلميذاً له ، وسنجد فى دراستنا لمدرسة الصنعة من الخصائص الفنية فى المعانى والألفاظ والأوزان بين هذه المجموعة من الشعراء مايؤكد لنا وجهة النظر التى نقول بها . نحن إذن بإزاء مدرسة شعرية رائدها الأول طفيل ، ومن بعده أوس ثم زهير ، ثم من بعدهما الحطيئة ، الذى أخذ عنه فى الاسلام جميل ، وعن جميل أخذ كثير .

وإذا رجعنا إلى ديوان طفيل وجدنا عدد قصائده التى صحت عند الأصمعى فرواها لنا فى نسخته من ديوان طفيل عشر قصائد ، لم يشك فى واحدة منها ، على أن الرأى عنـــدى أنه قد استبعد كثيراً من شعر طفيل الذى لديه ، فليس معقولا أن تكون هذه القصائد العشر هى كل ما قال طفيل طول حياته ، لأن العدد يسير جداً بالقياس إلى ماقاله فى غزوات قبيلته وحروبهـا ، وما ألم به من حوادث ،وخاصة أن شعر العرب كان ديوانهم وسجلهم فى هذا العصر،دونوا فيه عواطفهم وأعمالهم ومفاخرهم ، قال أبو هلال العسكرى : « لاتعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارها .فالشعر ديوانالعرب وخزانة حكمها ، ومستنبط آدابها ، ومستودع علومها » [٢] .

ولعل هذه الدقه فى الأخذ هى التى دفعت الأصمعى إلى القول : « وطفيل عندى أشعر من أمرىء القيس [٣] » ، ثم يعلل لرأيه هذا بقوله :« ويقال إن كثيراً من شعر امرىء القيس لصعاليك كانوا معه [٤] » ، ويذكر مع هؤلاء الذين كانوا

---

(١) العمدة ١/١٣٢ ، والعصر الجاهلى ٣٠٦ ، ودائرة المعارف الاسلامية المجلدالثالث، العدد الثالث ١٥٢ ، وكارل بروكلمان تاريخ الأدب العربى ١/٩٥ .
(٢) الصناعتين ١٠٤ .
(٣) فحولة الشعراء ١٦ .
(٤) المصدر السابق ١٦ ، والموشح ٣٤ .

معه عمرو بن قميئة الذى دخل معه إلى قيصر الروم[١] ، فكأن صحة هذه القصائد العشر وتأكد الأصمعى من صدق صدورها عن طفيل ، وشكه فى أغلب الأشعار التى رويت لامرىء القيس هى التى دفعتـــه لتفضيل شعر طفيل على شعر امرىء القيس .

ولا نجد لشارح الديوان أبى حاتم السجستانى من شك سوى فى بيتين اثنين فى قصيدة طفيل اللامية التى أولها[٢] :

هل حبل شماء قبل البين موصول أم ليس للصرم عن شماء معدول

وهذان البيتان هما[٣] :

إن النساء كأشجار نبتن معـــا منها المرار وبعض المر مأكول

إن النساء متى ينهين عن خلق فإنه واجب لابد مفعول

قال أبو حاتم « وهذان البيتان لمالك بن كعب ، وهو أبو كعب بن مالك الأنصارى صاحب النبى عليه الصلاة والسلام[٤] » .

وأكبر الظن عندى أن هذين البيتين صحيحان لطفيل ولا داعى للشك فيهما ، وهما جزء من قصيدته ، فهذه القصيدة عدتها سبعة وعشرون بيتاً جلها فى عرض حكم ، وخلاصة تجارب فى الحياة ، وقد عرفنا عن طفيل ذلك حينما تحدثنا عن شخصيته ، يؤيدنا فى رأينا أيضاً ثالث هذين البيتين لأنه مكمل لهما ولم يشك فيه السجستانى ولا غيره ، وليس طبيعياً أن يقول طفيل هذا البيت دون أن يسبقه هذان البيتان لأنه مكمل لهما وهو قوله[٥] :

---

(١) فحولة الشعراء : ١٦٠ ، والموشح ٣٤ .

(٢) الديوان ٥٥ .

(٣) الديوان ٦٠ ، ٦١ .

(٤) الديوان : نشر كرنكو ٣٤٠ ، و الأغانى (ساسى) ١٥/٣٠ ، والبيتان فيه يرويان لمالك برواية مخالفة .

(٥) الديوان ٦١ .

لايثنين لرشد إن منين له ... وهن بعـــد ملومات مخاذيل

كما أننا وجدنا كثيراً من المؤلفين القدامى استشهدوا بهذين البيتين على أنهما من غرر شعر طفيل ، من هؤلاء ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) فى كتابية : الشعر والشعراء (١) ، وعيون الأخبار (٢) ، والجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) فى كتابه البيان والتبيين(٣) ، والثعالبى (ت ٤٢٩ هـ) فى كتابه: المنتحل(٤) ، وابن السيد البطليوسى (ت ٥٢١ هـ) فى كتابه : الاقتضاب (٥) ، وابن الشجرى (ت ٥٤٢ هـ) فى كتابه الحماسة (٦) .

وسيجد قارىء ديوان طفيل فى نهاية الديوان فصلا بعنوان (تعليقة فيها أبيات منسوبة إلى طفيل) نقلها كرنكو من كتب مختلفة وتضم هذه « التعليقة » قصائد ومقطوعات يبلغ عددها ستاً وثلاثين ، فهى تزيد من حيث العدد على جميع مافى الديوان من قصائد ، ولكنها لا تزيد عدداً فى الأبيات . كما أنها لا تستطيع أن تقف للديوان فى أصالة النسب ، كما تتفاوت مصادرها فى مقدار الثقه بها .

ونحن نسقط منها بدءاً ما يثبت لدينا أنه نسب خطأ إلى طفيل لتصديره بعبارة « قال الغنوى » فقد أورد كرنكو أبياتاً منسوبة إلى طفيل لمجرد تصديرها بهــذه العبارة ، وليس كل غنوى طفيلا ، فقد عرفنا أن هذه القبيلة كان منها الشعراء(٧) ، وكان لها ديوان شعر ذكره الآمدى فى « المؤتلف والمختلف » .

---

(١) الشعر والشعراء ٢٧٥ .
(٢) عيون الأخبار ٤/١١٣ .
(٣) البيان والتبيين ٣/٢٧٠ .
(٤) المنتحل ١٨٣ .
(٥) الاقتضاب ٣/٢٩٨ .
(٦) حماسة ابن الشجرى ٢١ .
(٧) الأغانى ٨/٢٣٣ .

ومن الأبيات التى نسقطها البيت الخامس عشر فى ذيل الديوان المصدر بعبارة « قال الغنوى »[١] :

لا يمنع الناس منى ما أردت ولا أعطيهم ما أرادوا حسن ذا أدبا

وبالإضافة إلى أن ديوان طفيل قد خلا من هذا البيت فإننا نجده فى الأصمعيات[٢] منسوباً لسهم بن حنظلة وهو الصحيح[٣] .

كما نسقط الأبيات الثلاثة التالية المصدرة بعبارة قال الغنوى[٤] :

تأبدت المجازر من رياح وأقفرت المدافع من خراق
وأقفر من بنى كعب جياح فذو عثث إلى وادى العناق
وكانوا يدفعون الخصم عنى فيقصر وهو مشدود الخناق

وذلك لأنها من شعر كعب بن سعد الغنوى[٥] .

كذلك البيت رقم ٤٥ نسقطه أيضاً وهو قول الغنوى[٦] :

إذا ما كنت فى قوم شهاوى فلا تجعل شمـــالك جردبانا

لأنه من شعر كعب بن سعد[٧] .

أما هذا البيت الذى أضافه كرنكو فى التعليقة وهو[٨] :

---

(١) الديوان (نشر كرنكو) ٥٧ ، والنقائض ٤١ .
(٢) الأصمعيات ١٢ رقم ٣٠ .
(٣) راجع كتاب الدكتور شوقى ضيف « العصر الجاهلى : ٨ .
(٤) الديوان (نشر كرنكو) ٦١ .
(٥) الديوان (نشر كرنكو) ٦١ .
(٦) المصدر السابق ٦٥ .
(٧) المصدر السابق ٦٥ .
(٨) الديوان ١٠٢ ، ولسان العرب ٢٠/ ٢٥٣ .

فهواك والأمر الذى إن تراحبت مواردة ضاقت عليك مصادره

فعلى الرغم من أنه يروى أيضاً لمضرس بن ربعى ، ففى ظنى أنه يحتمل إلى درجة غير قليلة أن يكون من شعر طفيل ، فالبيت فيه نصح وارشاد لايصدران إلا عن مجرب حكيم ، وقد عرفنا هذا اللون من الشعر عند طفيل فى أكثر من قصيدة ، ولا غرو أن يصدر هذا الشعر عن طفيل ، فهو سيد قومه وفارسهم وسفيرهم عند اشتداد الأمور . كما أن البيت منسوب إلى طفيل فى أكثر من مصدر ، فقد رواه الزمخشرى فى أساس البلاغة (١) ، وابن جنى فى التصريف (٢) كما رواه صاحب شواهد الكشاف (٣) .

كما أنى أضيف إلى شعر طفيل هذا الرجز ويؤيدنى فى ذلك قول أبو هلال العسكرى فى جمهرة الأمثال : « وعمرو بن العاص يتمثل بقول طفيل (٤) :

إذا تخازرت وما بى من خزر
ثم كسرت العين من غير عور
ألفيتنى ألوى بعيـــد المستمر
أحمل ماحملت من خير وشر
كالحية الصماء فى أصل الحجر
ذا صولة فى المصمئلات الكبر
أنزى إذا نوديت من كلب ذكر
أكدر شغار تعدى فى السحر »

---

(١) أساس البلاغة ٣٢٨/١ .
(٢) التصريف ٢٧ .
(٣) شواهد الكشاف : ١٠٤ .
(٤) جمهرة الأمثال ٦٩/١ ، وراجع المعانى لابن قتيبة ٢١٥/١ .

ولا معارض لأبي هلال إلا ابن السيد البطليوسى فى كتاب الاقتضاب (١) وابن برى فى لسان العرب (٢) وفيهما أن هذا الرجز يروى لعمرو بن العاص ، ويروى لأرطاة بن سهية وفى ترجيحنا لنسبة هذا الرجز لطفيل بجانب ماذكره أبو هلال العسكرى تذكر أن هذا البحر وهو بحر الرجز من الأوزان البسيطة القديمة التى تلائم الفترة التى وجد فيها طفيل .

كما أننا وجدنا له بيتاً آخر على نفس هذا الوزن هو قوله (٣) :

نبئت أن أبا شتيم يدعى　　　مهما تعش تسمع بما لم يسمع

أما هذا الخلط فربما يكون قد جاء من المصادر التى اعتمد عليها ابن السيد وابن منظور ، وقد تكون هـــذه المصادر قد أهملت ذكر اسم طفيل وذكرت عمرو بن العاص فقط فتوهم أنه قائل هذا الرجز .

ومن هذا الخلط الموجود بين شعر طفيل وغيره من الشعراء هذان البيتان اللذان وردا فى ذيل الديوان منسوبين إلى طفيل وهما (٤) :

لحافى لحـاف الضيف والبيت بيته　　　ولم يلهنى عنـــه غزال مقنـــع
أحدثه إن الحديث من القرى　　　وتكلأ عينى عينـــه حين يهجع

فهذان البيتان يرويان لعروة بن الورد (٥) ، كما يرويان لعتبة بن بجير (٦) ويرويان لمسكين الدارمى (٧) . على أنى أقول إن معجم طفيل يقبل هذين البيتين

(١) الاقتضاب ٤٠٩ .
(٢) لسان العرب ٧/١٩ .
(٣) الديوان ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٤) الديوان ١٠٣ .
(٥) ديوان عروة ١٧ .
(٦) الحماسة ٧٥٠ .
(٧) أمالى المرتضى ٢/١٢٤ . وفيه الشطر الثانى من البيت الثانى ويروى هكذا : « وتعلم نفسى أنه سوف يهجع » .

لأن قبلهما بيتين مذكورين له ولم يذكر أن أحداً شاركه فيهما ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد عرفنا هذا النوع من المعانى عند طفيـــل حينما تعرضنا للملامح الاجتماعية فى شعره على نحو ما رأينا فى قصيدته اللامية التى ذكرنا بعض أبياتها فى دراسة السمات الاجتماعية .

ومن الخلط بين شعر طفيل وغيره من الشعراء ما سبق أن ذكرناه عند حديثنا عن الديوان من نسب ابن خالويه (١) أبيات للطرماح وهى من شعر طفيل . وعللنا لذلك أن ديوانى طفيل والطرماح عاشا فترة طويلة من الزمن متلازمين ، فربما تداخلت الأوراق واختلطت فتوهم ابن خالويه ما لطفيل على أنه للطرماح .

على أن هذا الخلط الطفيف الذى رأيناه فى ذيل الديوان بين شعر طفيل وغيره من الشعراء ، ربما جاء أيضاً من تأثر الشعراء بطفيل لتفوقه فى وصف الخيل وتلقيبه بالمحبر ، فحاول بعضهم أن يحذو حذوه ، وهذا الذى نقول به ، قال به الأصمعى من قبل فقد روى عنه قوله : «أخذ كل الشعراء من طفيل حتى زهير والنابغة (٢) » ، وسنجد امثلة كثيرة لهذا الأخذ فى المعانى والألفاظ والصور حينما نعرض فى دراستنا للخصائص الفنية لأثر طفيل فى الشعراء الذين أتوا من بعده .

---

(١) كتاب ليس فى كلام العرب ٧٤ .
(٢) مقدمة الديوان ١٧ .

الموضوعات

١ ـ الوصف :

يعد الوصف بعامة ووصف الخيل بخاصة من أهم الموضوعات الشعرية عند طفيل الغنوى ، لأنه شاعر فارس ، والخيل أبرز عنصر من عناصر الفروسية . وتتردد شهرته بالفروسية وركوب الخيل فى المصادر الأدبية المختلفة ، ويذكر ابن قتيبة . أنه كان من أوصف العرب للخيل[(١)] ويروى عن عبد الملك بن مروان أنه قال: « من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليروى شعر طفيل »، وقد فضله الأصمعى فى وصف الخيل على زهير والنابغة . وعن محمد بن حبيب قال . « كان طفيل الغنوى يسمى طفيل الخيل لكثرة وصفه إياها [(٢)] » كما روى عن أبى عبيدة قوله: « طفيل الغنوى والنابغة الجعدى وأبو دؤاد الإيادى أعلم العرب بالخيل وأوصفهم لها[(٣)] » .

ولقد تضافرت عوامل كثيرة على تفوق طفيل فى وصف الخيل فقد كان كلفا بالخيل منذ نعومة أظفاره فكان يركبها وهو غلام صغير لم يبلغ الحلم . وظل على هذه الحال إلى أن كبر وأصبح فارساً سيداً فى قومه فى الأغانى أن الأصمعى قال : « ثلاثة كانوا يصفون الخيل لايقاربهم أحد: طفيل ،وأبو دؤاد، والجعدى ، فأما أبو دؤاد فإنه كان على خيل المنذر بن النعمان بن المنذر ، وأما طفيل فإنه كان يركبها وهو أغرل إلى أن كبر ، وأما الجعدى فإنه سمع ذكرها

---

(١) الشعر والشعراء ٢٧٥ .

(٢) الأغانى ١٦/٣٥٤ .

(٣) المصدر السابق ١٠/ ٣٥٤ .

من أشعار الشعراء فأخذ عنهم »[١] . وكانت قبيلته معروفة بكثرة اقتنائها للخيل العربية الأصيلة ، وقد روى لنا طفيل فى شعره أسماء عدد من الخيل العربية التى كانت لاتقل بطولاتها عن بطولات فرسانها والتى اشتهرت بها قبيلته ، ثم تفرق نسلها بعد ذلك فى سائر القبائل العربية . قال أبو عبيدة : « كان الوجيه والغراب ولاحق ومذهب ومكتوم هذه الخمسة فحولا لغنى بن أعصر وقد تفرق أولادهن فى سائر قبائل العرب فإن ذكرها ذاكر فانما يفتخر بما صار إليه من نسلها »[٢].

يقول طفيل :[٣]

بنات الغراب والوجيه ولاحق وأعوج تنمى نسبة المتنسب

كذلك كان من خيلهم غرابين[٤] ، ونراه يعود فيذكر الغـــراب ومذهب فيقول :

وخيل كأمثال السراح مصونة ذخائر ما أبقى الغراب ومذهب

ثم يعود فيذكر مكتوم وأعوج فيقول[٥] :

أبوهن مكتوم وأعوج تفتلى ورادا وحوا ليس فيهن مغرب

ويذكر لنـا اسم فرسه فيقول[٦] :

وقد منت الخذواء منا عليهم وشيطان إذ يدعوهم ويثوب

وكان لأعوج شهرة كبيرة عند سائر العرب ، وكانت قبيلته تحرص على أن تقتنى من نسله بعض الجياد لنجابته وكرمه،لذلك تغنى بذكره الشعراء والفرسان ، وحاول كل منهم أن يرجع نسب حصانه الأعوج ، قال الأبيوردى : « البواب

---

(١) الأغانى ١٥/٩٢ .

(٢) أبو عبيدة : الخيل : ٨٥ .

(٣) الديوان ٢٣ .

(٤) الفيروزابادى : القاموس ١ — ٢/١١٠ .

(٥) الديوان ٤٤ .

(٦) الديوان ٤٩ .

فرس زياد بن أبيه وهو البواب من البطين بن البطان بن الحرب بن الأتانى ابن الخزربن ذى الصوفة بن أعوج الأكبر، وليس يعرف فحل أشهر ولا أكثر نسلا ولا الشعراء أو الفرسان أكثر ذكراً له وبه افتخاراً من أعوج وهو لغنى ابن أعصر [١]» .

والعرب لكثرة إنتفاعها بالخيل كانت تسميها الخير وقدفسروا قول الله تبارك وتعالى :

« انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب » بأنه لها بالخيل وبالنظر إليها حتى فاتته صلاة العصر ، قال الرسول ﷺ : « الخيل معقود فى نواصيها الخير » . وقالا أبو ميمون العجلى : « فالخيل والخيرات كالقرينين » ، ويتضح لنا حب العرب للخيل ، مما أنشده ابن قتيبة فى أبيات المعانى وهو قول شاعرهم :

فأعقب خيراً كل أهوج مهرج وكل مفداة العلالة صلدم [٢]

أى أعقبتهم خيلهم خيراً مما قاموا عليها وصنعوها[٣] . وقد أحبها طفيل وعبر عن حبه لها فى شعره فهو القائل [٤] :

وللخيل أيام فمن يصطبر لها ويعرف لها أيامها الخير تعقب

أى من يصبر على الشدائد المتعلقة برياضة الخيل ومقاساة أهوالها أعقبته الخير والغنم . ويعبر طفيل عن كلفه بالفرس وعدم استغنائه عنه على أى حال فى اليسر والعسر فيقول [٥] :

---

(١) أبو محمد عبد المؤمن الدمياطى « كتاب فضل الخيل وما يستحب وما يكره من ألوانها وشياتها وما جاء فى كراهة أكل لحومها وإباحتها ، وما ورد فى سباقها وسهامها وصدقاتها ورقة ٤٩١ ، ٤٩٢ مخطوط رقم ٦٠ آداب ، المكتبة الظاهرية بدمشق .

(٢) الأهوج : الذى يركب رأسه ، المهرج : الكثير الجرى ، مفداة العلالة : يقال لها لذا طلب علالتها وهى بقية جريها .

(٣) خزانة الأدب ٦٤٢/٣ ، ٦٤٣ .

(٤) الديوان ٣٥ .

(٥) الديوان ٥٧ .

إنى وإن قل مالى لايفارقنى   مثل النعامة فى أوصالها طول

ونجد طفيلا من شدة حبه للخيل يصف الحصان من الرأس إلى الذنب لايكاد يترك عضواً من أعضائه إلا وصفه فأحسن وصفه ، فهو يصفها بأنها قليـــلة لحم الوجوه والمتون فيقول :

معرقة الألحى تلوح متونها   تثير القطا فى منقل بعد مقرب

ويقول فى قلة لحم الوجه (١) :

يساهم الوجه لم تقطع أباجله   يصان وهو ليوم الروع مبذول

ويصف سعة أشداقها فيقول (٢) :

كأن على أعطافه ثوب مائح   وإن يلق كلب بين لحييه يذهب

فهو يصف الفرس بسعة شدقه حتى أنه لو ألقى كلب بين شدقيه لذهب من سعته . كما يصف الصوت الصادر من فم الفرس ويشبهه بحفيف النار فى العرفج فيقول (٣) :

كأن على أعرافه ولجـــامه   سنا ضرم من عرفج يتلهب

ويقول فى صوتها (٤) :

إذا انصرفت من عنة بعد عنة   وجرس على أثارها كالمؤلب

ويصف حال الخيل عند الشراب ، فمنها الشارب قليلا ، ومنها الصادر عن الشرب يقول (٥) :

---

(١) الديوان ٦٠ .
(٢) الديوان ٢٧ .
(٣) الديوان ٢٦ .
(٤) الديوان ٢٧ .
(٥) الديوان ٢٨ .

أنخنا فسمناها النطاف فشارب قليلا وآب صد عن كل مشرب

ثم يصف الحصان وقد تكبد فأس المجام ، أى حديدته التى تكون فى فمه كأنما يتكبد نخلة شذبت فيقول (١)

يرادى على فأس المجام كأنما يرادى به مرقاة جذع مشذب

ثم يعود فيصف الخيل وقد عادت من الغزو فنزعت عنها المجم . وقلدت الأرسان من أجل الراحة لأنها رجعت والنصر حليفها يقول (٢) :

فرحن يبارين النهاب عشية مقلدة أرسانها غير خيب

ثم يترك رأس الحصان وينتقل إلى عنقه ، فيصفه بالطول والارتفاع يقول :(٣)

تنيف إذا أقورت من القود وانطوت بهاد رفيع يقهر الخيل صلهب

وعوج كأحناء السراء مطت بها مطارد تهديهـا أسنة قعضب

فهذه الخيل ضمرت من تتابع قيادها إلى الأعداء ، لذلك سبقت بعنق طويل مرتفع سائر الخيل ، وقـد حملت فى جانبيها أضلاعاً كشجر السراء نهضت بها أعناق طوال كأنها أرماح تقدمها وتكون هوادى لها أسنة منسوبة إلى قعضب الذى اشتهر بصنع الأسنة فى الجاهلية .

ويصف العنق بالطول فيقول (٤) :

طوال الهوادى والمتون صليبة مغاوير فيها للأريب معقب

كما يصف العنق بالطول حتى أن هذه الخيل من طول أعناقها أصبحت رؤوسها مع رؤوس الرماح عند العدو يقول (٥) :

---

(١) الديوان ٢٨ .

(٢) الديوان ٣٣ .

(٣) الديوان ٢١ .

(٤) الديوان ٤٣ .

(٥) الديوان ٢٤ .

تباری مراخيها الزجاج كأنها ضراء أحست نبأة من مكلب

ويصف طفيل الخيل وقد اضطربت فى أعناقها القلائد بعد أن هزلت فيقول:(١)

وتمت إلى أجوزها وتقلقلت قلائد فى أعناقها لم تقضب

ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف أيديها وقد خضبت بالدماء يقول (٢) :

طوامح بالطرف الظراب إذا بدت محجلة الأيدى دما بالمخضب

ويأتى بعد وصف الأيدى وصف الظهر الأملس الذى يشبه فى ملسه الأرض الدارسة إثر لعب الصبيان يقول (٣) :

من الغزو واقورت كأن متونها زحاليف ولدان عفت بعد ملعب

ويصفها وقد شدت السروج على أظهرها يقول (٤) :

نزائع مقذوفاً على سرواتها بما لم تخالسها الغزاة وتسهب

كما يصف الوسط بالاعتدال والاستواء فيقول (٥) :

تقريها المرطى والجوز معتدل كأنها سبد بالماء مغسول

ولاينسى طفيل الذنب وما عليه من شعر غزير فيقول (٦) :

وأذنابها وحف كأن ذيولها مجر أشاء من سميحة مرطب

كما يصف الذنب وقد اختلط فيه بياض فيقول :

---

(١) الديوان ٣٥ .
(٢) الديوان ٣٤ .
(٣) الديوان ٢٤ .
(٤) الديوان ٢٣ .
(٥) الديوان ٥٧ .
(٦) الديوان ٢٤ .

شميط الذنابى جوفت وهى جونة بنقبة ديباج وريط مقطع [١]

ويلح طفيل على وصف الخيل بالطول بجانب الصفات الأخرى ، لأن هذه الصفة للخيل الكريمة الأصيلة فخيلهم طويلة يقول [٢] :

فلم يبق إلا كل جرداء صلدم إذا استعجلت بعد الكلال تقرب

وخيلهم طويلة الأضلاع ، طويلة الجسم ، يقول [٣] :

فإن فزعوا طاروا إلى كل سابح شديد القصيرى سابغ الضلع جرشع
وكل طموح الطرف شقاء شطبة مقربة كبداء سفواء ممزع

وخيلهم سريعة تجاوز الجياد وكأنها صخرة سقطت من جبل يلملم يقول [٤] :

وسلهبة تنضو الجياد كأنها رداة تدلت من فروع يلملم

كما يصف خيلهم باطراد الخلق وتتابعه فيقول [٥] :

وعارضتها رهواً على متتابع شديد القصيرى خارجى محنب

وخيل طفيل ذكورها واناثها جرد أى قصيرة الشعر ، وهى صفة مستحبة فى الخيل فيقول فى الجواد [٦] :

على كل منشق نساها طمرة ومنجرد كأنه تيس حلب

ويقول فى الفرس الجرداء [٧] :

وجرداء مراح نبيل حزامها طروح كعود النبعة المتنخب

---

(١) اللسان ٩/٢٠٩ .
(٢) الديوان ٤٦ .
(٣) الديوان ٥٣ ، ٥٤ .
(٤) الديوان ٧٩ .
(٥) الديوان ٢٦ .
(٦) الديوان ٣٠ .
(٧) الديوان ٢١ .

ويقول (١) :

فلم يبق إلا كل جرداء صلدم إذا استعجلت بعد الكلال تقرب

ولا يفوت طفيلا أن يصف الخيل فى حالاتها المختلفة فهى عند الفزع تلقى بالسروج والأحزمة يقول : (٢)

وألقت من الإفزاع كل رحالة وكل حزام فضله يتذبذب

وهى قد تعودت على القتال حتى كأنها طير ثوابت فى السماء يقول (٣) :

إذا خرجت يوماً أعيدت كأنها عواكف طير فى السماء تقلب

وهى سريعة فى جريها ، تسرع إلى الحرب وتترامى إليها كما يترامى إليها الخذروف فى يد الغلام عند اللعب به يقول (٤) :

إذا قيل نهنها وقد جد جدها ترامت كخذروف الوليد المثقب

وهذه الخيل السريعة تباغت العدو فى الوديان ، وهى تهجم عليه فى ثروته هاوية بأيديها بعد أن فرقت السارح من الإبل المعزب عن أهله يقول: (٥)

فلم يرها الراؤون إلا فجاءة بواد تناصيه العضاة مصوب
ضوابع تنوى بيضة الحى بعدما أذاعت بريعان السوام المعزب

وهى فى جريها تثير الغبار الذى يسد مابين قوائمها يقول (٦) :

إذا استعجلت بالركض سد فروجها غبار تهاداه السنابك أصهب

---

(١) الديوان ٤٦.
(٢) الديوان ٤٤.
(٣) الديوان ٤٤.
(٤) الديوان ٢٢.
(٥) الديوان ٢٩.
(٦) الديوان ٤٤.

ويقول : (١)

كأن سدأً قطن النوادف خلفها ... إذا استودعته كل قاع ومذنب

إذا هبطت سهـــلا كأن غباره ... بجانبه الأقصى دواخن تنضب

كأن رعال الخيل لما تبددت ... بوادى جراد الهبوة المتصوب

وهصن الحصى حتى كأن رضاضه ... ذرى برد من وابل متحلب

فهى تثير من من خلفها الغبار فى الوديان،وفى مجارى المياه الجافة،وقداستحال الجو من ورائها إلى مثل دخان تنضب ، يتطاير الحصا فيه كأنه البرد من وقع حوافرها .

ولا يفوت طفيلا أن يصف لنا سير الخيل ، ويفصل أنواعه فهناك الخديان وهو ضرب من السير ، وكذلك التقريب ، والمزع وهو المر الخفيف السريع ، والمرطى ، وهو ضرب من الجرى السريع . يقول فى الخديان (٢) :

خدت حول أطناب البيوت وسوفت ... مراداً وان تقرع عصا الحرب تركب

ويقول فى التقريب (٣) :

فلم يبق إلا كل جرداء صلدم ... إذا استعجلت بعد الكلال تقرب

ويقول فى المزع (٤) :

وكل طموح الطرف شقاء شطبة ... مقربة كبـــداء سفواء تمزع

ويقول فى المرطى (٥) :

تقريبها المرطى والجوز معتدل ... كأنها سبـــد بالماء مغسول

---

(١) الديوان ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) الديوان ٢٨ .
(٣) الديوان ٤٦ .
(٤) الديوان ٥٤ .
(٥) الديوان ٥٧ .

ولا ينسى طفيل أن يتحدث عن عرق خيله عند عدوها الشديد فيقول(١):

كأن يبيس الماء فوق متونها أشارير ملح فى مباءة مجرب

فالعرق على ظهور الخيل كأنه الملح المبعثر على خصفة مجرب ، وضعت فى مراتع إبله . وبعد أن جرى الحصان جرياً متتابعاً ابتل من العرق وكأنه لبس ثوب مائح وهو الذى ينزل فى البئر فيملأ الدلو إذا قل ماؤها وهو أبداً مبلول يقول (٢) :

كأن على أعطافه ثوب مائح وإن يلق كلب بين لحييه يذهب

ويصفها وقد بدا العرق من جوانبها منصباً فيقول :(٣)

يذدن ذياد الخامسات وقد بدا ثرى الماء من أعطافها المتحلب

ويقول فى جواد قد شمله العرق حتى أصبح كالذئب ، وقد ابتل فى جنح الليل من المطر الساقط عليه (٤) :

كأنه بعد ما صدرن من عرق سيد تمطر جنح الليل مبلول

وقد حفل شعر طفيل بالحديث عن ألوان الخيل . وقد وصفت الشعراء فى الجاهلية ألوانها ، بعكس موقفهم من ألوان الابل فلم تلفت نظرهم كثيراً رغم تعدد ألوانها . لأنها ليست كالخيل فى جمال ألوانها وجاذبيتها ، ولهذا وجدنا كل الذين كتبوا عن الخيل أفردوا بحوثاً مستفيضة عن ألوانها، فى مخطوطة «فضل الخيل وما يستحب وما يكره من ألوانها» لشرف الدين أبى محمد عبد المؤمن الدمياطى فصل واسع عن ألوانها جاء فيه الشقرة: حمرة صافية، والكمتة : حمرة يدخلها قترة، والدهمة :سواد، والكمتة أحب الألوان إلى العرب ، يقال للذكر والأنثى كميت والجمع كميت من الأسماء المصغرة المرخمة التى لا تكبير لها من الكمت بمنزل حميد من أحمد ، غير أن أكمت لم تستعمل

---

(١) الديوان ٢٤.
(٢) الديوان ٢٧.
(٣) الديوان ٣٠.
(٤) الديوان ٦٠.

قال الأصمعى أشد الخيل جلوداً وحوافراً الكمت الحم، وهى التى اشتدت حمرتها، يقال كميت أحم ومدمى وهو الشديد الحمرة، وأحمر وهو أشد حمرة من المدمى وهو أحسن الكمت، ثم الغبرة والأغبر وهو الأشقر الذى شملت شقرته شهبة ويقال للأشهب أيضاً أضحى وللأنثى ضحياء، والضحياء اسم فرس عمرو بن عامر ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة وهو فارس الضحياء قال الشاعر :

أبى فارس الضحياء يوم هبالة   إذا الخيل فى القتلى من القوم تعثر (١)

ثم يجمل ألوانها فى قوله : « وألوان الخيل : أدهم وأخضر وأحوى، وكميت، وأشقر وأصفر، وأشهب وأبرش وملمع، وأشيم . هذا قول أبى عبيدة، وقال الأبيوردى فى رسالته ثم الحوة الداهمة ثم الصدمة ثم الخضرة ثم الكمتة ثم الوردة ثم الشقرة ثم الفعرة ثم الشهبة » (٢) .

وقد بهرت طفيلا ألوان الخيل بصورة شديدة فوقف أمامها يصفها ويسجل اختلافها على نحو ما نرى فى قوله (٣) :

وراداً وحواً مشرفاً حجباتها   بنات حصان قد تعولم منجب
وكمتاً مدماة كأن متونها   جرى فوقها واستشعرت لون مذهب

فهى خيل ذات ألوان مختلفة منها الأحمر الخفيف الحمرة، ومنها ما تشتد حمرته حتى يكون فى لون المقل . وهى خيل عتيقة لذلك أشرفت حجباتها، وهى من سلالة حصان يعرفه الجميع بأنه منجب كريم ، ونراه فى البيت الثانى يبهره اللون ويحيره فيقول :

---

(١) أبو محمد عبد المؤمن الدمياطى « كتاب فضل الخيل وما يستحب وما يكره من ألوانها » من ورقة ١١٥ — ١٢١ .
(٢) المصدر السابق ورقة ١٢١ .
(٣) الديوان ٢٣ .

« وكتنا » ثم يعقب عليها . بدماة . ثم يخيل إليه أن التعبير لم يفصح جيداً عن اللون فيقول : كأن متونها جرى فوقها لون مذهب واستشربته .

ويقول أيضاً عن ألوانها (١) :

أبو هن مكتوم وأعوج تفتلى ‌‌ ‌ ورادا وحوا ليس فيهن مغرب

وطفيل الشاعر الفارس الذى ساد قبيلته وقادها من أجل أن يغسل عار هزيمة محجر ، لايفوته أن يصف الغارات التى كان يشنهـــا وفرسان قبيلته على قبيلة طىء وغيرها من القبائل التى ناصبتهم العداء ، يقول (٢) :

وشد العضاريط الرحال وأسلمت ‌ ‌ إلى كل مغـــوار الضحى متلبب
فلم يرها الراؤون إلا فجـــاءة ‌ ‌ بواد تناصيـــه العضاة مصوب
رأى مجتنو الكراث من رمل عالج ‌ ‌ رعالا مطت من أهل شرج وتنضب
فألوت بغاياهم بنا وتباشـــرت ‌ ‌ إلى عرض جيش غير أن لم يكتب
فما برحوا حتى رأوا فى ديارهم ‌ ‌ لواء كظل الطائر المتقلب
رمت عن قسى الماسخى رجالنـا ‌ ‌ بأجود ما يبتاع من نبل يثرب
كأن عراقيب القطا أطرها ‌ ‌ حديث نواحيها بوقــع وصلب
كسين ظهار الريش من كل ناهض ‌ ‌ إلى وكره وكل جـــون مقشب
فلما فنا ما فى الكنائن ضاربوا ‌ ‌ على القرع من جلد الهجان المجوب

فقد شد الأجراء الرحال ، وأسلمت الخيل إلى الفرسان المسلحين ، الذين اعتلوا صهوتها وأسرعوا بها مفاجئين العدو فى واد كثير الشجر . وقد تباشر بهم الأعداء بادىء ذى بدء وحسبوهم عيراً تحمل البر ، ولكن لم يشعروا

(١) الديوان ٤٤ .
(٢) الديوان ٢٨ — ٣٢ .

إلا والغارة تنهمهم ودارت المعركة ، وفيها رمى فرسان غنى . بقسيهم الماسخية الأعداء . وكانت سهامهم جيدة لأنها صنعت فى يثرب . ثم لما فنى مافى كنائنهم من سهام ضاربوا بالتروس على الدروع المصنوعة من جلد الهجان .

وكما وصف طفيل الخيل وصف الأسلحة سواء أكانت هجومية أم دفاعية . فمن الأسلحة الهجومية التى حفل بذكرها الرماح والسيوف والقسى وما يتبعها من سهام . ومن الأسلحة الدفاعية الدروع يقول فى ذكر الرماح: (١)

وعوج كأحناء السراء مطت بها مطارد تهديها أسنة قعضب

فهو يتحدث فى هذا البيت عن فرس أضلاعها معوجة ، تشبه فروع شجر السراء الذى يستخدم فى صناعه القسى ، هذه الأضلاع نهضت بها أعناق تشبه الرماح فى استقامتها ، تهديها فى السير الأسنة المركبة فى أعاليها والتى صنعها قعضب المشهور بصناعة الأسنة الجاهلية .

ويقول : (٢)

من القوم لم تقلع براكاء نجدة من الناس إلا رمحه يتصبب

فهم قوم لا يخرجون من ميدان القتال إلا بعد أن تتصبب الدماء من رماحهم . ويقول متحدثا عن رماحهم الطوال المثقفة التى تفرى نحور الأعداء : (٣)

فنشنـــــاهم بأرماح طوال مثقفة بها نفرى النحورا

---

(١) الديوان ٢١ .
(٢) الديوان ٥٠ .
(٣) الديوان ١٠١ .

وننظر إليه فنجده يصف السيوف المشرفية والهندية فيقول :[1]

نخوى صدور المشرفية منهم وكل شراعى من الهند شرعب

فالشاعر وقبيلته يعملون القتل فى هامات الأعداء بسيوفهم المصقولة المصنوعة فى المشارف ، وكذلك سيوفهم الهندية فترتوى من دماء القتلى .

ويعود فيخص بالذكر المشرفى فى معرض حديثه عن نسب ابله فيقول :[2]

غنمنا أباها ثم أحرز نسلها ضراب العدى بالمشرفى المصمم

ويتحدث عن القسى والسهام والتروس فيقول : [3]

رمت عن قسى الماسخى رجالنا بأجود مايبتاع من نبل يثرب
كأن عراقيب القطا أطرها حديث نواحيها بوقع وصلب
كسين ظهار الريش من كل ناهض إلى وكره وكل جون مقشب
فلما فنا مافى الكنائن ضاربوا على القرع من جلد الهجان المجوب

يقول إن حملة القسى من فرسان قومه رموا بالنبال اليثربية . هذه النبال التى تشبه سنانها عراقيب القطا فى الدقة والصغر ، وقد سويت نواحيها بالمطرقة والمسن ، كما كسيت هذه السهام بقصير الريش المنتوف من النسر الصغير والنسر الكبير المقشب . وأن حملة القسى هؤلاء لما فنا ما فى كنائنهم من سهام ضاربوا على التروس المصنوعة من أحسن الجلود ، والتى قد جعلت طبقة فوق طبقة .

---

(١) الديوان ٣٢ .
(٢) الديوان ٧٩ .
(٣) الديوان ٣١، ٣٢ .

ويقول فى السهم : (١)

وأصفر مشهوم الفؤاد كأنه ‏ ‏ غداة الندى بالزعفران مطيب
تفلت عليه تفلة ومسحته ‏ ‏ بثوبى حتى جلده متقوب
يراقب إحياء الرقيب كأنه ‏ ‏ لما وتروني آخر اليوم مغضب

إن هذا السهم يخرج من القوس سريعاً ، وهو أصفر اللون فإذا ما أصابه الندى ازداد صفرة حتى كأنه مطيب بالزعفران ، وقد تفلت عليه ثم مسحته بثوبى فسقط من جلده مثل القوباء . وهو يراقب إحياء الرقيب كما لو كان فى حالة غضب للخسارة التى منى بها فى مغيب النهار .

ويقول فى الدرع : (٢)

لهن نشباك الحديد تقاذف ‏ ‏ هوى رواح بالدجنة يعجب

إن المرء يعجب حينما يرى سرعة الخيل وتراميها فى الجرى فيسمع صوت الدروع كما يسمع صوت المطر .

ولم يقف فن الوصف عند طفيل عند وصف الخيل والأسلحة والمعارك ، وإنما تعدى ذلك إلى وصف الابل ، ولكنه فى وصفها لم يبلغ المنزلة التى بلغها فى وصفه للخيل،وسبق أن ذكرنا حينما تحدثنا عن سيادته لقبيلته أنقلنا إنالسعة فى الثروة كانت من الأمور التى ترشح لسيادة القبيلة ، وإن طفيلا كان يملك المئات من الإبل ، وإنه قد وصف ابله هذه . ففى قصيدته التى قالها يمدح الحارث

---

(١) الديوان ٥ .
(٢) الديوان ٤٦ .

ابن كعب وكان نزل على الرمال بابله وهو متأنف يطلب أنف الكلأ يقول عن ابله : (١)

إذا دعاهن ارعــوين لصوته ... كما يرعوى غيد إلى صوت مسمع
تبيت أوابيها عواكف حوله ... عكوف العذارى حول ميت مفجع
وقد سمنت حتى كأن مخاضها ... تفشغها ظلع وليست بظلع

فهو يصف هذه الابل وقد دعاها لخلها فاستجابت لدعائه ، وطربت لسماع صوته ، كما يرعوى فتيان سكارى عند سماعهم صوت مغن ، وأن اللواتى أبينه يبتن عواكف حوله كأنهن عذارى يبتن حول ميت لجمن فيه ، وهذه الابل من افراط سمنها كأنها تمشى مشى الظلع وان كانت غير ظلع .

ويصف ابله فيقول (٢)

أهلت شهور المحرمين وقد تقت ... بأذنابها روعات أكلف مكدم
أسيل مشــك المنخرين كأنه ... إذا استقبلته الريح مسعط شبرم
تسوف الأوابى منكبيه كأنها ... عذارى قريش غير أن لم توشم
عوازب لم تسمع نبوح مقامة ... ولم تر نــاراً تم حول مجرم
سوى نار بيض أو غزال بقفرة ... أغن من الخنس المناخر تو أم
إذا راعياها أنضجــاه ترامياً ... به خلسة أو شهــوة المتقرم
إذا ما دعاها استسمعت وتأنست ... بسحماء من دون الغلاصم شدقم

فهذه الابل كأنها دخلت إلى الأشهر الحرم ، لأن الفحل إذا أرادها اتقته

---

(١) الديوان ٥٢ .

(٢) الديوان ٧٧ ، ٧٨ .

بأذنابها ، وفحل هذه الإبل ليس بأخزم لأن أنفه سليمة لم تثقب ، وهو أبدا رافع رأسه كأنه أسعط شبرما ، والشبرم شجر يسعط به الإنسان فيرفع رأسه .

والإبل التى أبته من حوله تشم منكبيه كأنها عذارى قريش من حسنها ، غير أنها لم توشم ، وهذه الإبل بعيدات عن البيوت ، تبيت بالصحراء لعز أربابها ، ترعى حيث شاءت لا تمنع ولا تخاف ، فلم تسمع أصوات أهل مقامة ، ولم تر ناراً سنة تامة سوى نار أشعلها راع ليشوى بيض نعام ، أو غزال ضئيل قصير الأنف يصيده ، حتى إذا نضج لحم هذا الغزال تراى المجتمعون بلحمه .

ولما كان طفيل ابنا من أبناء الصحراء فقد أخذت مناظرها الطبيعية عليه ، ما فى أرضها وسمائها فجعلته يتغنى بها ويصفها على نحو ما ترى فى هذه الأبيات التى يرسم فيها منظراً للسحاب والبرق حيث يقول :(١)

أصاح ترى برقا أريك وميضه	يضىء سناه فوق أثل مركم
أسف على الأفلاج أيمن صوبه	وأيسره يعلو مخارم سمسم
له هيدب دان كأن فروجه	فويق الحصى والأرض أرفاض حنتم
أبست به ريح الجنوب فأسعدت	روايا له بالماء لما تصرم

وطفيل كعادة الشعراء الجاهليين يوجه الخطاب لأحد الرفاق كى ينظر إلى هذا البرق المتألق ، وقد أضاء بلمعانه عيدانا مركمة فوق بعضها من شجر الأثل ، وهذا السحاب جانبه الأيمن منخفض قريب من الأرض ، أما جانبه الأيسر فيرتفع فى طرقات جبل سمسم . وهذا السحاب المنخفض تحوم على وجه الأرض أطرافه ونواحيه وكأن قطعه السود القريبة من الأرض كسر جرار مسودة ومخضرة . وقد استدرت ريح الجنوب هذه السحب كما تستدر الناقة ، فأجابتها الروايا بالماء المنهمر الذى لم ينقطع .

---

(١) الديوان ٧٥ ، ٧٦ .

ومن المناظر الطبيعية التي وصفها طفيل منظر المياه الآجنة على نحو ما نرى في قوله يصف غديرا عليه الطحلب الأخضر وقد انبسطت عليه الضفادع، وهذا الغدير إذا ما هبت عليه الريح من أي ناحية امتصت أمواجه في تردادها وعصوفها التراب فيقول (١) :

فباكرن جـــونا للعلاجيم فوقه ... مجالس غرقى لا يحـلأ ناهله
إذا ما أتته الريح من شطر جانب ... إلى جانب حاز التراب بجاوله

ومن المناظر المـألوفة في الصحراء الأخبية أو الخيام . وقد وصف لنا طفيل في أول قصيدة في ديوانه خيمة من هذه الخيام فقال : (٢)

وبيت تهب الريح في حجراته ... بأرض فضاء بابه لم يحجب
سماوته أسمـال بـرد محبر ... وصهوته من أتحمى معصب
وأطنابه أرسان جرد كأنهـا ... صدور القنا من بادىء ومعقب
نصبت على قوم تدر رماحهم ... عروق الأعادي من غرير وأشيب

فهو يقول رب بيت نصبه على نفسه في فضاء متسع من الأرض يجد الهواء في نواحيه طرقه، وقد ترك بابه مفتوحاً لـكل مار وكل خاطر ، ومن صفات هذا البيت أن أعلاه قد صنع من أسمال برد محبر ، في حين أن جوانبه قد صنعت من الأتحمى المعصب . ويقول أنه نصب هـذا البيت على قوم منهم غرير وأشيب .

ويمـكننا القول بأن ما ذكرناه هو كل جوانب الوصف عند طفيل إذا لم نجد في ديوانه جوانب أخرى من هذا الفن ، فلم يصف الصحراء أو السراب كما لم يصف الصيد أو الحمر الوحشية أو الثور الوحشي أو نحو ذلك مما نجده

---

(١) الديوان ٨٤ .
(٢) الديوان ٣ ، ٤ .

عند غالبية الشعراء الجاهليين . وربما كان مرد ذلك أن أشعار طفيل لم تصلنا جميعها وإنما ذهب من شعره أكثر مما وصلنا .

* * *

٢ الفخــــر :

يعد موضوع الفخر من الموضوعات الهامة التى طرقها طفيل فى شعره . والظاهرة الجديرة بالتسجيل فى فخر طفيل أنه فخر بالقبيلة وتسجيل لمآثرها وانتصاراتها وأمجادها، إذ يجعل من لسانه ومن شعره صحيفة لها. ولكن ليس معنى ذلك أن شعره يخلو تماماً من فخره بنفسه ،وتصوير جوانب شخصيته المختلفة فقد وجدنا فى شعره ما يصور ملامح شخصيته وما يتحدث فيه بضمير المفرد ، ولكن الذى أحب أن أقرره عن فخر طفيل أن الشخصية القبلية فيه أقوى وأوضح من الشخصية الفردية ، وأن اهتمامه بتصوير جوانب الحياة القبلية أشد من إهتمامه بتصوير الجوانب الفرديه فى شخصيته ، وأن الغاية الأساسية من فخره إنما هى ارضاء للنزعة القبلية قبل أن تكون ارضاء لأية نزعة أخرى .

وما وجدناه من فخر عند طفيل بنفسه فإنما هو فخر بها من حيث هو فرد فى جماعة يعود عليها كل ما يذكره عن نفسه ، فهو لا يذكر شيئاً ليعلن أنه منفرد به بين قومه، وانما ليعلن أنه صورة من جماعته أو مثل لها ، فالغاية عنده القبيلة وإن تكن الوسيلة فردية .

وطفيل يفتخر بقومه ، ويعتز بأن فيهم المقاتلين الأشداء المدربين على القتال الذين ورثوا هذه الصفات عن أسلافهم يقول :[١]

وفينا ترى الطولى وكل سميدع ‏ ‏ ‏ ‏ مدرب حرب وابن كل مدرب

---

(١) الديوان ٢٠ .

طويل نجاد السيف لم يرض خطة   من الخسف ورّاد إلى الموت صقعب
تبيت كعقبــان الشريق رجاله   إذا ما نووا احداث أمر معطب
وفينا رباط الخيــل كل مطهم   رجيل كسرحان الغضا المتأوب

وجيش غني يتكون من سادة أشراف جمعوا الشرف من كلا الطرفين الآباء والأمهات ، كما أنهم يذهبون إلى ميدان القتال على صهوات الخيل مستعدين بأسلحتهم وعتادهم . وفرسانهم كثيرو العدد جلهم من غني ، وليسوا أخلاطا من سائر القبائل ، وقد شنوا الغارة على طيء واستطاعوا أن يغنموا خيلا ويجلبوها من ديارهم البعيدة يقول :(١)

قبائل من فرعى غني تواهقت   بها الخيل لا عزل ولا متأشب
ألا هل أتى أهل الحجاز مغارنا   على حي ورد وابن ريا المضرب
جنبنا من الأعراف أعراف غمرة   وأعراف لبنى الخيل يا بعد مجلب

ويفخر بشجاعة فرسان قبيلته لأنهم غنموا فحل ابله ، وأحرزوا نسله بسيوفهم المشرفية فيقول : (٢)

غنمنا أباها ثم أحرز نسلها   ضراب العدى بالمشرفى المصمم
وكل فتى يردى إلى الحرب معلما   إذا ثوب الداعي وأجرد صلدم
وسلهبة تنضو الجيــاد كأنها   رداة تدلت من فروع يلملم
فذلك أحيــاها وكل معمم   أريب بمنع الضيف غير مضيم
وما جاوزت إلا أشم معاودا   كفاية ما قيل اكف غير مذمم
إذا ما غدا لم يسقط الخوف رمحه   ولم يشهد الهيجا بألوث معصم

فهم فرسان على أهبة الاستعداد ، إذا ما دعا داع لبى كل فتى منهم دعوته

---

(١) الديوان ٢٢ .
(٢) الديوان ٧٩ .

مسرعا بجواد كريم عظيم ، أو فرس طويلة تسبق غيرها من الجياد. وهذه الخيل والإبل احياها كل سيد حازق عاقل لا يقبل خطة خسف أو ظلم ، قادر على حماية المستجير واكرام الضيف ، قاتل عنها أولئك فبقيت ، وهم سادة شم لا يضعون أنوفهم لمذلة ، قادرون على حماية ممتلكاتهم من خيل وابل ، لا يأتون الصغار ، وما يذمون عليه ، إذا ذهب السيد منهم إلى القتال لم يرتعد خوفا حتى يسقط رمحه ، وليس الفارس من فرسانهم مسترخيا ضعيفاً يعتصم بسرجه مخافة أن يقع فيسقط .

وكانت بين غنى وطىء ثارات وحروب دامية بسبب وقيعة محجر التى انتصرت فيها طىء على غنى ، ولكن فرسان غنى بقيادة طفيل أغاروا على طىء ودخلوا جبلى سلمى وأجأ وسبوا سبايا كثيرة ، لذلك وجدنا طفيلا يتغنى كثيرا بهذا الانتصار الذى غسل عار هزيمتهم وذلك من مثل قوله : (١)

فذوقــــوا كما ذقنا غداة محجر ... من الغيظ فى أجوافنا والتحوب
أبأنا بقتلانا من القوم مثلهم ... وما لا يعد من أسير مكلب
نخوى صــــدور المشرفية منهم ... وكل شراعى من الهند شرعب
بضرب يزيل الهام عن سكناتها ... وينقع من هام الرجال بمشرب
فبالقتل قتــــل والسوام بمثله ... وبالشل شل الغائط المتصوب
وقد كان حيانا عدوين فى الذى ... خلا فعلى ما كان فى الدهر فارتب
إلى اليوم لم نحدث إليكم وسيلة ... ولم تجدوها عندنا فى التنسب
جزيناهم أمس القطيمة اننا ... متى ما تكن منا الوسيقة تطلب
فأقلعت الأيام عنــــا ذؤابة ... بموقعنا فى محرب بعد محرب
ولم يجـــد الأقوام فينا مسبة ... إذا استدبرت أيامنا بالتعقب

---

(١) الديوان ٣٢ — ٣٦ .

فطفيل وفرسان قبيلته قد ثأروا لأنفسهم من هزيمة محجر ،وغسلوا عارها، واستطاعوا أن يثأروا لقتلاهم بسيوفهم المشرفية والهندية التى ارتوت من دماء الأعداء ، بعد أن أزالوا الرءوس عن مواضعها . وهم أعلا القوم شرفا وأشرفهم نسبا . ومن أراد أن يتدبر أيامهم وينظر فى عاقبتهم فلن يجد أمرا مشينا . وفى غارتهم على طىء ودخولهم جبلى سلمى وأجأ يقول : (١)

ألا هل أتى أهل الحجاز مغارنا ... ومن دونهم أهل الجناب فأيهب

شآميـــة إن الشآمى داره ... تشق على دار اليمانى وتشعب

وفرنا لأقوام بنيهم ومالهم ... ولو القياد المتتب لأعزبوا

بحى إذا قيل اركبوا لم يقل لهم ... عواوير يخشون الردى أين يركب

ولـكن يجاب المستغيث وخيلهم ... عليها حماة بالمنية تضرب

فباتوا يسنون الزجاج كأنهم ... إذا ما تنادوا خشرم متحدب

أرحنا بأسراهم مع النهب بعدما ... صبحناهم ملمومة لا تـكذب

فهو يقول إن غارتهم على طىء كانت مشهورة ، علمت بها بلاد الحجاز ومن يشغها من قريش وغيرهم ، كما علم بها أهل بلدى الجناب وأيهب . وكانت غارتهم موجهة ناحية جبلى سلمى وأجأ حيث تسكن طىء ، ومن هنا كانت المسافة بعيدة إذا تعد صعبة وشاقة بالنسبة لمن يسكن اليمن ، وقد استطاعوا نتيجة لهذه الغارة أن يردوا على القوم أموالهم وبنيهم التى سلبها الطائيون من قبل ، ولولا هذا القياد المتتابع لذهبت أموالهم ، ولصاروا معزبين . وهؤلاء الفرسان الغنويون من حى أفراده شجعان ، لو ناداهم مستغيث طالبا منهم النجدة لا يجد فيهم ضعيفا سائلا عن الوجهة . بل يلبون النداء، وقد امتطوا صهوات الخيول . وفى ضربات أسلحتهم الموت الزؤام . وهم يبيتون يسنون الأسنة استعداداه للمعركة ، ومن

---

(١) الديوان ٤١ ـــ ٤٤ .

كثرتهم حين يجيئون من هنا وهناك يتعطفون مثل الزنابير والنحل فى كثرتها ، وبعد المعركة عاد الفرسان بالأسرى والغنائم بعد أن هجموا على أعدائهم فى الصباح بكتيبة لا تحجم عن إحراز النصر ، وكان التوفيق حليفها.

وفى نفس القصيدة يقول مفتخرا بمناسبة هزيمتهم لطىء وادراك ثأرهم فى محجر : (١)

فنلنا بقتلانا من القوم مثلهم	وبالموثق المكلوب منا مكلب
وبالنعم المأخوذ مثل زهائه	وبالسبي سبي والمحارب محرب
وبالمردفات بعد أنعم عيشة	على عدواء والعيون تصبب
عذارى يسحبن الذيول كأنها	مع القوم ينصفن العضاريط ربرب
إلى كل فرع من ذؤابة طىء	إذا نسبت أو قيل من يتنسب
وبالبيضة الموقوع وسط عقارنا	نهاب تداعى وسطه الخيل منهب

فهم قد انتقموا لأنفسهم فقتلوا كما قتل منهم ، وأسروا وقيدوا بالحديد كما أسروا ووثق منهم ، وغنموا من الأبل زهاء ما أخذ منهم من قبل ، وحاربوهم رداً لاعتبارهم . ويفتخر طفيل فخراً يوجع فيه طىء فقد سبوا نساء طىء اللاتى كن فى نعيم وحسن عيشة وأرد فوهن ، وقد تصببت عيونهن بالدمع ، وقد وصل نساء طىء إلى حالة من الذل يرثى لها ، فهن يخدمن أجراء غنى ، ويسرن ساحبات الذيول كأنهن قطيع من البقر . وهؤلاء النسوة الذليلات من أشرف طىء نسبا ،وأعلاهن حسبا ومقاما . وقد أسقطن وجعلن نهبا مباحالهم . ولم يقف الأمر بالنسبة لقبيلة غنى عند حد الدفاع عن نفسها و الأخذ بثأرها، بل كان فرسانها يهبون للذود عن القبائل التى تتعرض للعدوان ، فقد كانت قبيلة فزارة قد لقيت قبيلة بني أبي بكر بن كلاب وجيرانهم من محارب فأوقعت بهم وقعة

---

(١) الديوان ٤٦ ، ٤٧ .

فأدركتهم غنى فأستنقذتهم . فلما قتلت طىء قيس الندامى ، وقتلت بنو عبس هرم بن سنان بن غنى واستغاثت غنى ببنى أبى بكر وبنى محارب وقعدوا عنهم قال طفيل فى ذلك مشيدا بما كان من فرسان قومه . مفتخراً بما كان منهم فى نصرة بكر ومحارب ماانا عليهم : (١)

وحى أبى بكر تداركن بعدما	أذاعت بسرب الحى عنقاء مغرب
رددن حصينا من عدى ورهطه	وتيم تلــبى بالعروج وتحلب
وحيا من الأعيار لو فرطتهم	أشتوا فلم يجمعهم الدهر مشعب
وهن الألى أدركن تبــل محجر	وقد جعلت تلك التنابيل تنسب
وقال أناس يسمعون كلامهم	هم الضامنون ما تخافون فاذهبوا
فما برحوا حتى رأوها تكبهم	تصعد فيهم تارة وتصــوب
يقولون لما جمعوا الغدو شملهم	لك الأم منا فى المواطن والأب
وكنا إذا ما اغتفت الخيل غفة	تجرد طــلاب الترات مطلب
من القوم لم تقلع براكاء نجدة	من الناس إلا رمحه يتصبب
ففاز بنهب فيه منهــم عقيلة	لها بشر صاف ورخص مخضب
فلا تذهب الأحساب من عقر دارنا	ولكن أشباحا من المال تذهب

وواضح أن طفيلا يفخر بفرسان قبيلته لاستنقاذهم لأبى بكر بن كلاب بعد أن هجمت عليهم فزارة ، كما يفخر بهم لتخليصهم حصينا وانقاذه من عدى وردهم عليه ابله . كما أنقذوا حى محارب واستطاعوا أن يعيدوا السبيات ذوات البشرة الصافية والأيدى الناعمة المخضبة .

وواضح من الأبيات التى عرضناها ارتباط الفخر بقبيلته، فهى الهدف

---

(١) الديوان ٤٧ ، ٥١ .

الأساسي فى فخره ، وهى الغاية الأولى والأخيرة التى جعل شعره فى خدمتها ، وهو فى هذه القصيدة يفخر بقبيلته وفرسانها حينما قتل أحد الغنويين ابن عروة الرحال فأبت بنو جعفر أن يأخذوا دية جعفرى من غنوى فارتحلت عنهم غنى فقال طفيل فى ذلك يفخر بقبيلته ويذكر جعفرا بمواقفهم : (١)

بنى جعفر لاتكفروا حسن سعينا وأثنوا بحسن القول فى كل محفل
ولاتكفروا فى النائبات بلاءنا إذا مسكم منها العدو بكلكل
فنحن منعنا يوم حرس نساءكم غداة دعاناه عامر غير مؤتلى
دعا دعوة يال الجليحاء بعدما رأى عرض دهم صرع السرب مثعل
فقال اركبوا أنتم حماة لمثلها فطرنا إلى مقصورة لم تعبل
فجاءت بفرسان الصباح عوابسا سراعا إلى الهيجا معا غير عزل
فأحش أولاهم وألحق سربهم فوارس منا بالقنا المتنخل
فحامى محامينا وطرف عنهم عصائب منا فى الوغى لم تهلل
رددنا السبايا من نفيل وجعفر وهن حبالى من مخف ومثقل

فهو هنا يطلب من قبيلة بنى جعفر معاتبا أن تتذكر حسن سعيهم ، وألا تجحد هذا المعروف وتتنكر له ، وأن تثنى على ماسبق أن فعلته غنى معها ، كما يطلب منها أن يتذكروا حسن بلائهم فى الملمات ، حينما مس العدو بنى جعفر بالأمور العظام ، إذ حمت غنى يوم حرس نساء بنى جعفر ، وذلك حينما استنجد عامر بهم ودعاهم دعوة سريعة لاتحتمل التأخير . وقد دعاهم هذه الدعوة السريعة بشعارهم الذى كانوا يعرفون به ، وقد فرق أموالهم وابلهم الكثيرة . وطلب منهم عامر أن يركبوا الخيل المحبوسة عند البيوت حتى يحموا سربهم الكثير وأموالهم ، فأسرعوا إلى الخيل التى حملتهم إلى الهيجاء بعد أن

---

(١) الديوان ٦٦ ، ٦٧ .

لبسوا للحرب لبوسها ، وفى أيديهم السيوف والرماح فطعنوا العدو طعنا شبيها بوقود النار ، وقد غنم فوارس غنى من العدو الكثير ، واستطاعوا أن يردوا السبايا من نفيل وجعفر .

وفى نفس القصيدة يفخر باسم قبيلته قائلا :(١)

وكائن كررنا من جواد وراءكم   وكائن خضبنا من سنان ومنصل
وكائن كررنا من سوام عليكم   ومن كاعب ومن أسير مكبل

ويفخر طفيل هنا باسم فرسان قبيلته فهم كثيراً ما عطفوا على الأعداء بالعتيق من الخيل فردوا الابل والأسرى والنساء ، وكثيرا ما أمنوا الخائف، وأنزلوه منزلا حسنا ، وسووه بأنفسهم كما فعلوا مع طفيل بن مالك .

وبجانب فخر طفيل بقبيلته غنى نجده لاينسى نفسه فى مجالات فخره على نحو مانرى فى قوله متغنيا بشجاعته وحمايته لمن يلجأ إليه فى المعركة : (٢)

وراكضة ما تستجن بجنة   بعير حلال راجعته مجعفل
فقلت لها لما رأيت الذى بها   من الشر لا تستوهلى وتأملى
فإن كان قومى ليس عندك خيرهم   فان سؤال الناس شافيك فاسألى
ومستلحم تحت العوالى حميته   معمم دعوى مستغيث مجلل
ففرجت عنه الكرب حتى كأنما   تأوى من الهيجا إلى حوز معقل
مشيف على إحدى اثنتين بنفسه   فويت المعالى بين أسر ومقتل
برماحة تنفى التراب كأنها   هراقة عق من شعيبى معجل
إذا نظرت فيه الحفية ولولت   خنوفا بكفيها بعيد التولل

---

(١) الديوان ٦٩ — ٧٠ .
(٢) الديوان ٦٨ — ٦٩ .

فهو يقص علينا قصة امرأة فى المعركة أنساها الخوف والفزع الاستتار ، وكانت تركض بعيرا بجمفل المتاع . ثم نراه فى أبياته هذه يستخدم ضمير المتكلم كما يقص علينا قصة رجل استنجد به فى المعركة ولاذ بملجأه واستغاث بقومه فأسرع طفيل لنجدته وكشف عنه الكرب ، حتى كأنه عاد إلى معقله المنيع ، وقد كان قبل ذلك فى شدة مابعدها شدة إذ أشرف على احدى اثنتين الأسر أو القتل، وفاتته المعالى، ولكن طفيلا سدد للعدو طعنة نفت التراب بالدم، وكأنها طعنة أحدثت شقا فى مزادتين مملوءتين باللبن . هذه الطعنة إذا نظرت فيها المشفقة ولولت وقلبت كفيها .

كما يفخر طفيل بقومه لأنهم يتخذون الخيل المطهمة التى تشبه ذئاب الغضا فى عدوها ، فهى خيل سريعة تطرح الأرض بقوائمها طرحا شديدا ، ضامرة من كثرة قيادها، إذا سارت أشرفت بعنق طويل يسبق الخيل يقول [١] :

وفينا رباط الخيل كل مطهم رجيل كسرحان الغضا المتأوب
يذيق الذى يعلو على ظهر متنه ظلال خزاريف من الشد ملهب
وجرداء ممراح نبيل حزامهـا طروج كعود النبعة المتنخب
تنيف إذا اقورت من القود وانطوت بهاد رفيع يقهر الخيل صلهب

٢ الرثـــاء :

وقد اتصل هذا الموضوع عند طفيل بالحماسة اتصالا وثيقا ، فقد رثى فرسان قومه الذين سقطوا فى المعارك بين قبيلته وغيرها من القبائل العربية التى ناصبتها العداء كطىء وعبس وغيرها ، وقد رثى هؤلاء الفرسان بأبيات حماسية بغية أن يثير قبيلته كى تأخذ بثأرها ، وخاصة بعد أن هزمتها قبيلة طىء فى محجر ،

---

(١) الديوان ٢٠ .

وهو فى رثائه يمجد خلالهم ويصف مناقبهم التى فقدتها القبيلة فيهم ، حتى يسرع فرسان غنى إلى حرب من قتلوهم . وهذا الاتجاه يجعلنا مقتنعين بالقول ، بأن الرثاء بدأ فى الشعر الجاهلى بداية حماسية مرتبطة بالدور الذى كان الشاعر يقوم به فى المجتمع القبلى .

وفى الحقيقة كان رثاء طفيل لفرسان قومه جامعا لهدفين ، الهدف الأول خدمة القبيلة وحثها على الأخذ بالثأر ، وبهذا يتجلى لنا دور طفيل فى خدمة مجتمعه القبلى ، والهدف الثانى اظهار عواطف طفيل الإنسانية ، وتصوير حزنه العميق ازاء ما أصابه به الزمن فى فقد هؤلاء الفرسان الذين تربوا معه وعاشوا ، أو كما يسميهم فى القصيدة التالية « الندامى » .

وفى هذه القصيدة يرثى طفيل بعض فرسان قومه ممن قتلوا فى المعارك التى كانت بينهم وبين طىء وفزارة ، وكانت لقيت أبا بكر بن كلاب ومحارب فقتلتهم فأدركتهم غنى واستنقذتهم فقال فى ذلك : (١)

تأوبنى هم مع الليــل منصب ... وجاء من الأخبار مالا أكذب
تظاهرن حتى لم تكن لى ريبة ... ولم يك عما أخبروا متعقب
وكان هريم من سنان خليفة ... وحصن ومن أسماء لما تغيبوا
ومن قيس الثاوى برمان بيتة ... ويوم حقيل فاد آخر معجب
وبالسهب ميمون الخليقة قوله ... لملتمس المعروف أهل ومرحب
كواكب دجن كلما غاب كوكب ... بدا وانجلت عنه الدجنة كوكب
لعمرى لقد خلى ابن خيدع ثلمة ... فمن أين إن لم يرأب الله ترأب
وبالخير إن كان ابن خيدع قد ثوى ... يبنى عليه بيته ويحجب

---

(١) الديوان ٣٧ .

مضوا سلفا قصد السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تقلب

وواضح من الأبيات تأثر طفيل الشديد لفقده فرسان قومه، فقتل منهم هريم، وحصن، وأسماء بن واقد، وقيس بن عبد الله، وغيرهم كثير، وقد كان هؤلاء الفرسان كالكواكب التي تنير في الظلام.

وفي قصيدة أخرى يرثي طفيل أحد الفرسان ويسميه في الأبيات زرعة، ولعلة زرعة بن عمرو بن خويلد وقتل في معركة رحرحان (١)، وبنو بكر بن كلاب المشار إليهم في البيت السادس قومه يقول: (٢)

ألم أر هالكا في الناس أودى كزرعة يوم قام به النواعي
أجل رزيئة وأعز فقدا على المولى وأكرم في المساعي
وأغزر نائلا لمن اجتداه من العافين والهلكى الجياع
وأكثر رحلة لطريق مجد على أقتات ذعلبة وساع(٣)
وأقول للتي ندبت بنيها وقد رأت السوابق لاتراعي
شهيدي بالذي قد قلت فيه بنو بكر وحي بني الرواع
فلا فرح بخير ان أتاه ولا جزع من الحدثان لاع
ولا وقافة والخيل تردى ولا خال كأنبوب اليراع

ويبدو في الأبيات حرص طفيل على ذكر الصفات التقليدية التي حرص الشعراء الجاهليون على تأبين موتاهم بها، فوصفه بالشجاعة، والكرم، ورباطة الجأش، وعلو الهمة، والدربة في الحياة.

---

(١) النقائض ١٠٦٢، والأغاني ٢٢/١٠.
(٢) الديوان ١٤٤.
(٣) الذعلبة: بالكسر الناقة السريعة.

المــدح :

لم يكن طفيل من الشعراء المـــداحين المتكسبين الذين ظهروا فى أواخر العصر الجاهلى ، وظهر عندهم المدح موضوعاً بارزا من موضوعات شعرهم ، يتخذون منه وسيلة إلى الكسب . فقد كان المدح بالنسبة إلى هؤلاء الشعراء احترافا ووسيلة لطلب العطاء والجوائز ، وكان منهم من يفد على السادة والملوك يمدحهم وينال عطاياهم وجوائزهم كزهير بن أبى سلمى الذى اختص بمدح هرم ابن سنان والحارث بن عوف ، والنابغة الذبيانى الذى اختص بمدح النعمان بن المنذر ، ومد مدائحه إلى ملوك الغساسنة ، وكذلك حسان الذى اختص بالغساسنة وكذلك فعل الأعشى الذى رحل إلى الملوك والسادة فى أنحاء الجزيرة العربية ، أو فيما حولها من بلدان يمدحهم وينال جوائزهم .

لم يكن طفيل من هؤلاء الشعراء الذين اتخذوا من المدح حرفة يتكسبون من ورائها ، ولكن مدحه كان من هذا النوع الذى بدأ فى الشعر الجاهلى بداية طبيعية بسيطة ، إذا كان الشعراء يمدحون سادة قبائلهم أو سادة القبائل الأخرى التى يجدون فيها كرم الجوار ، أو الذين تمتد مآثرهم إلى من حولهم من القبائل ، كأن يفتدوا أسيراً أو يجيروا مستغيثا أو يدفعوا الظلم عن مظلوم ، أو نحو ذلك من أعمال جليلة يقدرها لهم مجتمعهم . ومن هؤلاء الشعراء الذين كان طفيل على شاكلتهم امرؤ القيس الذى مدح من أجاروه وعطفوا على قضيته حين طالب بثأر أبيه .

وفى ديوان طفيل قصيدة قالها يمدح بها الحارث بن كعب يقـــول فيها :(١)

---

(١) الديوان ٥٣ ، ٥٤ .

بجاورة عبد المدان ومن يكن ... بجاورهم بالقهـــر لا يتطلع
أناس إذا ما أنكر الكلب أهله ... حموا جارهم من كل شنعاء مضلع
وإن شلت الأحياء بات ثويهم ... على خـــير حال آمنا لم يفزع
وكل طموح الطرف شقاء شطبة ... مقربة كبداء سفواء ممـــزع
تجيء بفرسان الصباح عوابسا ... مسومة تردى بكل مقنـــع

فطفيل فى أبياته يخص بالمدح أسرة عبد المدان بن الديان ، لأنهم أنزلوهم خير منزل، وكفلوا لهم الحماية والأمن . وهو يمدحهم بالعزة والمنعة والكرم والشجاعة .

وفى ديوانه قصيدة أخرى يمدح بها بنى سعد بن عوف يقول فيها :(١)

جزى الله عوفا من موالى جنابة ... ونكراء خيراً كل جار مودع
أباحوا لنا قوا فرمـــلة عالج ... وخبتاً وهل خبت لنا متربع
إذا فزعوا طاروا بجنبي لوائهم ... ألوف وغايات من الخيل تقدع
وقد علموا أنا سنأتى ديـــارنا ... فيرعون أجواز العراك ونرفع
وقد حاذروا ما الجار والضيف مخبر ... إذا فارقا كل بذلك مولـــع
وما أنا بالمستنكر البين إننى ... بذى لطف الجيران قدما مفجع
جديراً بهم من كل حى ألفتهم ... إذا أنس عزوا على تصدعوا
وكنت إذا جاورت أعلقت فى الذرى ... يدى فلم يوجد لجنبى مصرع
أرى ابلى لا تنكع الورد خضعاً ... إذا شل قوم فى الجوار وصعصعوا
تربع أذوادى فما إن يروعها ... إذا شلت الأحياء فى الرمل مفزع
حمتها بنو سعد وحد رماحهم ... وأخلى لها بالجزع قف وأجرع

---

(١) الديوان ٨٥ ـ ٨٦ .

فني هذه الأبيات يدعو الله أن يجزى بنى سعد أحسن الجزاء لما يقدمونه من مساعدات لكثير من القبائل العربية التى لاتتصل بهم بنسب اللهم إلا أن تتخذمن جوارهم ملجأ،كما يثنى عليهم بصفات تقليدية حرص الشعراءعلى اسنادها لمدوحيهم وهى الشجاعة ، والكرم ، والحذر ، والسيادة ، والعزة .

وفى ديوان طفيل قصيدة يمدح فيها جعفر بن كلاب، وقد ظلت غنى فترة طويلة من الزمن فى جوارهم إلى أن قتل أحد الغنويين ابن عروة الرحال فأبت بنو جعفر أن يأخذوا دية جعفرى من غنوى فارتحلت غنى عنهم ونزلت فى بنى أبى بكر عند جواب وهو (مالك بن كعب بن عبيد بن أبى بكر)(١) .

فهذه الأبيات التالية فى موضوع المدح قالها قبل حدوث هذه الأزمة حينما كان وقبيلته يتمتعون بحماية بنى جعفر قال : (٢)

أمن رسوم بأعلى الجزع من شرب   فاضت دموعك فوق الخد كالشرب
لايظعنون على عمياء إن ظعنوا   ولا يطيلون إخمادا عن السرب (٣)
ويل أم حى دفعتم فى نحـــورهم   بنى كلاب غداة الرعب والرهب

فيمدح طفيل فى الأبيات بنى جعفر بالمعرفة والبصر والشجاعة ، ويسخر من أعدائهم ، كما يعود فيثنى عليهم بحار الثناء فيقول : (٤)

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت   بنا نعلنـــا فى الواطئين فزلت
هم خلطونا بالنفوس وألجـــأوا   إلى حجرات أدفأت وأظلت

---

(١) النقائض (ليدن) ٥٣٢ وما بعدها .

(٢) الديوان ٩٥ .

(٣) السرب : جمع سربة وهى مابين عشرين فارساً إلى الثلاثين،ويقال للذى يفعل بلامعرفة فعل الشيء على عمياء ، وقوله : لايطيلون اخماداً : أى لايخمدون نيرانهم مخافة أن تقصدهم السرب الغازية .

(٤) الديوان ٩٨ .

أبو أن يملونا ولو أن أمنا تلاقى الذى لاقوه منا لملت
وقالت هلموا الدار حتى تبينوا وتنجلى العمياء عما تجلت
سنجزى بإحسان الأيادى التى مضت لها عندنا ما كبرت وأهلت

فهو يدعو الله أن يجزى قبيلة جعفر لأنها وقفت بجانبهم حين زلجت أقدامهم فزلت ، فخلطوهم بنفوسهم وساووهم برؤسهم ، وأسكنوهم فى حجرات أظلتهم وأدفأتهم وتحملوهم طول فترة إقامتهم بين ظهرانيهم ولو أن أمهم لاقت ما لاقته جعفر لملتهم ، وظلوا يقدمون لهم القرى ، ويوسعون لهم ، ويطلبون منهم الإقامة حتى تنكشف الأمور وتنجلى العمياء . كما يذكر أنه وقبيلته سيظلون يقدمون لقبيلة جعفر حسن الفعال ما كبر مكبر وهلل مهلل .

* * *

٥ — الغـزل :

احتل النسيب فى القصيدة العربية المقام الاول ، فكان الشعراء من أجل أن يسيروا على التقاليد الفنية الموروثة لابد أن يستهلوا قصائدهم بالغزل ، والبكاء على الأطلال والدمن .

ولهذه المقدمات المتصلة بالغزل صور متعددة منها صورتان : المقدمة الطللية والمقدمة الغزلية .

أما المقدمة الطللية فكان موضوعها الحديث عن أطلال ديار الحبيبة الراحلة ، التى تغيرت معالمها ودرست آثارها بعد رحيلها ، ثم يصف الشاعر ما يراه فى هذه الديار من آثار الحيـاة ، متذكرا أيامه الماضية بينها ، فيبكى هذه الأيام ويذكر صاحبته الراحلة ، ويصف جمالها ويصور حبه وعواطفه وآلامه وأحزانه ، وقد يتتبع بخياله قافلة الظعائن الماضية فى الصحراء نحـو

المنازل الجديدة (١) .

أما المقدمة الغزلية فتتحدث عن الحبيبة نفسها، وتدور عادة حول موضوعين: وصف الحبيبة وصفا حسيا أو معنويا ، والتغني بجمالها الجسدي أو النفسي من ناحية . وتصوير عواطف الشاعر ومشاعره وما تفيض به نفسه من حب وهيام ووجد ولوعة من ناحية أخرى .

وقد كانت مقدمات طفيل في معظمها من هذا النوع الغزلي الذي صور فيه حبيباته من وجهة النظر المعنوية أو الروحية . ونستطيع أن نرى في مقدمته لقصيدته التي قالها بمناسبة إدراك غني لثأرها بعد وقيعة محجر مثلا قويا لتعلق طفيل بالمقدمة الغزلية ، وسنرى فيها تصويرا لجميلة التي يتحدث عنها من زاوية النظر الحسية .

يقـــول : (٢)

بالعفر دار من جميـــلة هيجت	سوالف حب في فؤادك منصب
وكنت إذا بانت بها غربة النوى	شديد القوى لم تدر ما قول مشغب
كريمة حر الوجه لم تدع هالـكا	من القوم هلـكا في غد غير معقب
أسيلة مجرى الدمع خمصانة الحشا	برود الثنايا ذات خلق مشرعب
ترى العين ما تهوى وفيها زيادة	من اليمن اذ تبدو وملهى لملعب

فقد أثارت رؤية دار جميلة كوامن حبه ، ثم يصفها بجمال العينين والخدين ، وبرود الفم ، ورقة الخصر ، وعن الطائر .

(١) المجلة ، السنة التاسعة « العدد ١٠٠ ، ابريل سنة ١٩٥٥ ص ٣٥ — ٤٤ مقال الدكتور يوسف خليف « مقدمة الأطلال في القصيدة الجاهلية » .

(٢) الديوان ١٧ ، ١٨ .

وفى قصيدة أخرى نرى مقدمة مماثلة يقول فيها : (١)

هل حبل شماء قبل البين موصول ... أم ليس للصرم عن شماء معدول
أم ما تسائل عن شماء ما فعلت ... وما تحاذر من شماء مفعول
إذ هى أحوى من الربعى حاجبه ... والعين بالأثمد الحارى مكحول
بانت وكانت إذا بانت يكون لها ... رهن بما أحكمت شماء مبتول
فما تجود بموعود فتنجزه ... أم لا فيأس واعراض وتجميل
فان قصرك قوى إن سألتهم ... والمرء مستنبأ عنه ومسئول

فشماء لونها جميل يشبه لون الغزال الأحوى الذى نتج فى الربيع ، وقد تعودت على أن تكحل عينيها بالأثمد الحيرى ، ومن صفاتها أنها لاتفى بوعودها ، ولاتجود بوصلها ، كما أنها لاتصد من يتعلق بها .

على أننا لاننكر وجود مقدمات طللية عند طفيل لأننا نجده يبدأ قصيدته السادسة فى الديوان التى قالها حينما قتل الغنوى ابن عروة الرحال ، يبدؤها بمقدمة طللية يقول فيها : (٢)

غشيت بقرا فرط حول مكمل ... مغانى دار من سعاد ومنزل
ترى جل ما أبقى السوارى كأنه ... بعيد السوافى اثر سيف مفلل
ديار لسعدى إذ سعاد جداية ... من الأدم خمصان الحشا غير خثيل
يغنى الحمام فوقها كل شارق ... غناء السكارى فى عريش مظلل
إذا وردت تسقى بحسى رعاؤها ... قصير الرشاء قعره غير محيل
يزين مراد العين من بين جيبها ... ولباتها أجواز جزع مفصل

---

(١) الديوان ٥٥ ، ٥٦ .
(٢) الديوان ٦٢ ، ٦٥ .

كجمر غضاً هبت له وهو ثاقب ... بمروحـــة لم تستتر ريح شمأل
ووحف يغـــادى بالدهان كأنه ... مديد غداه السيل من نبت عنصل
تظل مداريها عـــوازب وسطه ... إذا أرسلته أو كذا غير مرسل
إذا هى لم تستك بعود أراكة ... تنخل فاستاكت به عود إسحل
إذا سئمت من لوحة الشمس كنها ... كناس كظل الهودج المتحجـــل

فطفيل يبدأ مقدمته الطللية هذه بالحديث عن أطلال ديار الحبيبة الراحلة التى تغيرت معالمها ودرست آثارها بعد رحيلها عنها، وقد انبعثت الذكرى حية حينما أتى الشاعر موضع قرا بعد حول مضى، حيث كانت فى هذا المكان منازل سعاد محبوبته، ولكنه وجدها دمنا وأطـــلالا، وكل ما أبقته معاول الزمن من أمطار ورياح آثاراً دارسة قديمة تشبه السيف المفلول. هذه الديار التى كانت عامرة بأهلها، آهلة بأصحابها يوم أن كانت سعاد فى ريعان الشباب جميلة بيضاء، خميصة البطن ويسترجع طفيل الأيام الجميلة والذكريات الحلوة أيام أن كانت تسكن سعاد فى منزل منيف يغرد فيه الحمام كما يغنى للسكارى وهم قابعون فى عريش مظلل، ويتذكر أيام أن كانت تذهب إلى البئر ومعها إبلها من أجل أن تسقيها، وهى جميلة فى عين كل من ينظر إليها، يتوسط عنقها عقد مقسم تشع الأنوار من حباته، وكأن هذه الحبات جمر غضا وضع فى مكان كثير الريح، وهبت عليه ريح فازداد توهجا وبريقا، وشعرها طـــويل وافر تغذيه بالدهان، وكأنه لطوله وغزارته بصل برى تعهدته الأمطار بالتربية والنمو، ومن كثرة هذا الشعر تعيا الأمشاط فيه، وتسير ببطء وذلك حينما تتعهده بالتمشيط والتسريح، كما نجده فى مقدمة أخرى يتغزل بليلى العامرية فيقول (١):

عرفت لليلى بين وقط فضلفع ... منازل أقوت من مصيف ومربع

---

(١) الديوان ١٠٣.

إلى المنحنى من واسط لم يبن لنا بها غير أعواد الثمام المنزع
وسفع صلين النار حولا كأنما طلين بقار أو بزفت ملمع
أبا القلب إلا حبها عامرية تجاور أعدائى وأعداؤها معى

فقد عرف منازل ليلى العامرية التى درست وأصبحت آثارا بعد أن عمرت بسكانها فى الصيف والربيع . وفى منحنى الوادى واسط لم ير الراكب سوى أعواد الثمام العارية ، كما رأوا الحجارة السوداء التى كانت تستخدم فى الطهو بوضعها تحت الأوانى ، وقد ظلت على هذا الحال حولا كاملا فأصبحت سوداء كأنها طليت بقار ثم لمعت بعد ذلك . وقد أبى قلبه سوى حب ليلى العامرية التى جاورت أعداءه كما جاور هو أعداءها .

كما يتحدث عن الأطلال الدارسة التى أصبحت تلوح كأن باقيها وشوم فيقول [١] :

لمن طلل بذى خيم قديم يلوح كأن باقيه وشوم
كأغلب من أسود كراء ورد يشد خشاشه الرجل الظلوم

ويتصل بالمقدمة الطللية وصف قافلة الظعائن فى حركتها الدائبة النشيطة وهى ماضية فى الصحراء نحو المنازل الجديدة التى رحلت إليها القبيلة ، ويظل الشاعر فى تتبعه لها حتى يصل بها إلى حيث تحط رحالها وترتفع من خيامها ، وسنرى فى القصيدة التالية وصف طفيل لقافلة الظعائن التى بدأت فى إعداد الهوادج التى يركبها النساء ، ثم سارت الظعائن سيرا سريعا يقول : [٢]

أشاقتك أظعان بجفن يبنبم نعم بكرا مثل الفسيل المكمم
غدوا فتأملت الحدوج فراعنى وقد رفعوا فى السير ابراق معصم

---

(١) الديوان ١١١ .
(٢) الديوان ٧٢ ، ٧٥ .

فقلت لحراض وقد كدت أزدهى … من الشوق فى إثر الخليط المتيمم
ألم تر ما أبصرت أم كنت ساهيا … فتشجى بشجو المستهام المتيم
فقال ألا لا لم تر اليـــوم شبحة … وما شمت إلا لمح برق مغـــيم
ورب التى أشرفن فى كل مذنب … سواهم خوصا فى السريح المخدم
يزرن الالا لا ينحبن غـــيره … بكل ملب أشعث الرأس محـــرم
لقد بينت للعين أحداجها مما … عليهن حوكى العـــراق المرقم
عقار تظل الطير تخطف زهوه … وعالين أعلاقا على كل مفأم
وفى الظاعنين القلب قد ذهبت به … أسيلة مجرى الدمع ريا المخدم
عروب كأن الشمس تحت قناعها … إذا ابتسمت، أو سافرا لم تبسم
رقود الضحى ميسان ليل خريدة … قد اعتدلت فى حسن خلق مطهم

فهو يصف الظعائن بعد أن ركبن الهوادج وخبأن وجوههن بالخمر، ولمعت أساورهن فى أشعة الشمس، فأثار هذا المنظر كوامن الشجن فى نفسه واستخفه الشوق. ففى الراحلات من أحب وهى جميلة منعمة.

ويدخل تحت باب الغزل شكوى الشعراء من الشيب لأنه يصرف النساء عنهم فهو يريبهن ويروعهن، ولهذا وصفوهن بأنهن إذا مارأين الشاب سارعن إلى تحيته والترحيب به، وبعكس ذلك إذا ما كبر ولاح الشيب فى مفارقه صرن لايسألن عما به، فإذا صادفنه صددن عنه بوجوههن وأبصارهن. ولهذا وجدنا بعضا من الشعراء ينكرون على أنفسهم الشيخوخة، وينفضون عنهم ما تجلبه من غبارها فيظهرون أنفسهم لمحبوباتهم بمظهر القوة التى لم تنتقص، كما أن بعضا منهم يأسفون على شبابهم ويتمنون أن يعود اليهم.

وقد حكى زهير بن أبى سلمى عن النساء أنهن يسألن من تقدمت به السن أن يلتزم جانب الوقار ويعرضن عن لهوه ومزاحه يقول عنهن:

وقال الغوانى إنما أنت عمنا … وكان الشباب كالخليط نزايله
فأصبحن مايعرفن إلا خليقتى … وإلا سواد الرأس والشيب شامله

ومن قبل زهير وجدنا طفيلا يتحدث عن الشيب ، وكره النساء له ، حتى الزوجات يكرهن الشيب وينكرنه يقول (١) :

صحا قلبه وأقصر اليوم باطله … وأنكره مما استفاد حلائله
يرين ويعرفن القوام وشيمتى … وأنكرن زيغ الرأس والشيب شامله
وكنت كما يعلمن والدهر صالح … كصدر اليمانى أخلصته صياقله
وأصبحت قد عنفت بالجهل أهله … وعرى أفراس الصبا ورواحله

فهو يلح على فكرة أنه حينما شاب رأسه صحا قلبه وأفاق فترك الصبا واللهو ، وأنكرت زوجاته ما استحدث به من شيب ، وقد كان فى شبابه غضا يهتز كأنه سيف يمان مصقول .

---

(١) الديوان ٨١ ، ٨٢ .

الفصل الثالث

الدراسة الفنيـــــــة

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

---

١ – أستاذية طفيل لمدرسة الصنعة .

٢ – الخصائص الفنية :

(ا) منهج القصيدة عند طفيل .

(ب) التصوير المادى الدقيق .

(حـ) التصوير الفنى .

(د) القيم الموسيقية .

٣ – الخصائص التعبيرية :

(ا) الالحاح .

(ب) السلبية فى التعبير .

(حـ) الدقة فى اختيار الألفاظ .

(د) الوحدة التعبيرية .

٤ – الخصائص اللغوية .

٥ – تأثر وتأثير .

٦ – المنزلة الفنية .

(١) أستاذيته لمدرسة الصنعة

بدأ مجرى الشعر الجاهلي واقعياً حسياً تقل فيه الصور الخيالية التى تحتاج إلى شيء غير قليل من بذل الجهد والتفكير ، وحتى إن وجدت أخيلة فهى أخيلة سهلة قريبة ، مستمدة من البيئة ، وكانت الصورة الخيالية المنتشرة هى التشبيه الذى يعد امرؤ القيس أهم شاعر اعتمد عليه فى هذه الفترة المبكرة من تاريخ الشعر العربي .

ولم يكن شعراء هذه المرحلة التى تمثل طور النضج الطبيعى للشعر الجاهلى يوفرون لقصائدهم ضروباً من التحسين والتثقيف والزخرف بل نرى فى أشعارهم غير قليل من السرعة والارتجال والنظم على الفطرة ، كما ظهرت فى أشعارهم رواسب مرحلة البداية من انتشار الزحافات والاقواء كما نرى عند امرىء القيس وعبيد بن الأبرص .

ولكن مهما يكن من أمر فقد استطاع شعراء هـــذه المرحلة أن يضعوا التقاليد الفنية للقصيدة العربية ، فعند شعراء هذه المرحلة أخذت القصيدةالعربية شكلها التقليدى الثابت واكتملت لها مقوماتها وعناصرها الفنية . وفى الوقت الذى بدأت تزدهر فيه مدرسة الطبع هذه كان هناك تيار فنى آخر يقوم عليه جماعة من الشعراء يختلف مفهوم الشعر عندهم عن شعراء مدرسة الطبع . فقد اهتموا بتجويد عملهم الفنى والعناية به ،وهو اهتمام كان عهد تمهيداً طبيعياً لظهور مدرسة الصنعة . وقد أدرك القدماء ما كان يعانيه هؤلاء الشعراء من تنقيح وتهذيب فى أشعارهم فلقبوهم بألقاب تصور مهارتهم وإجادتهم[1] فلقبوا طفيل

---

(١) انظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ٢٦ ، والعصر الجاهلى ٢٢٧ .

الغنوى بالمحبر لتزيينه شعره وتحسينه[١]، ولقبوا الذبيانى بالنابغة لنبوغه فى شعره.

ومن النقاد القدماء الأصمعى الذى لاحظ مجهود هـــذه الطائفة فى حياكة الشعر، فأطلق على شعراء هذه المدرسة «عبيد الشعر» وكأنه أراد بهذا التعبير أن صناعة الشعر قد استعبدت هذه الطائفة من الشعراء. وقد أورد الجاحظ نص الأصمعى هذا حيث يقول: «وكان الأصمعى يقول: زهير بن أبى سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر، وكذلك كل من يجود فى جميع شعره، ويقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية فى الجودة، وكان يقال لولا أن الشعر قد كان استعبدهم، واستفرغ مجهودهم، حتى أدخلهم فى باب التكلف وأصحاب الصنعة، ومن يلتمس قهـــر الكلام واغتصاب الألفاظ، لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعانى سهواً ورهواً، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالا»[٢].

والجاحظ نفسه يشترك فى وصف شعراء هذه المدرسة فيقول عنهم «من شعراء العرب من يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتاً وزمناً طويلا، يردد فيها نظره، ويقلب فيها رأيه، اتهاما لعقله وتتبعاً على نفسه، فيجعل عقله زماماً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره إشفاقاً على أدبه، وإحرازاً لما خوله الله من نعمته، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات، والمقلدات، والمنقحات، والمحكمات، ليصير قائلها فحلا خنذيذاً وشاعراً مفلقاً»[٣].

وقد أطلقنا على هؤلاء الشعراء اسم مدرسة استناداً إلى تسمية الدكتور طه حسين لهـــا فهو يرى أنه إذا اكتملت الخصائص الفنية عند جماعة من الشعراء فيمكن تسمية هذه الجماعة باسم مدرسة شعرية[٤] وهو يبدأ هذه المدرسه الشعرية

---

(١) المفضليات (طبعة لايل) ١/ ٤١٠.

(٢) البيان والتبيين ٢/ ١١.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٢١.

(٤) فى الأدب الجاهلى ٣٣٤ وما بعدها.

بأوس بن حجر وينهيها بكثير ، وكذلك أغلب المؤلفات الحديثة تسير فى نفس الاتجاه (١) إذ ترى أن المدرسة بدأت بأوس ، ومن بعده زهير الذى كان راوية لأوس وتلميذه ، ثم زهير صار استاذاً لابنه كعب وللحطيئة ، ثم تتلمذ هدبة بن خشرم على الحطيئة وصار راويته ، ثم تتلمذ جميل بن معمر العذرى لهدبة وروى شعره . ثم كان آخر من اجتمع له الشعر والرواية كثيراً تلميذ جميل وراويته .

ولكننا من جانبنا نرجع بالمدرسة إلى ما قبل أوس إلى طفيل الغنوى ، الذى يعد بحق الرائد الأول لهذه المدرسة الشعرية. وفى نفس الوقت لانتكر أستاذية أوس لهذه المدرسة ، فهو يشترك مع طفيل فى وضع أسس ودعائم الفن الشعرى لهذه المدرسة ، فطفيل وأوس يعدان بحق صاحبي الفضل الأول فى أكبر نهضة فنية عرفها الشعر الجاهلى منذ ظهور امرىء القيس ، إذا استطاعا أن يطورا القصيده العربية من صورتها البسيطة التى كانت عليها فى مرحلة النضج الطبيعى إلى صورة لا تأتى لصاحبها إلا بعد جهد طويل ، وعناء شديد ، وصبر وتنقيح وتجويد وصقل ، بل من أجل صنعها صنعا وانشاءها انشاءاً واخراجها وفقاً لمقاييس دقيقة ، وقوالب محكمة ، فهما بعبارة أخرى كما يطلق عليهما الدكتور يوسف خليف « اللذان استطاعا أن يحولا المجرى الذى يتدفق فيه الشعر الجاهلى إلى مجرى جديد تحول معه العمل الفنى مما يشبه رسم اللوحات إلى مايشبه صناعة التماثيل » (٢) .

ونحن حينما نتأخر بالمدرسة قليلا إلى ما قبل فترة أوس لانلقى الكلام على عواهنه ولانعتسف الطريق اعتسافا وإنما يؤيدنا فيما نذهب إليه النصوص التى عثرنا عليها ، ففى الأغانى « كان طفيل أكبر من النابغة ، وليس فى قيس

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى ٢٢٢ .

(٢) مقال الدكتور يوسف خليف تحت عنوان « مقدمة الأطلال فى القصيدة الجاهلية » فى المجلة ص ٤٣٩ ، عدد ١٠٠ ، ابريل ١٩٦٥م .

فحل أقدم منه » (١) ويقول أبو الفرج عنه « من أقـــدم شعراء قيس » (٢) ويقول الأصمعى « أخذ كل الشعراء من طفيل حتى زهير والنابغة » (٣) .

أما النص القديم الدامغ والصريح على أسبقية طفيل لزهير فهو ما وجدناه عند ابن رشيق فى قوله : « وكان الحطيئة رواية زهير ، وكان زهير راوية أوس ابن حجر وطفيل الغنوى جميعاً » (٤) . ودائرة المعارف الاسلامية ، وكذلك بروكلمان وهما مصدران صحيحان يعتمد على صحة أخبارهما يرويان أسبقية طفيل لأوس بن حجر أستاذ زهـــير ، ورواية أوس لشعر طفيل . بل إن بروكلمان ينص على تلمذة أوس لطفيل فقد جاء فى دائرة المعارف الإسلامية « وقـــد اشتهر زهير بأنه راوية أوس بن حجر ، كما كان أوس راوية طفيـــل الغنوى » (٥) .

أما بروكلمان فلا يكتفى بالنص على رواية أوس لشعر طفيل بل ينص على أستاذية طفيل وتلمذة أوس فيقول : « وكان أوس راوية الطفيل الغنوى وتلميذه » (٦) .

أضف إلى هذه النصوص الصريحة نصا آخر لقب فيه القدماء طفيلا الغنوى بلقب يدل على ما أحسوه فى شعره من ضروب التزيين والتحسين والجـــودة والصنعة ، فقد لقبوه « بالمحبر » لتحسينه شعره (٧) .

---

(١) الأغانى ١٥/٣٥٤ .

(٢) المصدر السابق ١٥/٣٤٥ .

(٣) مقدمة الديوان : ١٧

(٤) العمدة طبعة هندية ١/١٣٢ .

(٥) دائرة المعارف الاسلامية ـ المجلد العاشر ـ العدد الثانى عشر ٤٦١ .

(٦) تاريخ الأدب العربى ١/١٩٥ .

(٧) فحولة الشعراء : ١٦ ، والشعر والشعراء «ليدن» ٢٧٥ ، والمؤتلف والمختلف : ١٨ ، والاقتضاب (طبع بيروت) ٢٢٧ ، وشرح شواهد المغنى (المطبعة البهية) ١/١٣٥ ، والمزهر ٢/٤٢٠ ، واللالىء ١/٢١٠ .

فهذه النصوص النقلية تجعلنا نقول بأستاذية طفيل لهذه المدرســـة . هذا بالإضافة إلى الخصائص الفنية المشتركة بين الشاعر وشعراء هـــذه المدرسة من التصوير المادى الدقيق ، والعناية بالتفاصيل والجزئيات ، والحرص على استكمال عناصر الصورة وخطوطها وألوانها ، والاهتمام بانتقاء الالفاظ ذات الدلالات الصوتية المعينة ، والتأليف بينها فى نسق صوتى معين ، واحكام صياغة العبارات ، والبراعة فى توليد المعانى الدقيقة ، والغوص خلف الأفكار العميقة ، وهى خصائص سنراها واضحة قوية فى شعر طفيل . وهى نفسها التى نراها عند أوس وزهـــير ، فأوس كان وصفه حسيا ماديا كطفيل ، وكان يصنع شعره صناعة وينشئه انشاء ، ويكفى أن نقرأ لأوس وصفه للبرق والسحاب لنجد المادية فيه واضحة فهو يقول :

إنى أرقت ولم تأرق معى صاحى ... لمستكف بعيـــد النوم لواح

يامن لبرق أبيت الليـــل أرقبه ... فى عارض كضىء الصبح لمـــاح

دان مسف فويق الأرض هيدبه ... يكاد يـــدفعه من قام بالراح

فهو فى تشبيهه مادى نحسه بالسمع ونراه بالبصر ، فهو يشبه البرق بالصبح المضىء ، كما أنه ينتقى ألفاظا معينة كما فى كلمة لمـــاح ، التى تمثل خطف البرق وأنه سريع لايقيم ، وكأن هذا السحاب ثوب من القطيفة ، وله ذيل يجر على الأرض ، ثم المادية الموجودة فى قوله يكاد يدفعه من قام بالراح . وهـــذه الخصائص التى نراها عند أوس هى نفس الخصائص الموجودة عند زهير على نحو ما نرى فى هذه الأبيات من مقدمة معلقته :

تبصر خليلى هل ترى من ظعائن ... تحملن بالعليـــاء من فوق جرثم

علون بأنمـــاط عتاق وكلة ... وراد حواشيها مشاكهة الدم

ووركن فى السوبان يعلون متنه ... عليهن دل النـــاعم المتنعـــم

وفيهن ملهى للصديق ومنظر ... أنيق لعين الناظر المتوسم

بكرن بكورا واستحرن بسحرة   فهن لوادى الرس كاليد للفم
جعلن القنان عن يمين وحزنه   ومن بالقنان من محل ومحرم
ظهرن من السوبان ثم جزعنه   على كل قينى قشيب ومفأم
كأن فتات العهن فى كل منزل   نزلن به حب الفنا لم يحطم
فلما وردن الماء زرقا جمامه   وضعن عصى الحاضر المتخيم

وواضح من الأبيات مقدرة زهير على التصوير بما كان يعمد إليه من رسم دقائق المنظر الذى يصفه . أضف إلى ذلك الصور البيانية . ويتجلى فى الأبيات الخصائص المشتركة بين شعراء مدرسة الصنعة . فن حرص على التفاصيل والجزئيات ، فيذكر فتات العهن المنثور من الهوادج ويصوره كحب الفنا . ثم لا ينسى التدبيج وهو صبغ موصوفاته بألوان مختلفة حتى تأخذ الصورة شكلها الحقيقى فى عالم الحس والمادة ، فحب الفنا لم يحطم ليبقى على لونه ، وعلى الهوادج السدول والأنماط الحمراء حمرة تشبه الدم ، والمياه زرقاء ، كل هذا يصوغه زهير صياغة دقيقة محكمة فى كثير من الأناة والروية ، فيختار له الألفاظ المعبرة ، ويغير من أزمنة الأفعال متنقلا بها من الماضى إلى المضارع ، لتتم له الملاءمة بين الزمن والحدث . وكما يغاير بين الأفعال يغاير بين أساليب التعبير متنقلا بها بين الخبر والانشاء من أجل اشاعة تلك الحركة فى الأبيات.(٢) ولا يزال زهير يلح على الصورة حتى يحددها تحديداً دقيقاً فيعطينا زمانها (بكرن بكوراً واستحرن بسحرة) ومن قبل أعطانا اللون والمكان وبذلك كملت لصورته عناصرها الثلاثة : المكان ، والزمان ، واللون .

وبعد أن عرضنا للخصائص الفنية عند عمد مدرسة الصنعة طفيل ، وأوس ، وزهير ، ورأينا كيف أن هذه الخصائص مشتركة بينهم ، وأنهم جميعا قد ربطت بينهم روابط متينة ، رابطة الرواية والتلمذة . يجدر بنا الآن أن ننظر فى تأثر أوس

---

(١) انظر مقالة الدكتور يوسف خليف « مجلة المجلة » أبريل ١٩٦٥ ص ٤١ .

وزهير بطفيل . أو بعبارة أخرى إلى أى حـــد تأثر شعراء مدرسة الصنعة بالأستاذ الأول ؟

وحينما ننظر فى آراء القدماء النقدية نرى أنهم قد أحسوا بتأثر هؤلاء التلاميذ بالأستاذ الأول طفيل الغنوى وسجلوا احساساتهم هذه ، وأحيانا استدلوا بشىء من أشعارهم ، فالأصمعى يسجل إحساسه هذا فى مقدمة الديوان يقـــول : « أخذ كل الشعراء من طفيل حتى زهير والنابغة » .[١]

ولكن قبل أن نتحدث عن أثر طفيل فى زهير وغيره من شعراء مدرسة الصنعة، نبدأ بتلميذه وراويته الأول أوس بن حجر، فطفيل الغنوى يقول فى مدح قوم شبههم بالكواكب ، فإذا غاب كوكب بدا كوكب آخر يقول :[٢]

كواكب دجن كلما غاب كوكب بدا وانجلت عنه الدجنة كوكب

فيتأثر أوس بن حجر بالمعنى فيقول :[٣]

إذا مقرم منا ذرى حد نابه تخمط فينا ناب آخر مقرم

ويقول طفيل مشبها صوت الحصان عند الجرى بصوت النار فى العرفج[٤]:

كأن على أعرافه ولجامـــه سنا ضرم من عرفج متلهب

فطفيل يقول كأن على أعرافه ولجامه ضوء ضرم (ما أسرعت فيه النار من النبت) وإذا كان له ضوء كان له حفيف ، ولايكون حفيف النار حتى تتقد ، ويقول : يخف من شدة العدو حتى كأن عرفجا يتضرم على عنانه وعنقه .

---

(١) مقدمة الديوان ١٧ .
(٢) الديوان ٣٩، وأمالى المرتضى ١/٢٠٧.
(٣) أمالى المرتضى ١/٢٥٧ .
(٤) الديوان ٢٦ .

فيأتى أوس فيتأثر بالفكرة والتشبيه فيقول : (١)

إذا اجتهدا شداً حسبت عليهما   عريشاً عليه النار فهو يحرق

ويقول طفيل فى وصف البرق والسحاب : (٢)

أصاح ترى برقاً أريك وميضه   يضىء سناه سوق أثل مركم
أسف على الأفلاج أيمن صوبه   وأيسره يعلو مخارم سمسم
له هيدب دان كأن فروجه   فويق الحصى والأرض أرفاض حنتم

ثم يأتى أوس متأثراً بالتصوير المادى المحسوس عند طفيل ، كما يتأثر ببعض الألفاظ فيقول فى نفس الموضوع :

يامن لبرق أبيت الليل أرقبه   فى عارض كمضىء الصبح لماح
دان مسف فويق الأرض هيدبه   يكاد يدفعه من قام بالراح

وكما تأثر أوس بطفيل تأثر أيضاً زهير ، ونستطيع أن نرى أثراً لذلك فى هذه الأبيات التى قالها طفيل فى الشيب والشباب : (٣)

صحا قلبه وأقصر اليوم باطله   وأنكره مما استفاد حلائله
يرين ويعرفن القوام وشيمتى   وأنكرن زيغ الرأس والشيب شامله
وأصبحت قد عنفت بالجهل أهله   وعرى أفراس الصبا ورواحله

ويقول زهير فى نفس الموضوع : (٤)

---

(١) مجلة الجمعية الملكية الأسيوية لسنة ١٩٠٧ فى شرح قصيدة طفيل .
(٢) الديوان ٧٥ ، ٧٦ .
(٣) الديوان ٨١ ، ٨٢ .
(٤) شرح ديوان زهير ١٢٤ وما بعدها .

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ... وعرى أفراس الصبا ورواحله
وأقصر عما تعلمين وسددت ... على سوى قصد السبيل معادله
وقال العذارى إنما أنت عمنا ... وكان الشباب كالخليط نزايله
فأصبحن ما يعرفن إلا خليقتى ... وإلا سواد الرأس والشيب شامله

فالى جانب الإتحاد فى الموضوع نجد اتحاداً فى الوزن ، كما نجد اتحاداً فى بعض الشطور ، كـ « وعرى أفراس الصبا ورواحله »و« وصحا القلب»وأقصر باطله » . و « الشيب شامله » كما نجد تأثراً بين الشاعرين فى تشبيه الأطلال بالوشوم يقول طفيل :[1]

لمن طلل بذى خيم قديم ... يلوح كأن باقيه وشوم

ويقول زهير : [2]

ودار لها بالرقتين كأنها ... مراجع وشم فى نواشر معصم

كما يقول طفيل : [3]

عرضناهن عن سمل الأداوى ... فصطبح على عجل وآب [4]

ويقول طفيل أيضاً : [5]

أنخنا فسمناها النطاف فشارب ... قليلا وآب صد عن كل مشرب

---

(١) الديوان ١١٦ .
(٢) مختار الشعر الجاهلى ٢٢٧ .
(٣) شرح ديوان زهير لثعلب ١٥٦ .
(٤) سمل : الماء القليل يبقى فى أسفل الاناء وغيره ، الأداوى : المطهرة أو إناء صغير من جلد يتخذ للماء ، آب : ممتنع .
(٥) الديوان ٢٨ .

ويقول زهير متأثرا بقول طفيل :[١]

صدت صدودا عن الأشوال واشترقت قبلا تقلقـل فى أفواهها اللجم

أى عرضوها على الماء فصدت عنه . والأشوال : بقايا ما فى الأسقية . وقد أدرك هذا التأثر ثعلب فى شرحه لديوان زهير فقال« وهذا مثل قول طفيل ».[٢]

ويقول طفيل فى المجاورة :[٣]

وكنت إذا جاورت أعلقت فى الذرى يدى فلم يوجد لجنبي مصرع

فهو يقول بأنه كان إذا جاور لا ينازل إلا الأشراف فلم يجترأ عليه أحد ، وينله بمكروه ، ثم يأتى من بعده زهير فيستغل الفكرة ويتأثر بها ويقول [٤]:

هلا سألت بنى الصيداء كلهم بأى حبل جوار كنت أمتسك

وهناك غير واحد من بقية شعراء مدرسة الصنعة الذين تأثروا بطفيل ، فالنابغة الذبيانى وهو أحد شعراء مدرسة الصنعة أخذ صورة تشبيه الرجال بالكواكب من طفيل ، فطفيل يقول [٥] :

كواكب دجن كلما غاب كوكب بدا وانجلت عنه الدجنة كوكب

فيأتى النابغة فيلم بالصورة ويقول : [٦]

وأنك شمس والملـوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

(١) شرح ديوان زهير ١٥٦ ، ومختار الشعر الجاهلى ٢٦١ .
(٢) شرح ديوان زهير ١٥٦ .
(٣) الديوان ٨٧ .
(٤) شرح ديوان زهير ١٧٩ .
(٥) الديوان ٣٩ .
(٦) الحيوان ٣/٩٥ ، ومختار الشعر الجاهلى ١٧٥ .

ويقول طفيل في وصف ابله [١] :

عوازب لم تسمع نبوح مقامه ولم تر نارا تمّ حول مجرم

فيقول من بعده الحطيئة : [٢]

عوازب لم يسمع نبوح مقامه ولم تحتلب الا نهارا ضجورها

كما يذكر البغدادي [٣] ،والبكري[٤] ، أن قول طفيل :[٥]

وقلن ألا البردى أول مشرب أجل جير إن كانت رواء أسافله

اهتدمه كعب بن زهير الصحابي فقال :

وقلن ألا البردى أول مشرب أجل جير إن كانت سقته بوارقه

وقد نص البغدادي على الأخذ حيث قال : « وكعب قد أخذ من طفيل الغنوي لأن طفيلا جاهلي متقدم زمانه » [٦]

---

(١) الديوان ٢٧ .
(٢) الشعر والشعراء (ليدن) ٢٧٦ .
(٣) خزانة الأدب ٤/٢٣٦ .
(٤) معجم ما استعجم ١/٢٤٠ ، ٢٤١ .
(٥) راجع الديوان ٨٤ .
(٦) خزانه الأدب ٤/٣٣٧.

(٢) الخصائص الفنية

منهج القصيدة عند طفيل :

اتخذت القصيدة العربية تقاليد فنية فكانت تبدأ بمقدمه طللية أو غزلية، يصف فيها الشاعر الأطلال أو يصف جمال الحبيبة ، ويتغزل فيها ثم يخرج من هذه المقدمة إلى وصف رحلته فى الصحراء ، ووصف فرسه أو ناقته التى حملته أو تحمله فى رحلته ، وكأن هذه الرحلة الجسر الذى يعبر عليه الشاعر من شاطىء الحب إلى متاهات الصحراء . ويصف الصحراء وطريقه فيها ، ورمالها الفسيحة الممتدة ، وحيوانها الشارد فى آفاقها البعيدة ، ويقف عند مناظر الصيد فيصفها ، حتى إذا ما استوفى حقوق الصحراء من الوصف، انتقل إلى موضوع قصيدته الأساسى فجأة دون تمهيد ، فخراً كان أو هجاء أو مدحا أو اعتذاراً ، وبه تنتهى القصيدة . إلا أن بعض الشعراء كانوا يختمون قصائدهم بالحكمة الواضحة المعنى الظاهرة الفكرة والغرض .

وهذا النهج فى القصيدة العربية هو الصورة العامة التى استقرت عليها القصيدة الجاهلية ، وهى صورة ظلت تفرض سلطانها فترة طويلة من تاريخ الشعر العربى . ولكن هذه الصورة لم تكن منهجا ثابتا موحداً لكل الشعراء القدماء ، فقد اختلفت مذاهب الشعراء ومناهجهم فى قصائدهم تبعا لاختلاف شخصياتهم واختلاف موضوعاتهم أيضاً . فقد وجدنا قصائد خرجت على المنهج التقليدى للقصيدة العربية ، واتخذت لها إطاراً ذاتيا أصيلا[1] . ومن هؤلاء الشعراء الذين خرجوا على تقاليد القصيدة العربية الموروثة شاعرنا طفيل الغنوى ،

---

(١) بروكلمان . تاريخ الأدب العربى ٥٩/١ — ٦٠ .

فقصيدته الثامنة فى الديوان لا يبدؤها كما كان سائر الشعراء يبدأون قصائدهم بالمقدمة الطللية أو المقدمة الغزلية ، إنما نجده يبدؤها بلون جديد وهو الحديث عن الشيب والشباب (١) :

صحا قلبه وأقصر اليوم باطله ... وأنكره مما استفاد حلائله
يرين ويعرفن القوام وشيمتى ... وأنكرن زيغ الرأس والشيب شامله
وكنت كما يعلمن والدهر صالح ... كصدر اليمانى أخلصته صياقله
وأصبحت قد عنفت بالجهل أهله ... وعرى أفراس الصبا ورواحله

وربما التمسنا لطفيل العذر فى قصيدته الثانية فى الديوان والتى قالها يرثى فيها فرسان قومه التى بدأها بقوله (٢) :

تأوبنى هم مع الليل منصب ... وجاء من الأخبار مالا أكذب
تظاهرن حتى لم تكن لى ريبة ... ولم يك عما أخبروا متعقب

فكما هو واضح لم يبدأ قصيدته لا بمقدمة طللية أو غزلية ، وهو فى الحقيقة لم يخرج على التقاليد الفنية الموروثة ، إنما سار عليها لأن قصيدة الرثاء الجاهلية لم تكن تبدأ بتلك المقدمات التقليدية وإنما تبدأ مباشرة بموضوعها الأساسى احتراماً للموقف الذى تقال فيه ، وخشوعاً أمام المصير المحتوم الذى ينتهى إليه كل كائن حى . ولم تخرج قصيدة الرثاء على هذا التقليد إلا فى قصائد قليلة معدودة يذكرون منها قصيدة المرقش (٣) :

هل بالديار أن تجيب صمم ... لو كان رسم ناطق كلم

فهو قد بدأها بالغزل وخرج منه بعد ذلك إلى الرثاء .

---

(١) الديوان ٨١ ، ٨٢ .
(٢) الديوان ٣٧ .
(٣) المفضليات ٢٣٧ .

وكذلك قصيدة دريد بن الصمة فى رثاء أخيه عبد الله التى بدأها بقوله [١]:

أرث جديد الحبل من أم معبد   بعاقبة وأخلفت كل موعـــد

فقد استهلها بالغزل ثم خرج منه إلى رثاء أخيه، وتصوير مصرعه، ووصف مصابه فيه، وجزعه، متحدثاً فى أثناء ذلك عن خصاله الحميدة، وشيمه الكريمة من الشجاعة والجود والمضاء والصبر والحزم.

كما نجده يخرج على النهج الفنى المتوارث فى كل من قصيدتيه الرابعة والتاسعة وكلتاهما فى المدح، فى القصيدة الرابعة يمدح بنى الحارث بن كعب ويستهلها بوصف ابله وفحلها الذى يدعوها بصوت جميل فتستجيب له كما يستجيب فتيان أخذت الخمر بلبهم، فجعلتهم يتثنون مستجيبين لصوت مغن، وتبيت أوابى هذه الإبل عاكفة حول الفحل كما يعكف الجوارى حول ميت فجعن فيه، على أن هذه الابل وقد جاورت أسرة بنى عبد المدان من بنى الحارث بن كعب قد سمنت فى مراعيهم حتى بدت اللواتى لقحن من افراط سمنهن كأنهن يمشين مشى الظلع وإن كن غير ظلع يقول [٢]:

إذا دعاهن ارعوين لصوته   كما يرعوى غيد إلى صوت مسمع

تبيت أوابيها عواكف حوله   عكوف العذارى حول ميت مفجع

وقـــد سمنت حتى كأن مخاضها   تفشغها ظالـــع وليست بظلع

وفى قصيدته التاسعة وموضوعها مدح بنى سعد بن عوف نراه يبدأ القصيدة بمدحهم دون أن يسير على النهج المتوارث للقصيدة العربية [٣]:

جزى الله عوفا من مولى جنابة   ونكراء خيراً كل جار مودع

أباحوا لنا قوا قرملة عالج   وخبتا وهـــل خبت لنا متربع

---

(١) الأصمعيات ١١١.

(٢) الديوان ٥٧.

(٣) الديوان ٨٥.

ونحن لانستطيع أن نقطع بأن طفيلا قد خرج فى هاتين القصيدتين على نهج القصيدة العربية ، لأننا لاندرى هل القصيدتان بوضعهما الحالى كاملتان ، أم أن مقدمتيهما قد سقطتا ووصلت إلينا القصيدتان بوضعهما الحالى ؟ وليس أمامنا مصدر آخر نجد فيه القصيدتين كاملتين .

وما قلناه عن هاتين القصيدتين نقوله عن القصيدة العاشرة والأخيرة فى الديوان التى قالها حين أغار النعمان بن المنـــذر على ابل لسان بن عائذ الضبى فردتها عليه غنى بعد أن أتاها الصريخ ، فهى لاتبدأ بالمقدمة التقليدية وإنما تبدأ بالسخرية والكناية عن السفهاء من الناس بالذئاب [1] :

أبيت اللعـــن والراعى متى ما يضع نـكن الرعيـــة للذئاب

فيصبح ماله فرسى ويفرش إلى ما كان من ظفر وناب

وربما كان الفزع والرغبة فى الثأر قد أنسيا طفيلا المقدمة الطللية أو الغزلية التى كان أكثر الشعراء يبدأون بها قصائدهم .

على أن ما ذكرناه من خروج طفيل على النهج التقليدى للقصيدة العربية لم يكن عاماً فى كل قصائده ، فقد وجدناه فى قصائده الاخرى يلتزم إلى حد كبير الخطوط العامة للنهج المتبع فى القصيدة العربية ، فالقصيدة الأولى فى الديوان تبدأ بمقدمة غزلية يتغزل فيها بجميلة ثم ينتقل إلى وصف الفرس ، ثم ينتقل إلى موضوعه وهو الفخر بفرسان قومه وشجاعتهم وانتقامهم من طىء وغسلهم عار هزيمة محجر . كما يلتزم فى القصيدة الخامسة نهج القصيدة المتوارث فيبدؤها بمقدمة غزلية يتغزل فيها بشماء ، ثم ينتقل إلى وصف الحصان ، ثم يفخر بنفسه ، ثم يختمها بأبيات فى الحكمة وذم النساء . وفى القصيدة السادسة يبدأ بمقدمة طللية ويشبه حبيبته بظبية ، ثم يتحدث عن حال هذه الظبية فى الصحراء . ثم يرجع إلى الغزل ، ثم الحديث عن بنى جعفر وتذكيرهم بأيادى غنى عليهم ، والفخر

---

(١) الديوان ٩٠ .

بفرسان قبيلته . أما فى القصيدة السابعة فيكتفى فى مطلعها بوصف الظعائن تمهيداً للحديث عن السحاب والبرق ووابله الكثيرة المقيمة فى الصحراء ، ثم الفخر بفرسان قومه .

هذا ما سار عليه شاعرنا فى نهج قصائده ، أما مقطعاته التى فى ذيل الديوان فقد كانت وليدة تجارب بسيطة يصوغها فى أبيات معدودة يتناول فيها الموضوع مباشرة دون التزام لمنهج القصيدة المتوارث .

التصوير المادى الدقيق

لقد وهب طفيل قدرة فائقة على تصوير الواقع فى صور حسية مادية دقيقة بحيث يعطى القارىء الانطباع الكامل لما يعرض عليه من صفات وأوضاع ، مستخدماً سائر الحواس من أجل تمثيل الصورة ، فإذا كان المشهد بصرياً غذى البصر بالألوان الزاهية ، والأشكال الدقيقة ، والأوضاع المجسمة ، والحركات الحية ، وإذا كان المشهد سمعياً شاركت الأذن فى التقاط الأصوات ، وتحسس الأصداء ، وقد كان طفيل بحق شاعراً مصوراً وكأنه قد تحول إلى آلة سينمائية يسجل الصورة من حيث الرؤية ومايصاحبها من صوت ونغم .

وقد دفعه هذا إلى استخدام عنصر « التدبيج » فى رسم صوره ، إذ نراه فى طائفة من أبياته حريصاً على اعطاء صوره ألوانها الحقيقية حتى تأخذ شكلها المادى ، ويتم له إخراجها على الوجه الدقيق فهو ، فى وصف الخيل يقول (١) :

وِرَادًا وحُوًّا مُشرِفًا حَجَباتُها ... بناتِ حِصانٍ قد تَعُولِمَ مُنجِبِ
وكُمْتًا مُدَمَّاةً كأنَّ مُتونَها ... جرى فوقَها واستشعرتْ لونَ مُذهَبِ
إذا هبطتْ سهلاً كأنَّ غبارَه ... بجانبِه الأقصى دواخِنُ تَنضُبِ

فهو يسجل ألوان هذه الخيل فى صورة زاهية ، فهى حمراء ومنها الشديد

(١) الديوان ٢٣ ، ٢٥ .

الحمرة فى لون المقل ، ومنها الكمت التى تضرب كتتها إلى الحمرة ، ومتونها كأنما جرى فوقها لون مذهب فاستشربته ، وهى حينما تهبط إلى السهول تثيرمن ورائها غباراً يشبه الدخان الناتج عن اشتعال النار فى شجر التنضب ، وليس من شك فى أن هذه الألوان التى عرضها علينا طفيل ألوان تقرب إلينا الموصوف وتضعه فى نفس القارىء موضوع الرؤية الواضحة الجلية .

والخيل تنظر إلى الجبال وتطمح اليها بعد أن خاضت الدماء . ووطئت القتلى فاصطبغت بلون الدماء الحمراء ، حتى بلغ الدم منها موضع الخضاب (١) :

طوامح بالطرف الظراب إذا بدت محجلة الأيدى دما بالمخضب

ولا يفوت طفيلا أن يعتمد على حاسة السمع فى تصويره . فالخيل تترامى فى الجرى فتصطدم بالدروع فتحدث أصواتاً مسموعة كما يسمع صوت المطر فى العشى .. يقول (٢) :

لهن بشباك الحديد تقاذف هوى رواح (٣) بالدجنة يعجب

ويصف امرأة بأنها حينما تسير وقد لبست الأقراط والعقود تحدث أصواتاً حين تصطدم هذه الأقراط بأذنيها (٤) :

كأن الرعاث والسلوس تصلصلت على خششاوى جأبة القرن مغزل(٥)

ومن الركائز التى اعتمد عليها طفيل فى تصويره ، الدقة البالغة فى استخدام الأفعال وتلوينها عن طريق استخدام الفعل الماضى مرة ،والمضارع مرة أخرى .

(١) الديوان ٣٤ .

(٢) الديوان ٤٦ .

(٣) الرواح : العشى أو الزوال إلى الليل ، القاموس (١/٢٢٥) .

(٤) الديوان ٦٣ .

(٥) الرعاث : الأقراط والعقود ، السلوس : خيوط تنظم لؤلؤاً واحدها ـ لس ،المتصاصل: الصوت ، الخششاء : العظم الذى يطول خلف الأذن ، المغزل : الظبيـــة معها ولدها ، الجأبة :العظيمة .

فهو حين يحكى قصة أو يقص خبراً يستعمل الفعل الماضى الذى يعينه على السرد القصصى ، وحين يريد أن يجسم الصورة ويمثلها أمامنا كأننا نراها يستخدم الفعل المضارع ، وعن طريق هذا التلوين فى استخدام الأفعال يشيع الحيوية والحركة فى عباراته وصوره يقول :

وأشعث يزهاه النبـــوح مدفع ... عن الزاد ممن خلف الدهر محثل
أتانا فلم تدفعه إذا جاء طارقا ... وقلنا له قد طال طولك فانزل
هنأنا فلم نمنن عليه طعـــامنا ... فراح يبارى كل رأس مرجل
فأبل واسترخى به الشأن بعدما ... أساف ولولا سعينا لم يؤبل
فذاك ولم نحرم طفيل بن مالك ... وكنا متى ما نسأل الخير نفعل
لنـا معقـــل بذ المعـــاقل كلها ... يرى حاملا من دونه كل معقل

فكما هو واضح استخدم طفيل فى سائر أبيات القطعة الفعل الماضى الذى أعانه على سرد هذه الرواية ، ولكنه حينما أراد أن يجعلنا نتمثل أمامنا بعض المواقف الماضية فى هذه الرواية وكأننا نراها تجرى تحت أعيننا ، استخدم الفعل المضارع فى « يزهاه » وذلك كى نتمثل صورة هذا المفزع الذى تستخفه أصوات الكلاب إذا سمعها فتبعث فى نفسه الرعب والهلع . وحينما أراد أن يصور حاله وقد وفروا له الأمن والطمأنينة والمسكن والطعام . استخدم الفعل المضارع « يبارى » ، وحينما أراد أن يبين أنهم يقدمون الخير لكل من يسألهم إياه استخدم الفعل المضارع « نسأل » وبناه للمجهول .

ومن وسائل طفيل لتحقيق هذه الدقة حرصه على التفاصيل والجزئيات فى رسم صوره حتى يتكامل لها شكلها الأخير . على نحو ما نرى فى هذه الأبيات التى يصف فيها ابله [1] :

وقد سمنت حتى كأن مخاضها ... مجادل بنـــاء تطان وترفع

(١) الديوان ٨٨ ، ٨٩ .

تهاب الطريق السهل تحسب أنه وعور وراط وهى بيداء بلقع
إذا ساقها الراعى الدثور حسبتها ركاب عراق مواقـــير تدفع

وواضح فى هذه الأبيات اعتماد طفيل على التفاصيل والجزئيات فى تصويره، وكأنه باحث محقق يدقق فى عمله ويفصل فيما يتحدث عنه، بل كأنه آلة تصوير تعرض المنظر بكل أجزائه وتفاصيله، فهذه الإبل سمنت حتى كأن الحوامل منها مجادل بناء، ولم يكتف بهذا الوصف بل فصل وأضاف، فهذه المجادل تملأ بالطين ثم ترفع بعد ذلك، وهى من بدنها وشحمها تحسب الطريق السهل وعراً فتفرق منه، وإذا ساقها الراعى المتدثر فى عباءته خيل إليك أنها نوق عراقية، ولم يكتف بل أضاف أنها تساق وقد تدثرت فى عباءات.

ومثل هذا التصوير المادى الدقيق فى شعر طفيل كثير فنستطيع أن نرى مثلا منه فى وصفه للسحاب والبرق [١] :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه يضىء سنـــاه سوق أثل مركم
أسف على الأفلاج أيمن صوبه وأيسره يعـــلو مخارم سمسم
له هيـــدب دان كأن فروجه فويق الحصى والأرض أرفاض حنتم

فوصفه للبرق والسحاب وصف حسى مادى، وكأن حواسه كانت أدوات حاكية تحس الطبيعة فتنقلها وتصورها كما هو شأن أداة التصوير، وشأنه فى ذلك شأن شعراء مدرسة الصنعة، يؤلف هذه الصور التى يحسها تأليفاً، ويعمل فى هذا التأليف، ويجد مشقة وعناء أى أنه كان يضيف عنصر الإبداع لما يحس. فقد أضاف هنا للسحاب هيدبا، وقارب بينه وبين الأرض، وكأن لهذا الهيدب جوانب، وكأن هذه الجوانب كسر جرار سود وخضر مبعثرة على الأرض. وهى صور ولاشك بصرية مادية. وواضح من الأبيات أن طفيلا أعطانا أيضاً

---

(١) الديوان ٧٥، ٧٦.

مكان الصورة ، فالسحاب قد دنا من الأرض فأصبحت منطقة الأفـــلاج عن يمينه ، أما جبل سمسم فمن يساره .

التصوير الفنى :

اعتمد شاعرنا على التصوير الفنى اعتماداً شديداً فى صياغة أبياته ، واتخذ منه وسيلة تساعده على إخراج معانيه وأفكاره فى صور حية مدركة ، تخالط الوجدان كما تساعده على تشخيص المجردات وتجسيم الإنفعالات لتحتل فى خيال الإنسان مركزاً حساساً يقربها من شعوره ووجدانه . وطبيعى أن يكثر التصوير الفنى فى شعر طفيـــل لأنه رائد من رواد مدرسة الصنعة التى كانت تعتمد على الأناة والروية ، وتقاوم الطبع ، كما كان طبيعياً أن يأخذ شعره بالتحسين والتجويد والتهذيب ، وهذا ما دفع النقاد القدماء أن يطلقوا عليه لقب المحبر أى المحسن لشعره . وأوضح لون من ألوان هذه الصور الفنية فى شعر طفيل هو التشبيه ، وفرق بين التشبيه عند امرىء القيس وعند طفيل ، فامرىء القيس يعتمد على تراكم التشبيهات . أما طفيل فإنه لا يأتى بتشبيهات متراكمة بل يعمد إلى تفصيلها وتمثيلها كأنه يبحثها ويحققها على نحو مانرى فى قوله (١) :

يزين مراد العين من بين جيبها ... ولباتها أجواز جـــزع مفصل
كجمر غضا هبت له وهو ثاقب ... بروحة لم تستتر ريح شمأل
ووحف يغادى بالدهان كأنه ... مديد غداه السيل من نبت عنصل
تظــل مداريها عوازب وسطه ... إذا أرسلته أو كذا غير مرسل
إذا سئمت من لوحة الشمس كنها ... كنـــاس كظل الهودج المتحجل

ولا يأتى طفيل بتشبيهاته على نسق واحد وإنما يلون فى صورها لأغراض بلاغية ، وهو غالباً ما يحذف وجه الشبه كى يتيح للخيال الفرصة للسعى خلفه

(١) الديوان ٦٤ — ٦٥ .

شتى وجوه الشبه الممكنة ، من مثل قوله (١) :

تبيت كعقبان الشريف رجاله ... إذا ما نووا احداث أمر معطب
وفينا رباط الخيـــل كل مطهم ... رجيل كسرحان الغضا المتأوب
وكنا مـــدماة كأن متونهـــا ... جرى فوقها واستشعرت لون مذهب
تبـــارى مراخيها الزجاج كأنها ... ضراء أحست نبـــأة من مكلب
كأن يبيس المـــاء فوق متونها ... أشارير ملح فى مبـــاءة مجرب
من الغزو واقورت كأن متونها ... زحاليف ولدان عفت بعد ملعب

وفى موضع آخر نراه يشبه قومه بجماعات النحل ، حاذفاً وجه الشبه ، تاركا للخيال فرصة البحث عنه فيقول (٢) :

فباتوا يسنون الزجاج كأنهم ... إذا ما تنادوا خشرم متحدب

ويشبه الخيـــل بالذئاب ، سالكا نفس الأسلوب من حذف وجه الشبه فيقول (٣) :

وخيل كأمثال السراح مصونة ... ذخائر ما أبقى الغراب ومذهب

وفى موضع آخر يشبه الخيل بالسحاب ، دون أن يصرح بوجه الشبه بين الطرفين (٤) :

إذا وردت ماء بليـــل كأنها ... سحاب أطاع الريح من كل مخرم

وكما يشبه الخيل بالسحاب يشبهها أيضاً بالجراد (٥) :

---

(١) الديوان ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) الديوان ٤٢ .
(٣) الديوان ٤٣ .
(٤) الديوان ٧٨ .
(٥) الديوان ٤٣ .

ومن بطن ذى عاج رعال كأنها   جراد تبارى وجهة الريح مطنب

وهذه الخيل عاكفة على القتال إذا انتهت من معركة التحمت فى أخرى كأنها طير عاكفة فى السماء لاتبرح مكانها [١] :

إذا خرجت يوماً أعيدت كأنها   عواكف طير فى السماء تقلب

ويشبهها وقد غرقت ، بالسبد وهو طائر مثل الخطاف وقد غسل بالماء فيقول [٢] :

تقريبها المرطى والجوز معتدل   كأنها سبد بالمـــاء مغسول

ويحذف وجه الشبه فى التشبيهين الذين يأتى بهما فى البيت الواحد ، لوضوحه فيقول [٣] :

وغارة كجراد الريح زعزعها   مخراق حرب كنصل السيف بهلول

ويشبه حبال خيمته بصدور رماح بعضها فى كف بادىء فى الغزو ، وبعضها فى كف خبير بالغزو مجرب له فيقول [٤] :

وأطنابه أرسان جرد كأنها   صدور القنا من بادىء ومعقب

والسهم فى اصفراره كأنه مطيب بالزعفران [٥] :

وأصفر مشهوم الفؤاد كأنه   غداة الندى بالزعفران مطيب

ويكثر عندطفيل أيضاً تشبيه التمثيل ، على نحو ما نرى فى قوله عن النساء [٦] :

---

(١) الديوان ٤٤ .
(٢) الديوان ٥٧ .
(٣) الديوان ٥٩ .
(٤) الديوان ١٩ .
(٥) الديوان ٥٠ .
(٦) الديوان ٦٠ .

إن النساء كأشجار نبتن معــــا   منها المرار وبعض المر مأكول

وقوله فى وصف الأطلال (١).

ترى جل ما أبقى السوارى كأنه   بعيد السوافى اثر سيف مفلل

فأكثر ما أبقته الأمطار والرياح من ديار الحبيبة كأنه فرند سيف قديم فيه فلول .

ويشبه الإبل حول فحلها تشم منكبيه بعذارى قريش فيقول (٢) :

تسوف الأوابى منــكبيه كأنها   عذارى قريش غير أن لم توشم

كما يشبه آثار الديار التى وجدها فى أطلال الحبيبة فيقول (٣) :

وسفع صلين النار حولا كأنما   طلين بقـــار أو بزفت مليع

وعجـــل نضى بالمثـــانى كأنها   ثعالب موتى جلدها لم ينزع

ويشبه ابن طوق فى حالة وفائه ، بحالة الدبران الذى ساق للثريا عشرين نجما مهراً لها فيقول (٤) :

أما ابن طوق فقد أوفى بذمته   كما وفى بقلاص النجم حاديها

وإذا عرفنا أن العنصر الأول فى التشبيه وهو الخيال ، والخيال إنما يستمد مادة من المشاهـــدات والمدركات ، كان طبيعياً أن تؤثر البيئة والعصر فى تشبيهات طفيل ، لذلك نلاحظ وجود التشبيهات البدوية الصحراوية فى شعره .

---

(١) الديوان ٦٢ .
(٢) الديوان ٧٧ .
(٣) الديوان ١٠٤ .
(٤) الديوان ١١٣ .

فهو يقول فى وصف الخيل : (١)

وجرداء مسراح تبيل حزامها   طروح كعود النبعة المتنحب
وعوج كأحناء السراء مطت بها   مطارد تهديها أسنة قعضب

وواضح أن الصورتين منتزعتان من البيئة الصحراوية التى كان يعيش فيها .

ويقول فى وصف ما تخلفه الخيل وراءها من غبار وحصى (٢) :

إذا هبطت سهلا كأن غباره   بجانبه الأقصى دواخن تنضب
وهصن الحصى حتى كأن رضاضه   ذرى برد من وابل متحلب

فهو يشبه الغبار الذى تخلفه الخيل من ورائها حينما تهبط سهلا بالدخان المتخلف من اشتعال شجر تنضب ، وله دخان أبيض ، كذلك ما تكسر وتطاير من وطىء الخيل الحصى بقطع البرد الساقطة فى المطر . وكلتا الصورتين بدوية خالصة مأخوذة من البيئة .

ويشبه الظعائن فى هوادجن بعذوق النخل غطيت من الجراد والدبا والحر والقر فيقول (٣) :

أشاقتك أظعان بجفن يبنبم   نعم بكرا مثل الفسيل المكمم

ويشبه الفرس فى سرعتها بصخرة منحدرة من جبل يلملم فيقول (٤) :

وسلهبة تنضو الجياد كأنها   رداة تدلت من فروع يلملم

---

(١) الديوان ٢١ .
(٢) الديوان ٢٥ ، ٧٦ .
(٣) الديوان ٧٢ .
(٤) الديوان ٧٩ .

كما يشبه نفسه فى شبابه بصدر السيف اليمانى (١) :

وكنت كما يعلمن والدهر صالح كصدر اليمانى أخلصته صياقله

ومثل هذه الصور المنتزعة من البيئة كثير فى شعر طفيل .

واللون الثانى من ألوان التصوير الفنى عند طفيل الاستعارة .

ومن أجمل الاستعارات عند طفيل قوله فى وصف ناقته (٢) :

وحملت كورى خلف ناجية يقتات شحم سنامها الرحل(٣)

وقوله (٤) :

وأصبحت قد عنفت بالجهل أهله وعرى أفراس الصبا ورواحله

ومن أمثلة الاستعارة عنده قوله عن الخيل (٥) :

إذا استعجلت بالركض سد فروجها غبار تهاداه السنابك أصهب

فقد استعار لعملية إثارة الخيل الغبار بحوافرها وهى تنطلق فى عدوها السريع هذه الصورة الحية المعبرة التى نرى فيها الغبار شيئاً تتهاداه هذه الحوافر وكأنها تتبادل فيما بينها تلك الهدية الغريبة .

ومنها قوله (٦) :

وقد منت الخذواء منا عليهم وشيطان إذ يدعوهم ويثوب

---

(١) الديوان ٨١ .

(٢) الديوان ١٠٨ .

(٣) الكور : الرحل ، ناجية: ناقة سريعة .

(٤) الديوان ٨٢ .

(٥) الديوان ٤٤ .

(٦) الديوان ٤٩ .

فقد جسم الخذواء فرسه في صورة إنسان يعطى ويمن ليضفى عليها صفات الحياة.

ومنها قوله(١) :

يراقب ايحاء الرقيب كأنه لما وترونى آخر اليوم مغضب

فقد صور السهم فى صورة إنسان يراقب ويحس ويشعر وينفعل ، ومنها قوله فى وصف سحاب (٢) :

أبست به ريح الجنوب فأسعدت روايا له بالماء لما تصرم (٣)

فهو يستعير للسحاب هذه الصورة البدوية المعبرة ، إذ جسم السحاب فى صورة ناقة ، وجعل الرياح تستدر هذه الناقة لتقدم لبنها ، وجعل السحاب يستجيب لهذه الرياح كما تستجيب الناقة لحـــلابها فيسقط هذه الروايا الممتلئة بالماء .

ومن استعاراته أيضاً قوله (٤) :

بضرب يزيل الهام عن سكناتها وينقع من هام الرجال بمشرب

فقد جسم السيوف وهى تضرب هام الأعداء فتخضبها دماؤهم ، فى هذه الصورة الحية المعبرة التى نرى فيها السيوف وكأنها لا تختضب بدماء الأعداء ، ولكنها تشرب منها وترتوى حتى تطفىء ظمأها .

وإلى جانب التشبيه والاستعارة نجد عند طفيل صورة أخرى من الصور البيانية وهى الكناية .

---

(١) الديوان ٥٠ .

(٢) الديوان ٧٦ :

(٣) أبست : يريد استدرته كما تستدر الناقة ، لما تصرم : لما تنقطع .

(٤) الديوان ٣٢.

وقد استطاع طفيل عن طريقها أن يعطينا الحقيقة مصحوبة بدليلها ، والقضية مشفوعة ببرهانها ، وأن ينفذ منها إلى تحقيق صورته الحسية المادية الدقيقة ، فطفيل يكنى عن رشاقة حبيبته ودقة خصرها بخمصانة الحشا فيقول [١] :

أسيلة مجرى الدمع خمصانة الحشا   برود الثنايا ذات خلق مشرعب

ويقول فى موضع آخر [٢] :

ديار لسعدى إذا سعاد جداية   من الأدم خمصان الحشا غير خثيل

ويكنى طفيل عن الطول بطول نجاد السيف لأنه يلزم من طول حمالة السيف طول صاحبه يقول [٣] :

طويل نجاد السيف لم يرض خطة   من الخسف وراد إلى الموت صقعب

ويكنى بالمطارد وهى الرماح القصار عن أعناق الخيل فيقول [٤] :

وعوج كأحناء السراء مطت بها   مطارد تهديها أسنة قعضب [٥]

ويقرب إلينا طفيل الصورة الذهنية فى صورة حسية عن طريق الكناية فهو يكنى عن الإيذان بالحرب بقرع العصا فى قوله [٦] :

خدت حول أطناب البيوت وسوفت   مرادا وإن تقرع عصا الحرب تركب

ويكنى عن الاستعداد للحرب وخوض غمارها بتقليص السرابيل ، وذلك

---

(١) الديوان ١٨ .
(٢) الديوان ٦٣ .
(٣) الديوان ٢٠ .
(٤) الديوان ٢٩ .
(٥) عوج : يعنى أضلاعا ، السراء : شجر يتخذ منها القسى ، مطت بها : مدت بها نهضت بها ، المطارد : الرماح القصار واحدها مطرد .
(٦) الديوان ٢٨ .

فى قوله (١) :

يعلو بها البيد ميمون نقيبته   أروع قد قلصت عنه السرابيل

أما فى قوله (٢) :

هنـــأنا فلم نمن عليه طعامنا   فراح يبارى كل رأس مرجل
فأبل واسترخى به الشأن بعدما   أساف ولولا سعينا لم يؤبل (٣)

فقد كنى بقوله « يبارى كل رأس مرجل » عن تسويته بأنفسهم . وكنى بقوله « استرخى به الشأن » عن حسن الحال .

ويكنى بالشطر الأول فى قوله (٤) :

رقود الضحى ميسان ليل خريدة   قد اعتدلت فى حسن خلق مطهم

عن الترف والنعمة فمن تحتها من يقوم على خدمتها ورعايتها حتى أنها تنام الليل كله ، حتى ترتفع الضحى عالية فى الأفق .

ويكنى بالذئاب عن السفهاء من الناس (٥) :

أبيت اللعن والراعى متى ما   يضع تكن الرعيـــة للذئاب

ويكنى عن المساواة بقوله فى الشطر الثانى من البيت (٦) :

أغـــرنا إذ أغار الملك فينا   منالا والقباب مـــع القباب

---

(١) الديوان ٥٩ .
(٢) الديوان ٧٠ ، ٧١ .
(٣) أبل : اتخذ ابلا ، أساف : ماتت ابله ، وفى البيتين رد للاعجاز على الصدور .
(٤) الديوان ٧٥ .
(٥) الديوان ٩٠ .
(٦) الديوان ٩٥ .

وإلى جانب هذه الألوان البيانية نجد ألواناً أخرى من البديع عند طفيل ، ومن اليسير أن نرى صوراً من الجناس فى شعره .

والجناس عند طفيل غير متكلف ، ولذلك يجىء منسجماً ليكسب شعره انسجاماً فى النغم ، ويجعل له وقعاً موسيقياً فى الأسماع ، على نحو ما نرى فى هذه الأبيات التى يظهر فيها الجناس الناقص :

أمن رسوم بأعلى الجزع من شرب فاضت دموعك فوق الخد كالسرب(١)

* * *

ويل أم حى دفعتم فى نحورهم بنى كلاب غداة الرعب والرهب(٢)

* * *

لقد أردى الفوارس يوم حسى غلام غير مناع المتاع(٣)

فقد جانس بين « شرب » و « السرب » و « الرعب والرهب » و « مناع والمتاع » ، وكما يظهر عند طفيل الجناس الناقص يظهر عنده أيضا الجناس الاشتقاقى ، على نحو ما نرى فى هذه الأبيات :

أتانا فلم ندفعه إذ جاء طارقاً وقلنا له قد طال طولك فانزل(٤)

* * *

ألم تر ما أبصرت أم كنت ساهياً فتشجى بشجو المستهام المتيم(٥)

---

(١) الديوان ٥٩ .
(٢) الديوان ٦٩ .
(٣) الديوان ١٠٥ .
(٤) الديوان ٧٠ .
(٥) الديوان ٧٣ .

فمشوا إلى الهيجاء فى غـــلواتها   مشى الليوث بكل أبيض مذهب[١]

* * *

وماكانت بنـــاتهم ســـبيا   ولا رغبـــا يعد من الرغاب[٢]

* * *

أحدثه ان الحديث من القرى   وتكلأ عينى عينه حين يهجع[٣]

* * *

والفيتنا رحماً على الناس واحداً   فنظلم أو نأبى على من تظلما[٤]

* * *

وانا أناس ما تزال ســــوامنا   تنور نيران العدو مناسمه[٥]

* * *

يراقب ايحـــاء الرقيب كأنه   ا! وتروى آخر اليوم مغضب[٦]

* * *

إذ يجانس بين « طال وطول » و « تشجى وشجو » و « مشوا ومشى » و « رغبا والرغاب » و « أحدث والحديث » و « نظالم وتظلما » و «تنور ونيران» و « يراقب والرقيب » .

ومع الجناس نجد الطباق فى شعر طفيل ، وهو لون فنى يكسب المعانى وضوحاً وجمالا .

---

(١) الديوان ٩٤ .
(٢) الديوان ٩٧ .
(٣) الديوان ١٠٣ .
(٤) الديوان ١١٢ .
(٥) الديوان ١١٢ .
(٦) الديوان ٥٠ .

ومن أمثلة الطباق فى شعره مانراه فى هذه الأبيات :

أخنا فسمناها النطاف فشارب   قليلا وآب صد عن كل مشرب (١)

* * *

بسام الوجـــه لم تقطع أباجله   يصان وهو ليوم الروع مبذول (٢)

* * *

رددنا السبايا من نفيل وجعفر   وهن حبالى من مخف ومثقل (٣)

* * *

فأبل واسترخى به الشأن بعدما   أساف ولولا سعينا لم يؤبل (٤)

* * *

خلا أننى قدلا أقول إذا اختار المدير صرم الحبل هل أنت واصله (٥)

* * *

حمتها بنو سعد وحـــد رماحهم   وأخلى لها بالجزع قف وأجرع (٦)

* * *

تهاب الطريق السهل تحسب أنه   وعور وراط وهى بيداء بلقع (٧)

---

(١) الديوان ٢٨ .
(٢) الديوان ٦٠ .
(٣) الديوان ٦٧ .
(٤) الديوان ٢١ .
(٥) الديوان ٨٢ .
(٦) الديوان ٨٨ . والقف : المكان الغليظ والجمع القفاف ، والأجرع والجرعاء : الرابية السهلة .
(٧) الديوان ٨٩ .

سبـــايا طـــىء أبرزن قسراً　　وأبدلن القصور من الشعاب[١]

* * *

الفيتـــني ألوى بعيـــد المستقر　　أحل ما حلت من خير وشر[٢]

* * *

بحى إذا قيل اظعنوا قد أتيتم　　أقاموا فلم تردد عليهم حمائل[٣]

* * *

وأحمر كالديباج أما سمـــاؤه　　فريا وأما أرضـــه فمحول[٤]

* * *

فليتك حال البحـــر دونك كله　　ومن بالمرادى من فصيح وأعجم[٥]

* * *

فـــلا فرح بخـــير إن أتاه　　ولا جزع من الحدثان لاع[٦]

* * *

وأطنابه أرسان جـــرد كأنها　　صدور القنا من بادىء ومعقب[٧]

* * *

تظـــل مداريها عوازب وسطه　　إذا ارسلته أو كذا غير مرسل[٨]

---

(١) الديوان ٩٧ .
(٢) الديوان ١٠٠ .
(٣) الديوان ١٠٧ .
(٤) الديوان ١٠٨ .
(٥) الديوان ١١٠ .
(٦) الديوان ١١٥ .
(٧) الديوان ١٩ .
(٨) الديوان ٦٣ .

عروب كأن الشمس تحت قناعها إذا ابتسمت أو سافرا لم تبسم [1]

. . .

حيث نجـــد طباقاً بين « شارب وآب » و « يصان ومبذول » و « مخف ومثقل » و « أبل وأساف ولم تؤبل » و « صرم الحبـــل وواصله » و « قف وأجرع » و « الطريق السهل ووعور وراط » و « القصور والشماب » و « خير وشـــر » و « اظعنوا وأقاموا » و « سماؤه وأرضه » و « فصيح وأعجم » وبادىء ومعقب » و « أرسلته وغير مرسل » و « ابتسمت ولم تبسم » .

القيم الموسيقية :

إذا نظرنا فى شعر طفيل لنتبين مميزاته من الناحية العروضية ، فإننا نلاحظ أن الأوزان التى طرقها طفيل هى نفس الأوزان التى عرفها الشعراء الجاهليون ، ولكن طفيلا يختار من بينها الأوزان التى تتسع لروح الحماسة والفروسية والفخر وطلاقة الوصف ، وإذا استعرضنا الديوان وذيل الديوان وجدنا هذه الأوزان تنحصر فى خمسة بحور . وأكثر هذه البحور دوراناً فى شعره البحر الطويل فقد نظم فيه القصائد والمقطوعات ذوات الأرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ من الديوان و ١٢ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ من ذيـــل الديوان . ويلى البحر الطويل البحر الوافر وله فيه القصيدة العاشرة من الديوان وذوات الأرقام ١٠ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٣ من ذيل الديوان . وله فى البسيط القصيدة الخامسة من الديوان ، وذوات الأرقام ١٣ ، ١٨ ، ٤٦ من ذيل الديوان . وله فى الكامل ذوات الأرقام ١١ ، ٣٢ ، ٣٨ من ذيل الديوان .

وفى ذيل الديوان مقطوعة من الرجز ، وكذلك بيت من البحر نفسه .

---

(١) الديوان ٧٥ .

ومن هذا العرض لأوزان شعر طفيل نرى غلبة البحر الطويل الذى يكاد يقف وحده ازاء البحور ، ويليه بحر الوافر ، فالبسيط ، فالكامل ، فالرجز .

وقد تضافرت عوامل كثيرة أشاعت فى شعر طفيل جواً موسيقياً واضحاً ، منها عوامل عامة تصدق على سائر الشعراء وهى تأليف القصيدة على وحدات موسيقية هى الابيات ، يلتزم الشاعر فيها جميعاً وزناً واحداً يرتبط بنغماته وألحانه فى القصيدة كلها ، كما يلتزم حرفاً واحداً يتحد فى نهاية هذه الأبيات وهو الروى . وهناك عوامل خاصة ساعدت على توفير هذا الجو الموسيقى فى شعر طفيل وهو ما كان يوفره لشعره من صنعة وتجويد وتحسين ، فقد كان دقيقاً فى اختيـــــار الألفاظ الموحية المعبرة ذات الدلالات الخاصة ، والتأليف بين هذه الألفاظ فى نسق صوتى دقيق ، هذا بالإضافة إلى ما كان يظهر فى شعره من تلك الألوان البديعة الطريفة التى تساعد على إشاعة هذا الجو الموسيقى فى شعره .

وقد ساعد هذا كله على ايجاد ايقاع داخلى فى الأبيات على نحو ما نرى فى قوله (١) :

إذا قيل نهنهها وقد جد جدها   ترامت كخذروف الوليد المثقب

فان دقة استخدام كلمة نهنهها بمعنى أكففها ، وتبادل النون والهاء فيها ، والجناس بين جد وجد ، كل هذه عوامل ساعدت على حدوث النغم الموسيقى داخل البيت . كذلك وجدنا أن حسن التقسيم وتتابع الصفات فى أبيات طفيل قد وفرا له أيضاً نوعاً من الإيقاع الداخلى كما نرى فى قوله (٢) :

أسيلة مجرى الدمع خمصانة الحشا   برود الثنايا ذات خلق مشرعب

وقوله (٣) :

وجرداء ممراح نبيل حزامها   طـــروح كعود النبعة المتنخب

---

(١) الديوان ٢٢ .

(٢) الديوان ١٨ .

(٣) الديوان ٢١ .

وقوله (١) :

فان فزعوا طاروا إلى كل سابح   شديد القصيرى سابغ الضلع جرشع

ومن أبياته التي تمتاز بتقسيم موسيقى دقيق قوله (٢) :

وكائن كررنا من جواد وراءكم   وكائن خضبنا من سنان ومنصل
وكائن كررنا من سوام عليكم   ومن كاعب ومن أسير مكبل

وينتشر التصريع في طائفة من مطالع قصائد طفيل ومقطوعاته ، على نحو ما نرى في هذه المطالع :

تأوبني هم مع الليل منصب   وجاء من الأخبار مالا أكذب (٣)

• • •

غشيت بقرا فرط حول مكمل   مغاني دار من سعاد ومنزل (٤)

• • •

أشاقتك أظعان بجفن يبنبم   نعم بكرا مثل الفسيل المكمم (٥)

• • •

صحا قلبه وأقصر اليوم باطله   وأنكره مما استفاد حلائله (٦)

• • •

(١) الديوان ٥٣ .
(٢) الديوان ٦٩ ، ٧٠ .
(٣) الديوان ٣٧ .
(٤) الديوان ٦٢ .
(٥) الديوان ٧٢ .
(٦) الديوان ٨١ .

أمن رسوم بأعلى الجزع من شرب   فاضت دموعك فوق الخد كالشرب[1]

• • •

عرفت لليلى بين وقط فضلفع   منازل أقوت من مصيف ومربع[2]

• • •

أظعن بصحراء الغبيطين أم نخل   بدت لك أم دوم بأكمامها حمل[3]

• • •

لمن طلل بذى خيم قـــديم   يلوح كأن باقيـــه وشوم[4]

• • •

ولا يفوتنا أن نسجل على طفيل ما وجدناه من عيب فى القافية وهو الاقواء، وهو اختلاف حركة الروى فى القافية فى القصيدة الواحدة كما فى قوله :

قبائل من فرعى غنى تواهقت   بها الخيل لا عزل ولا متأشب[5]
نزائع مقذوفاً على ســـرواتها   بما لم تخالسها الغزاة وتسهب[6]
ألا هل أتى أهل الحجاز مغارنا   ومن دونهم أهل الجناب فأيهب[7]

• • •

وكذلك فى قوله :

---

(١) الديوان ٩٥.
(٢) الديوان ١٠٣ .
(٣) الديوان ١٠٧ .
(٤) الديوان ١١١ .
(٥) الديوان ٢٢ .
(٦) الديوان ٢٣
(٧) الديوان ٤١ .

لقد بينت للعين أحداجها معاً ... عليهن حوكى العراق المرقم[١]
أسيل مشك المنخرين كأنه ... إذا استقبلته الريح مسعط شبرم[٢]

فالكسر هو حركة الروى فى القصيدة الأولى ولكن الأبيات الثلاثة التى أثبتناها وردت بالكسر والضم فى بعض المصادر إشارة إلى الاقواء فيها وكذلك الكسر هو حركه الروى فى القصيدة الثانية ، لكن البيتين اللذين أثبتناهما هنا وردا بالضم فى بعض المراجع ، اشارة إلى ما فيهما من اقواء .

(١) الديوان ٧٤ .
(٢) الديوان ٢٧ .

(٢) الخصائص التعبيرية

يمكن لدارس شعر طفيل الغنوى أن يستخلص بعض السمات التعبيرية من شعره التى يمكن أن تضاف له على أنها خصائص مميزة . هذا بجانب القيم التعبيرية الأخرى التى اشترك فيها شعراء العصر الجاهلى بصفة عامة ومن هذه الخصائص:

الإلحـــاح :

وقد لجأ اليه طفيل من أجل ابراز معانيه وتجليتها ، وقام عنده على ايراد الصفات المتتابعة فى البيت الواحد أو البيتين أو المجموعة من الأبيات من أجل ن يوضح فكرة أو يبرز معنى يقول [(١)]:

وفينا ترى الطولى وكل سميدع　　　مدرب حرب وابن كل مدرب

طويل نجادالسيف لم يرض خطة　　　من الخسف ورادإلىالموت صقعب

فالطولى أى الطويل الجسيم ، وطويل نجاد السيف كناية عن الطول ، وهذا السيد مدرب وابن مدرب . كذلك وراد وصقعب صفتان .

ويستفيد طفيل لتحقيق الحاحه من خصائص اللغة العربية فى الترادف ، فيعرض السؤال بفعلين مترادفين ، فى خطابه للنعمان بن المنذر يسأله عن الغنوى الذى استاق الملك ابله ، ماذا فعل هذا الغنوى فى حق الملك ؟ فيقول [(٢)] :

أجرم أم جنى أم لم تخطوا　　　له أمنا فيؤخــذ فى الكتاب

كما يلح على بعض الصور المعينة ، فهو يصور الحصان فى جريه الشديد يشبه

---

(١) الديوان ٢٠ .

(٢) الديوان ٩١ .

تتابع الخذروف الذى يلعب به الصبيان فيقول (١) :

يذيق الذى يعلو على ظهر متنه ظلال خذاريف من الشد ملهب

ويقول (٢) :

إذا قيل نهنهها وقد جد جدها ترامت كخذروف الوليد المثقب

ويلح طفيل على بعض المفردات فيكررها فى مواطن متقاربة فى البيت الواحد ، وفى البيتين يقول (٣) :

جلبنا من الأعراف أعراف غمرة وأعراف لبنى الخيل يا بعد مجالب

ويقول (٤) :

كواكب دجن كلما غاب كوكب بدا وانجلت عنه الدجنة كوكب

ويقول (٥) :

وكائن كررنا من جواد وراءكم وكائن خضبنا من سنان ومنصل

وكائن كررنا من سوام عليكم ومن كاعب ومن أسير مكبـــل

ويقول (٦) :

فلو كنا نخافك لم تنلهـــا بذى بقـــر فروضات الرباب

أكنـــا باليمـــامة أو لكنا من المتحدرين على جنـاب

---

(١) الديوان ٢١ .

(٢) الديوان ٢٢ .

(٣) الديوان ٢٢ .

(٤) الديوان ٣٩ .

(٥) الديوان ٦٩ ، ٧٠ .

(٦) الديوان ٩١ .

السلبية فى التعبير :

من خلال قراءاتنا لشعر طفيل تتضح لنا ظاهرة تعبيرية تطرد فى كثير من أبياته الشعرية وهى التعبير بالسلب ، فهو إذا أراد أن يصف شيئاً ويمتدح مافيه لايعرض لذكر الصفات الإيجابية المباشرة ، وإنما يلجأ إلى نفى الصفات المستقبحة وله قصيدة فى الديوان يلجأ فيها السلبية فى التعبير من أجل أن يثبت عكس الصفة التى ينفيها يقول فيها (١) :

ولا أقول لجار البيت يتبعنى ... نفس عليك إن الجو محلول
ولا أخالف جارى فى حليلته ... ولا ابن عمى غالتنى إذا غول
ولا أغول وجم الماء ذو نفس ... من الحرارة إن الماء مشغول
ولا أحدد أظفارى أقاتله ... إن اللطام وقول السوء محمول
ولا أكون وكاء الزاد أحبسه ... إنى لأعلم أن الزاد مأكول
ولا أجس فوى خزية أبدا ... فيها القرود ردافا والتنابيل

والأمثلة على عدول طفيل عن الصفات المباشرة إلى الصفات التى يريد أن يقرر عكسها ملتجئاً إلى السلبية فى التعبير كثيرة ، نأخذ على سبيل المثال قوله (٢) :

قبائل من فرعى غنى تواهقت ... بها الخيل لاعزل ولا متأشب

فهو لم يلجأ للتعبير المباشر بقوله « مسلحين » فى مقابل « لاعزل » ومن أصل واحد « ... » ولا متأشب » .

ويقول (٣) :

وتمت إلى أجوازها وتقلقلت ... قلائد فى أعناقها لم تقضب

---

(١) الديوان ٥٧ ، ٥٩ .

(٢) الديوان ٢٢

(٣) الديوان ٢٥

فهو يعدل عن قوله قلائد سليمة، بقوله لم تقضب أى لم تقطع .

ويقول (١) :

فألوت بغاياهم بنا وتباشرت   إلى عرض جيش غير أن لم يكتب

فعدل عن وصف الجيش بالتعبير الموجب المباشر « مبثوث منتشر » إلى التعبير السالب « لم يكتب » بمعنى يجمع .

ويقول (٢) :

فرحن يبارين النهاب عشية   مقلدة أرسانها غير خيب

فقد عبر عن الخيل وقد عادت من المعركة بقوله « غير خيب » فى مقابل « ظافرة منتصرة » .

ويقول (٣) :

تضل المدارى فى ضفائرها العلى   إذا أرسلت أو هكذا غير مرسل

فلم يقل فى وصف الشعر « مضفر » بل عبر عن هذه الصفة بالسلب فقال غير مرسل .

وفى مدحه لبنى الحارث بن كعب يقول (٤) :

وإن شلت الأحياء بات ثويهم   على خير حال آمنا لم يفزع

فهو من أجل أن يؤكد صفة من الصفات لجأ إلى السلبية فى التعبير فدحهم بأن جارهم آمن ، ثم أردف بتعبير سلبى مؤكداً بأنه « لم يفزع » .

---

(١) الديوان ٢٩ .

(٢) الديوان ٣٢ .

(٣) الديوان ٦٣ . والأمثلة أكثر من أن تعد انظر الديوان : ١٩ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٥ ، ٧٧ .

(٤) الديوان ٥٣ .

ويقول فى وصف سعاد الجارية [١] .

ديار لسعدى إذ سعاد جداية — من الأدم خمصان الحشا غير خثيل

فهى خميصة البطن ، ثم يؤكد بصفة سلبية فيصف بأنها فى مكان لم يحلل ، أى موضع ليس فيه الناس .

ويقول [٢] :

تسوف الأوابى منكبيه كأنها — عذارى قريش غير أن لم توشم

فلجأ إلى التعبير بالسلب حينما اضطر إلى الاحتراز فى التعبير فهو شبه الأوابى من حول الفحل بالنساء القرشيات ، ثم احترز بأنه ليس بهن وشم .

الدقة فى اختيار الألفاظ المعبرة :

كان طفيل كسائر شعراء مدرسة الصنعة حريصاً على التزام الدقة فى اختيار ألفاظه المعبرة الموحية ، ولا غرو فقد أطلق عليه النقاد القدماء لفظ « المحبر » أى المحسن لشعرة . لحينما أراد أن يصور الحصان وقد ابتل جميع جسمه من العرق قال[٣] :

كأن على أعطافه ثوب مائح — وإن يلق كاب بين لحييه يذهب

فقد اختار طفيل لتشبيهه كلمة مائح ولم يقل ماتحا . والفرق بين اللفظين أن المائح هو الذى ينزل البئر إذا قل ماؤها فيملأ الدلو وهو أبدا مبلول ، أما الماتح بالتاء فهو الذى يمتح الماء من البئر ويكون فى أعـــلاها ويأخذ من المائح وليس من الضرورى أن يكون مبلولا .

---

(١) الديوان ٦٣ .
(٢) الديوان ٧٧ .
(٣) الديوان ٢٧ .

وفى تشبيهه لخيلهم السريعة بذئاب الغضا، اختار المتأوب منها، وهو الذى يأتى أهله ليلا، وذلك أشد لعدوه ومضيه يقول [١] :

وفينا رباط الخيل كل مطهم رجيل كسرحان الغضا المتأوب

ويشبه حصانه بتيس الحلب فيقول [٢] :

على كل منشق نساها طمرة ومنجـــرد كأنه تيس حلب

وقد اختار فى تشبيهه للحصان تيس الحلب وتيس الحلب يأكل الخضرة فإذا تربلت الأرض أكل الحلب، فيرى أنه بهذا أقوى وأسرع .

وانظر دقته فى تشبيهه كثرة الفرسان بالزنابير والنحل يقول [٣] :

فباتوا يسنون الزجاج كأنهـــم إذا ماتمادوا خشرم متحدب

الوحدة التعبيرية :

درج النقاد القدماء على اعتبار بيت الشعر وحدة فنية وتعبيرية قائمة بذاتها وكان الشعراء يلتزمون بهذا المبدأ . وكان النقاد يرفعون شاعراً ويسقطون آخر لتفوقه فى بيت من الشعر . فالبيت فى قصائدهم يمثل وحدة معنوية قائمة بنفسها. وتتألف القصيدة من طائفةمن الأبيات المستقلة التى يقف فيها كل بيت قائماًبنفسه غير متوقف على مايسبقه ولا على ما يلحقه . ويرجع الدكتور شوقى ضيف هذا الايجاز فى التعبير والنقل من معنى إلى معنى فى خفة وسرعة عند الشاعر الجاهلى لحياته التى لا تعرف الهـــدوء والاستقرار ، لأنهم دائماً راحلين وراء الغيث ومساقط الكلأ [٤] .

ولكننا نجد عند طفيل فى طائفة من أبياته أن البيت لا يشكل وحدة معنوية

---

(١) الديوان ٢٠ .

(٢) الديوان ٣٠ .

(٣) الديوان ٤٢ .

(٤) العصر الجاهلى ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

قائمة بذاتها ، وإنما تشكل مجموعات من الأبيات هذه الوحدة ، فهو يقدم الوحدة التعبيرية للأداء على الوحدة الفنية الموروثة ، فإذا لم يستوعب البيت معناه تعداه إلى ثان وثالث شاداً أبياته بروابط لغوية واضحة يقول [١]:

وراكضـــة ما تستجن بجنة ... بعير حـــلال راجعته بجعفل
فقلت لها لما رأينا الذى بها ... من الشر لاتستوهلى وتأملى
فإن كان قومى ليس عندك خيرهم ... فإن سؤال الناس شافيك فاسألى

ويقول [٢] :

وأشعث يزهاه النبوح مدفع ... عن الزاد مِن خلف الدهر محثل
أتانا فلم تدفعه إذا جاء طارقا ... وقلنا له قد طال طولك فانزل
هنأنا فلم نمنن عليـــه طعامنا ... فراح يبارى كل رأس مرجل
فأبل واسترخى به الشأن بعدما ... أساف ولولا سعينا لم يؤبـــل
فذاك ولم نحرم طفيل بن مالك ... وكنا متى ما نسأل الخير نفعل

وواضح أن طفيلا لم يفرغ من التعبير عن فكرته إلا بنهاية البيت الأخير وهذا ما دعانا إلى القول بأن الوحدة التعبيرية ، كانت عند شاعرنا مقدمة على الوحدة الفنية .

وطفيل يزدهيه منظر الظعائن ، وقد ركبن الهوادج ، وأسرعن السير ، فيقف ليسأل رفيقه حراضا ،وحراض يرد عليه ، ومن خلال السؤال والجواب تتكامل الفكرة فى هذه الأبيات الثلاثة [٣] :

فقلت لحراض وقد كدت أزدهى ... من الشوق فى إثر الخليط المتيمم
ألم تر ما أبصرت أم كنت ساهيا ... فتشجى بشجو المستهام المتـــيم

---

(١) الديوان ٦٨ .
(٢) الديوان ٧٠ .
(٣) الديوان ٧٢ .

فقال ألا لا لم تر اليوم شبحة وما شمت إلا لمح برق مغيم

ويصف ابله فلا يستطيع أن يفرغ من وصفها فى بيت واحد ، بل ترتبط أبياته بعضها ببعض فى وحدة تعبيرية فيقول[1] :

عوازب لم تسمع نبوح مقامة ولم تر ناراً تم حــــول بجرم
سوى نار بيض أو غزال بقفرة أغن من الخنس المناخر توأم
إذا راعياها انضجاه تراميــــا به خلســــة أو شهوة المتقرم

(١) الديوان ٧٧ ، ٧٨ .

(٤) الخصائص اللغوية

شعر طفيل كشعر سائر شعراء العصر الجاهلي ، نظم باللغة العربية لغة قريش التى نزل بها القرآن الكريم ، وهى اللغة العربية الأدبية الموحدة التى عرفها العصر الجاهلي ، والتى اتخذها الشعراء والخطباء من شتى القبائل لغة ينظمون فيها شعرهم ويصوغون بها خطبهم . وكانت صلة طفيل بالمجتمع الأدبى صلة قوية . فقد تأثر طفيل بمن سبقوه وأثر فيمن جاء بعده من الشعراء . وقد لاحظ الأصمعى من من النقاد القدماء هذه الظاهرة فنص عليها حيث قال — « أخذ كل الشعراء من طفيل حتى زهير والنابغة » ، ثم قال : « وقد أخذ طفيل من امرىء القيس شيئاً » ومعنى هذا أن طفيل لم يكن يعيش منعزلا عن الوسط الأدبى ، بل تفاعل معه فأثر فيه وتأثر به ، فكانت لغته هى اللغة التى تمثل فطرة اللغه العربية أصدق تمثيل ، ولكن يجب أن نقيد هذا الكلام قليلا ، فلغة طفيل قد دخلها شيء من الروية والأناة والتنقيح والتثقيف والتحسين ، حتى استحقق لقب القدماء الذى أطلقوه عليه « المحبر » أى المحسن لشعره ، واستحق أيضا أن يكون الرائد الأول لمدرسة الصنعة ، لذلك غلبت على لغته جودة استعمال الألفاظ فى معانيها الموضوعة لها ، وغلبة استعمال الالفاظ الجزلة ، ومتانة الأسلوب . ولكن نظرا لأنه كان شاعرا من الشعراء القدماء فهو أقدم شاعر فى قيس ، ولأنه كان يسكن البادية ، فإن لغته وربما كان ذلك فى بداية حياته كانت أقرب إلى فطرة اللغة العربية وأصدق تمثيلا لها من سائر الشعراء الجاهليين ، لذلك وجدنا المعاجم اللغوية تتكىء على شعره من مثل لسان العرب ، وتاج العروس ، وسبق أن ذكرنا أن المصادر اللغوية تعد مصدرا من المصادر الهامة فى دراسة شعر شاعرنا طفيل . وقد استقرأنا أبيات طفيل فى لسان العرب فوجدناها تزيد على واحد وثمانين بيتا . ولعل قدم طفيل وسكناه البادية فى مستهل حياته جعلاه يستخدم فى بعض الاحيان ألفاظا غريبة هجرت عند المحدثين إما لقلة استعمال مدلولها ، وإما للاقتصار على مرادف أسهل منها ، وأنت حين تقرأ هذه الأبيات يخيل إليك أنك أمام طلاسم لفظية ، وتجد نفسك مضطرا فى أن ترجع للمعاجم المطولة للكشف عن معناها اقرأ هذه الأبيات :

كأن الرعاث والسلوس تصلصلت　　على خششاوى جأبة القرن مغزل(١)

. . .

أذودهم عنكم وأنتم رثالة　　شلالا كما زيد النهال الخوامس(٢)

. . .

نهوض بأشناق الديات وحملها　　وثقل الذى يجنى بمنكبه لعب(٣)

. . .

ولو كنت سيفا كان أثرك جمرة　　وكنت ددانا لا يغيرك الصقل(٤)

. . .

هنالك يرويها ضعيفى ولم أقم　　على الظلفات مقفعل الأنامل(٥)

. . .

ويكفى أن نقرأ هذه الأبيات لتبدو لنا الغرابة اللفظية التى أرجعناها لقدم طفيل من ناحية ، ولترجيحنا أنه قالها فى بدء حياته وقبل أن يخرج من أعماق البادية ويطوف مع قبيلته فى أنحاء الجزيرة العربية من ناحية أخرى . ومن الأدلة على غرابة بعض الكلمات عند طفيل اختلاف اللغويين حول معانى بعض الألفاظ فقد اختلفوا حول معنى « السبد » فى قوله :(٦)

تقريبها المرطى والجوز معتدل　　كأنه سبد بالماء مغسول

فيقول أبو العباس إن السبد « طائر بعينه » ، أما فى اللسان « فالسبد » : ثوب يسد به الحوض لئلا يتكدر الماء . يفرش فيه وتسقى الإبل عليه وإياه

---

(١) الديوان ٦٣ .
(٢) الديوان ١٠٢ .
(٣) الديوان ٩٤ .
(٤) الديوان ١٠٧ .
(٥) الديوان ١٠٩ .
(٦) الديوان ٥٧ .

عن طفيل[١]. وفى شعر طفيل شواهد اللغات المختلفة فى الكلمة الواحدة فى الجاهلية، يقول[٢] :

رددن حصينا من عدى ورهطه   وتيم تلبي بالعروج وتحلب

فتلبي من اللبإ ولكنه ترك الهمز .

ويقول : [٣]

لأيامها قيدت وأيامها جرت   لغنم ولم توخذ بأرض وتغصب

فروى توخذ مهملة .

وقوله : [٤]

فلما فنا ما فى الكنائن ضاربوا   إلى القرع من جلد الهجان الجوب

فقوله فنا أراد فنى وهى لغة طائية يصيرون الياء إذا كانت متحركة ألفا من مثل قول زيد الخيل الطائى : [٥]

فلولا زهير أن أكذب نعمة   لقاذعت عمروا ما بقيت وما بقا

أفى كل عام مأتم تجمعونه   على محمر عود أثيب وما رضا

تجدون خمسا بعد خمس كأنها   على فاجع من خير قومكم نعا

يريد نعى ، ورضى ، وبقى . وقد تبدل الهمزة عينا كما عند طفيل فى قوله :

---

(١) لسان العرب ١٨٦/٤ ، والكامل ٨٧٨/٣ .
(٢) الديوان ٤٧ .
(٣) الديوان ٣٤ .
(٤) الديوان ١٣٢ .
(٥) ديوان زيد الخيل ٢٥ .

فنحن منعنا يوم حرس نساءكم   غداة دعانا عامر غير معتلى

قال ابن سيد « انما أراد غير مؤتلي فحول الهمزة عينا، يقال فلان غير مؤتل في الأمر وغير معتل أى غير مقصر »[1].

ويقول طفيل :[2]

أهلت شهور المحرمين وقد تقت   بأذنابها روعات أكلف مكدم

فتقت بمعنى اتقت وهى لغة معروفة . ولعبد الله بن همام السلولى قوله :[3]

زيادتنا نعمان لاتمحونهـــا   تق الله فينا والكتاب الذى تتلو

---

(١) الديوان ٧٦ ، ولسان العرب « علا » ٩/٣٢٨ ، وسر صناعة الاعراب ١/٢٤٠ .

(٢) الديوان ٧٧ .

(٣) لسان العرب «وق» و«تلى» والأغانى ١٦/ ٣١ ، وسر صناعة الاعراب ١/٢١٠ .

(٥) تأثر وتأثير

لم يكن الشاعر الجاهلي يعيش منعزلا عن الوسط الأدبي ، ولو أنه فعل ذلك ما استقامت شاعريته ونضج عمله الفني ، وكان الشاعر فى مستهل حياته إما راويا يروى شعر من سبقوه من الشعراء ، أو يقتصر على رواية مجموعة منهم ، وإما حافظا يحفظ المختار من القصائد والمقطوعات والأبيات وكانت روايته وحفظه يعملان أثرهما فى انتاجه الفنى ، سواء قصد إلى ذلك أم لم يقصد . هـذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الدكتور شوقى ضيف يرجع دوران الشعراء الجاهليين حول معان تكاد تكون واحدة بحيث لاينحرفون عنها يمنة ولا يسرة إلى الحسية التى جعلتهم لا يتسعون بمعانيهم [١] . وهذه الحسية هى التى جعلت نزعة المحاكاة والتقليد تبدو واضحة فى أشعارهم بل انهم أنفسهم أحسوا بما يرددونه وما ينسجه كل منهم على منوال سابقه ، فسجل عنترة تساؤله فى أول معلقته [٢] :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم؟

كما سجل زهير هذا الإحساس فى بيته المشهور :

ما أرانا نقول إلا معارا   أو معادا من قولنا مكرورا

واختلف الحكم عليهم باختلاف تناولهم لهذه المعانى وتدقيقهم فيها بحيث يكشفون عنها ويجلون ما غمض منها ، فكان كل واحد منهم يحاول أن يخلع على هذه المعانى من شخصيته فيصوغها صوغا جديداً فى إضافة وإبداع وتفصيل وتوليد حتى يثبت براعته . وكان السبق فى هذا المضمار لشعراء مدرسة الصنعة الذين كانوا يوفرون لعملهم الفنى ضروريا من الصنعة والتأنى .

---

(١) العصر الجاهلى ٢٢٩ .

وقد سبق طفيلا من الشعراء كثيرون ، كان بلا شك قـــد حفظ أشعارهم وتأثر بها إما تأثراً عفوياً أو مقصوداً . وأبرز هؤلاء الشعراء الذين تأثر بهم شاعرنا هو امرؤ القيس أشهر شعراء العصر الجاهلي المتقدمين ، وهو الذى نهج للشعراء الجاهليين نهج تقاليد قصائدهم ، وفتح لهم أبواب القول ومهد لهم سبله، وسبق بأشعاره إلى الموضوعات المعروفة . وقد أجمع القدماء على تقديمه ، يقول ابن سلام . « سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها استحسنها العرب واتبعه فيها الشعراء منها . استيقاف صحبه ، والبكاء فى الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وقيد الأوابد ، وأجاد فى التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيها »[١] .

ولقد تأثر طفيل بامرىء القيس سواء فى التشبيهات أو ما يصاحبها من صور، أو فى تقاليد العمل الفنى الذى تسلمه منه ، أو فى طريقة التعبير ، وقد لاحظ هذه الظاهرة الأصمعى الذى روى ديوان كل من الشاعرين وقد عبر عن ملاحظته هذه فى قوله « وقد أخذ طفيل من امرىء القيس شيئا »[٢] .

ويمكن للمتأمل فى شعر الشاعرين أن يلمح هذا التأثر .

ويقول امرؤ القيس [٣] :

أصاح ترى برقا أريك وميضه كلمع اليدين فى حبي مكلل

ثم يأتى طفيل فيقول [٤]

أصاح ترى برقا أريك وميضه يضىء سناه سوق أثل مركم

---

(١) ابن سلام ٤٦ ،والشعر والشعراء ١/٥٧ .
(٢) فحولة الشعراء ١٦ .
(٣) مختار الشعر الجاهلى ٣٢ .
(٤) الديوان ٧٥ .

فالشطر الأول عند امرىء القيس هو نفس الشطر الأول عند طفيل. كذلك يتكىء طفيل على امرىء القيس فى صورة تشبيه سرعة الحصان بالخذروف فى شدة دورانه. يقول امرؤ القيس فى وصف فرسه [١] :

دريرٍ كخذروف الوليد أمره　　تقلب كفيه بخيط موصل

فيأتى طفيل ليأخذ صورة تشبيه الحصان فى عدوه بهذه اللعبة من لعب صبيان العرب، يقول طفيل [٢] :

يذيق الذى يعلو على ظهر متنه　　ظلال خذاريف من الشد ملهب

إذا قيل نهنهها وقد جد جدها　　ترامت كخذروف الوليد المثقب

ويقول امرؤ القيس وقد شبه توقد الحلى على صدر صاحبته بجمر المصطلى [٣]:

كأن على لباتها جمر مصطل　　أصاب غضى جزلا وكف بأجذال

وشبت له ريح بمختلف الصوا　　صبا وشمال فى منازل قفال

يريد أن الحلى فى جيد هذه المرأة يلمع ويلتهب، كما يتوقد جمر الغضا الذى يشب للقافلين من السفر، إذا هبت عليه الريح فى مكان يختلف فيه هبوبها واتجاهها، فيكون أشد لتوقده. والقفال من السفر أحوج إلى النار القوية عند نزولهم، لانضاج الطعام، وغسل الثياب، والاصطلاء، وما إلى ذلك.

ثم يأتى طفيل فيلم بالصورة ويقول [٤] :

كجمر غضا هبت له وهو ثاقب　　بروحة لم تستتر ريح شمأل

ويصف امرؤ القيس صاحبته بكثرة الشعر والتفافه فيقول [٥]:

---

(١) مختار الشعر الجاهلى ٣١ .
(٢) الديوان ١١ ، ٢٢ .
(٣) مختار الشعر الجاهلى ٣٦ .
(٤) الديوان ٦٥ .
(٥) مختار الشعر الجاهلى ٢٨ .

غدائره مستشزرات إلى العلى   تضل المدارى فى مثنى ومرسل

فيقول طفيل [١] :

تظل مداريها عوازب وسطه   إذا أرسلته أو كذا غير مرسل

يشبه امرؤ القيس عدو الفرس فى كره وفره بحجر صلب أسقطه السيل من مكان عال فيقول [٢] :

مكر مفر مقبل مدبر معا   كجلمود صخر حطه السيل من عل

ونفس الصورة مع شىء من التغيير يرسمها طفيل فى شعره ، ففرسه الطويلة تجاوز الجياد بسرعتها وتسبقها وكأنها صخرة سقطت من جبل يلملم ، يقول[٣]:

وسلهبة تنضو الجياد كأنها   رداة تدلت من فروع يلملم

وكما تأثر طفيل بامرىء القيس فقد تأثر أيضاً بشاعر قديم يسبقه زمنياوهو أبو دؤاد الإيادى (٤٨٠ — إلى حوالى ٥٤٠ — ٥٥٠م) [٤] الذى يشاركه التفوق فى وصف الخيل .

يقول أبو دؤاد فى وصف الجواد وتشبيهه بسيد الغضا [٥] :

رفيع المعـــد كسيد الغضا   تميم الضلوع بجون رحب

---

(١) الديوان ٦٥ .
(٢) مختار الشعر الجاهلى ٣٠ .
(٣) الديوان ٧٩ .
(٤) دراسات فى الأدب العربى ٢٥٧ .
(٥) المصدر السابق ٢٩٢ .

فيأخذ طفيل الصورة فيقول (١) :

كسيد الغضا الغادى أضل جراءه   علا شرفا مستقبل الريح يلحب

ويقول راسما نفس الصورة (٢) :

وفينا رباط الخيل كل مطهم   رجيل كسرحان الغضا المتأوب

ويقول أبو دؤاد فى سرعة الفرس مشبها عدوه بتوقد النار فى الغاب (٣):

ملهب حشه كحش حريق   وسط غاب ، وذاك منه حضار

ويقول أيضاً (٤) :

فأدبرن واستوثقتهن بسمحج   خفيف الجراء كاضطرام حريق

ويأتى طفيل فيستفيد بالصورة فيقول (٥) :

كأن على أعرافه ولجامه   سنا ضرم من عرفج متلهب

وفى ألوان الخيل يقول أبو دؤاد (٦) :

ان لم تلطى به حقاً أتيتكم   حوا وكنا تعادى كالسراحين

فيستفيد طفيل بهذه الصورة والألوان ويقول (٧) :

ورادا وحوا مشرفا حجباتها   بنات حصان قد تعولم منجب

---

(١) الديوان ٤٥ .
(٢) الديوان ٢٠ .
(٣) دراسات فى الأدب العربى ٣١٧ .
(٤) المصدر السابق ٣٢٨ .
(٥) الديوان ٢٦ .
(٦) دراسات فى الأدب العربى ٢٣ .
(٧) الديوان ٣٣ .

وكمتا مـــدماة كأن متونها جرى فوقها واستشعرت لون مذهب

كما تأثر طفيل بامرىء القيس وغيره من الشعراء تأثر به — من ناحية أخرى — من جاء بعده من الشعراء . وقد أشار إلى هذه الظاهرة الأصمعى إمام الرواية فى زمنه فقال . « أخذ كل الشعراء من طفيل حتى زهير والنابغة » والأصمعى بنصه هذا يقيد كل الشعراء فلا يفلت منهم واحدا ، وكأن شعر طفيل هو الصورة المثالية التى وصل إليها الشعر الجاهلى والتى ينبغى على الشعراء اللاحقين أن يحتذوها ويلتزموابها . وللأصمعى العذر فى ذلك فقد كان الشعراء حريصين على أن يحفظوا الأشعار المختارة المنتقاة التى وفر لها أصحابها ضروبا من التثقيف والتحسين ، ومن هؤلاء شاعرنا طفيل الذى أطلق عليه النقاد القدماء لقب المحبر لما كان يوفره لشعره من ضروب الزينة والتحسين والصنعة . أضف إلى ذلك أن الخلفاء وولاة الأمر قد مدحوا شعر طفيل فأبو بكر الصديق وهو على منبر الخلافة يستظهر المسلمين أبياتا من شعر طفيل . ومعاوية بن أبى سفيان يقول : « دعوا لى طفيلا وسائر الشعراء لكم » ، وعبد الملك بن مروان يقول: « من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليرو شعر طفيل » . ويروى لأولاده وأهل بيته نماذج من أحسن ماقالت العرب فى وصف بيت وينص على أنها لطفيل الغنوى .

شاعر شأنه كذلك لاشك أن الشعراء سيحرصون على احتذاء نماذجه الفنية وحفظها ، وهذا ما حدث وكانت النتيجة أن تأثروه سواء فى المعنى أو اللفظ أو الصورة أو فيها جميعا. وقد نبه الرواة والنقاد على بعض ما فطنوا إليه أوصادفوه، فالرواة يذكرون مثلا أن جريرا انتحل قول طفيل الغنوى [١] :

ولما التقى الحيان ألقيت العصا ومات الهوى لما أصيبت مقاتله

كما ينص مهلهل بن يموت بن المزرع فى كتابه « سرقات أبى نواس » [٢] على سرقة أبى نواس معنى طفيل الذى عبر عنه فى قوله :

---

(١) العمدة ٢/٢١٨ .

فان كنت لم أذنب فبعض ملامة بنى جعفر أو كنت أذنبت فاغفروا

فسرقه أبو نواس فقال :

فان كنت لم أذنب ففيم حبستنى وإن كنت ذا ذنب فعفوك أكبر

ويشبه طفيل ما تخلفه الخيل وراءها من غبار بدخان تنضب [1] :

إذا هبطت سهلا كأن غباره بجانبه الأقصى دواخن تنضب

فيأتى الجعدى ليقول :

كأن الغبار الذى غادرت ضحيا دواخن من تنضب

ويقول طفيل [2] :

وعجل نضى بالمثانى كأنها ثعالب موتى جلدها لم ينزع

ويقول الراعى من بعده [3] :

وعجل نضى بالمثانى كأنها ثعالب موتى جلدها قد تسلع

وقال الأصمعى عن الراعى : « سرق هذا المعنى من طفيل الغنوى ولم يجد السرق » [4] ويقول طفيل فى صوت الحصان الذى يشبه صوت اضطرام النار فى نبات العرفج [5] :

كأن على أعرافه ولجامــه سنا ضرم من عرفج متلهب

ثم يأتى العجاج فيقول [6] :

سفواء مرخاء تبارى مغلجا كأنما يستضرمان العرفجــا

---

(١) الديوان ٢٥ .

(٢) الديوان ١٠٤ ، والحيوان ٦/٣٠٧ .

(٣) الحيوان ٦/٣٠٧ .

(٤) المصدر السابق ٦/٣٠٧ .

(٥) الديوان ٢٦ .

(٦) أراجيز العرب ٢٧ .

ويشبه طفيل نفسه فى شبابه بصدر السيف فيقول (١) :

وكنت كما يعلمن والدهر صالح   كصدر اليمانى أخلصته صياقله

فيأخذ مزاحم الصورة بأبعادها الأربعة المشبه ، والمشبه به ، والأداة ، ووجه الشبه المفهوم ضمنا فيقول :

وإذا أنا فى رؤد الشباب الذى مضى   وكنت كنصل السيف أحوى المرجل

وفى تصوير السادة بالكواكب يقول طفيل (٢) :

كواكب دجن كلما غاب كوكب   بدا وانجلت عنه الدجنة كوكب

يشاركه فى هذه الصورة عامر المحاربى فيقول : (٣)

كنا نجوما كلما انقض كوكب   بدا زاهر منهم ليس بأقتما

ويقول لقيط بن زرارة مضيفا (٤) :

وانى من القوم الذين عرفتم   إذا مات منهن سيد قام صاحبه

نجوم سماء كلما غار كوكب   بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم   دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

ومازال منهم حيث كان مسود   تسير المنايا حيث سارت كتائبه

وقد أخذ الخريمى هذا المعنى فقال (٥):

إذا قمــر منا تغور أو خبــا   بدا قمر فى جانب الأفق يلمع

---

(١) الديوان ٨١ .

(٢) الديوان ٣٩ ، والديوان ٣/٩٤ ، وأمالى المرتضى ١/٢٥٧ .

(٣) المفضليات ٣٢١ .

(٤) الحيوان ٣/٩٣ ، وأمالى المرتضى ١/٢٥٧ .

(٥) أمالى المرتضى ١/٢٥٧ .

(٦) المنزلة الفنية

احتل طفيل منزلة فنية رفيعة نص عليها القدماء فى مجال النقد الأدبى ، فهو أوصف العرب للخيل ، وهو الملقب بالمحبر لحسن شعره ، وقد فضله الأصمعى فى شعره أو بعض شعره على امرىء القيس ، كما فضله على النابغة وزهير وأوس فى وصف الخيل ، كما ذكر أنه أشبه بالشعراء الأولين من زهير . ونص ابن رشيق وبروكلمان على أستاذيته لأوس بن حجر وزهير بن أبى سلمى . وقد أحبه رجال الجد والعمل واستشهدوا بشعره ، كأبى بكر الصديق ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وعبد الملك بن مروان ، وغيرهم من أعراب البادية .

وينص الأصمعى فى مقدمة ديوان طفيل على فحولته كما ينص على فحولته فى كتابه « فحولة الشعراء » الذى يعد من أقدم المصادر العربية فى النقد . والفحولة فى نظر الأصمعى مرتبة فنية . نستدل على ذلك من سؤال أبى حاتم السجستانى له عن معنى الفحل فقال « يراد أن له مزية على غيره ، كمزية الفحل على الحقاق »[١] .

ومعنى هذا أن الأصمعى يريد بالفحل ما كانت له مزية على غيره من الشعراء كمزية الفحل على سواه . وهذه المرتبة الفنية قد يدركها بعض الشعراء ولا يدركها البعض الآخر . كذلك ينص على فحولته أبو الفرج الأصبهانى (ت ٣٥٦ هـ) بل يعده من الفحول المعدودين[٢] . ويثبت فحولته جلال الدين السيوطى[٣] (ت ٩١١ هـ) ، ومن بعده عبد القادر البغدادى[٤] (ت ١٠٩٣ هـ) . وللقدماء مقاييس للفحولة التزموها وأخذوا بها قبل أن يصدروا حكمهم على شاعر ما بأنه

---

(١) فحولة الشعراء ١٣ .

(٢) الأغانى ٣٤٩/١٠ .

(٣) شرح شواهد المغنى ١٢٥/١ .

(٤) خزانة الأدب ٦٤٣/٣ .

فحل أو ليس بفحل ، وأهم هذه المقاييس مسألة الكم والجودة ، وصحة ما يروى الشاعر من أشعار تثبت أنها له .

فالأصمعى فى « فحولة الشعراء » ينبه على الشاعر المقـــل ويبين حاجته إلى الزيادة على ما قال حتى يصير فحلا ، قال عن الحويدرة لو كان قال خمس قصائد مثل قصيدته — يعنى العينية — كان فحلا[1] ويقول : ولو قال ثعلبة بن صعير المازنى[2] مثل قصيدته خمسا كان فحلا[3]، وقال عن معقر البارقى حليف بنى نمير : « لو أتم خمسا أو ستا لكان فحلا[4]» وقال عن أوس بن غلفاء الهجيمى : « لو كان قال عشرين قصيدة لحق بالفحول ، ولكنه قطع به »[5] وقال عن سلامة بن جندل : « لو كان زاد شيئا كان فحلا »[6] وقال عن الأغلب[7] : « ليس بفحل ولا مفلح .. أعرف له ثنتين ، وكنت أروى نصفا من التى على القاف فطولوها ، ثم قال : كان ولده يزيدون فى شعره حتى أفسدوه »[8] وقال عن المهلهل : « ليس بفحل .. وأكثر شعره محمول عليه »

وكما هو واضح من النصوص التى نقلناها أهمية مسألة الكم وعدد القصائد فى مقياس الفحولة الفنية للشاعر عند الأصمعى ، وليس كثرة القصائد فحسب بل جودتها أيضاً ، فلو أن الحويدرة قال خمس قصائد وبالذات مثل قصيدته العينية لجودتها لكان فحلا ، ولو أن ثعلبة بن صعير المازنى قال خمسا وبالذات مثل قصيدته المعهودة له كان فحلا . وليست كثرة الشعر وجودته بشافعة لخلع مرتبة الفحولة على الشاعر ، بل أن يكون هذا الشعر صحيحا ، وليس منحولا عليه ،

---

(١) فحولة الشعراء ٢٢ ، ٥٣ .
(٢) شاعر صحابى .
(٣) فحولة الشعراء ٤٣ .
(٤) المصدر السابق ٢٦ ، ٤٤ .
(٥) المصدر السابق ٢٨ ، ٤٤ .
(٦) المصدر السابق ٣٠ ، ٤٤ .
(٧) راجز مشهور مخضرم ، وهو أول من أطال الرجز وقتل بنهاوند .
(٨) فحولة الشعراء ٣٥ .

فقد آلمه ما حدث في قصيدة الأغلب من انتحال وما كان يضيفه ولده في شعره حتى أفسدوه. كما نفى الفحولة عن المهلهل لأن أكثر شعره محمول عليه والقصائد الجيدة والتي في مرتبة فنية واحدة تتساوى قيمتها في نظر الأصمعي، ولكن قصيدة تفوق الأخرى إذا زاد عدد أبياتها. وهذا يؤكد عندنا اهتمامه بمقياس الكم الجيد يقول: «ماقيلت على الزاى أجود من قصيدة الشماخ، ولو طالت قصيدة المتنخل اليشكري كانت أجود منها»[1].

ونجد ابن سلام الجمحي يتفق مع الأصمعي في الأساس الذي يقوم عليه مقياس الفحولة من حيث الكم والجودة وصحة الشعر، ويتضح لنا ذلك إذا عرفنا أنه أخر الأربعة شعراء الذين تتكون منهم الطبقة السابعة وهم سلامة بن جندل، وحصين بن الحمام المرى، والمتلمس، والمسيب بن علس. وعلل تأخر هؤلاء الشعراء الأربعة إلى هذه الطبقة رغم أنهم شعراء محكمون بأن في أشعارهم قلة فذلك الذى أخرهم[2]. ويتضح لنا احتفال ابن سلام: بمقياس الكم والجودة في الحكم على فحولة الشاعر ومكانته من قوله عن طرفه وعبيد «ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه، قلة مابقى بأيدى الرواة المصححين لطرفة وعبيد، اللذان صح لهما قصائد بقدر عشر. وإن لم يكن لهما غيرهن، فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة، وان كان مايروى من الغثاء لهما. فليسا يستحقان مكانهما على أفواه الرواة. ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كثير، غير أن الذى نالهما من ذلك أكثر. وكانا أقدم الفحول، فلعل ذلك لذاك. فلما قل كلامهما حمل عليهما حمل كثير»[3]

وواضح من نص ابن سلام ايمانه بأساس الكم والجودة في مقياس الفحولة الفنية للشعراء فإذا لم يكن لطرفة وعبيد سوى عشر قصائد فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة، والأمر الذى لاشك فيه أنهما فحلان قديمان، إذن

---

(١) فحولة الشعراء ٥٣.

(٢) طبقات فحول الشعراء ١٣١، ١٣٢.

(٣) المصدر السابق ٢٣.

لابد أنه كانت لهما أشعار كثيرة ولكنها سقطت وضاعت بمرور الأيام ، وهذا مادفع الرواة حين وجدوا أنفسهم أمام شاعرين فحلين ليس لهما سوى القليل من القصائد إلى أن يحطوا عليهما كثيرا من القصائد المنتحلة حتى يرأبوا الصدع ويسدوا الثلمة . وابن سلام لاينسى مسألة جودة القصائد وأهميتها فى مجال الحكم الفنى على الفحولة ، فهـــذان الفحلان إن صح مايروى لهما من قصائد ضعيفة ركيكة تشبه غثاء السيل فما يستحقان مكانهما على أفواه الرواة .

وبعد هذا الاستعراض لمقاييس الفحولة عند النقاد القدماء يستخلص أن فحولة طفيل قد خضعت عند الأصمعى لمقياس الكم ومقياس الجودة ومقياس صحة النسبة ، أما من حيث الكم فمجموع ما يرويه له موثقا فى الديوان عشر قصائد، فى حين أنه يشترط على من هم دون طفيل شهرة وجودة خمسا مثل قصيدة معينة وهذا مافعله مع الحويدرة وثعلبة بن صعير المازنى . وأما من حيث الجودة وحسن الشعر فيكفى أن نردد مايرويه هو من أن شاعرنا كان يسمى فى الجاهلية محبراً لحسن [1]شعره[2] ، وأما من حيث صحة نسبة الشعر للشاعر،فيكفى أن نعلم أن هذه القصائد التى بين أيدينا لطفيل برواية الأصمعى نفسه.ولعل من الضرورة وأنا اتحدث عن فحولة طفيل — أن أعرض لهـــذا السؤال : لماذا لم يذكره ابن سلام — وهذه منزلته الفنية — فى كتابه طبقات فحول الشعراء ؟ هل كان ابن سلام يجهل طفيلا ، ولم يجد له مادة بحيث يكتب عنه ، أو لم يقع على ديوانه ولم يكن يحفظ له شيئاً من الشعر ؟ وخاصة أنه سار على نهج يوجه عمله والتزم مبدأ فى تأليف طبقاته عبر عنه ، بقوله : « ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين فنزلناهم منازلهم واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة » [3] .

نستبعد الاجابة عن هذه الأسئلة بالاثبات لمنزلة طفيل عند القدماء ، وخاصة

---

(١) تحبير الشعر : تحسينه .
(٢) فحولة الشعراء ١٦ .
(٣) طبقات فحول الشعراء ٢١ .

عند الأصمعى الذى روى ديوان طفيل ، وكان يحتج بأشعاره فى كل مناسبة[1]. ونقول الأصمعى لأنه كان أستاذاً وشيخاً من شيوخ ابن سلام[2]. كما أن أحد شيوخ ابن سلام كان من قبيلة غنى أيضاً وهو أبو سوار الغنوى[3]. ألم يسمع من واحد من الاستاذين عن طفيل الغنوى ؟

إن ابن سلام فى طبقاته لم يستوف ذكر الشعراء بل اختار منهم عدداً معلوما أربعين شاعراً فى طبقات الشعراء الجاهليين ، وأربعين شاعراً فى طبقات الشعراء الإسلاميين ، وأربعة شعراء فى طبقات أصحاب المراثى، واثنين وعشرين شاعراً فى طبقة شعراء القرى العربية ، وثمانية فى طبقة شعراء يهود . فهم جميعاً ١١٤ شاعراً وحسب ، والذى أغفله من كبار الشعراء أضعاف أضعاف ماذكر .

لا يمكن أن يكون ابن سلام قد جهل أو أهمل شاعرنا وله هذه المنزلة الفنية فى تاريخ الأدب العربى . ولكننى أرجح بدون تردد أن يكون ابن سلام قد ذكر طفيلا فى كتابه الثانى الموسوم « فرسان الشعراء » أو كتابه الثالث « أشراف العرب وساداتها » . فقد ذكر بروكلمان بأن ابن سلام ألف كتاباً فى: « طبقات فرسان الشعراء » وقد أصاب بروكلمان كل الإصابة . فإن ابن سلام قال فى صدر كتاب الطبقات مانصه : « ذكرنا العرب وأشعارها والمشهورين المعروفين من شعرائها ، وفرسانها ، وأشرافها ، ، وأيامها ، إذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب ، وكذلك فرسانها وساداتها وأيامها فاقتصرنا من ذلك على مالا يجهله العالم ، ولا يستغنى على علمه ناظر فى أمر العرب . فبدأنا بالشعر » فهو قد بدأ بالشعر ، وهذا وحده مشعر بأنه سوف يتبع الشعر بالكلام على « فرسان العرب » ثم « أشراف العرب وساداتها » ثم « أيام العرب » كما هو واضح من النص .

---

(١) الموشح ١٩٦ .

(٢) مقدمة طبقات فحول الشعراء ١٢٠ .

(٣) المصدر السابق ١٢ .

وللأسف لم يصل إلينا أى من هذه الكتب الثلاثة الأخيرة شأن الكثير من المخطوطات العربية التى نقرأ عنها فى المراجع القديمة أو نقرأ أن المؤلفين نقلوا منها لأنها كانت موجودة فى أيامهم ، ولكنها بالنسبة لنا إما أن تكون فقدت لأسباب لسنا بصدد شرحها ، وإما لأنها لاتزال مجهولة تحتاج إلى استكشاف وتعريف .

وينقل أبو الفرج الأصفهانى فى تراجمه للشعراء عن كتاب « فرسان الشعراء » لابن سلام ، نفهم ذلك مما رواه أبو الفرج حين ذكر دريد بن الصمة فقال : « وجعله محمد بن سلام أول شعراء الفرسان »(١) ثم ما رواه أيضاً إذ ذكر خفاف بن ندبة فقال : « وجعله ابن سلام فى الطبقة الخامسة من الفرسان مع مالك بن نويرة ، ومع ابنى عمه صخر، ومعاوية ابنى عمرو بن الشريد ، ومالك ابن حمار الشمخى »(٢) .

وفى الأغانى مواضع أخرى نقل فيها عن ابن سلام نقولا هى أحرى بأن تكون من كتاب الفرسان ، من ذلك ما جاء فى ترجمة عنترة قوله : « أخبرنى أبو خليفة عن محمد بن سلام قال : « كان عمرو بن معد يكرب يقول : « ما أبالى من لقيت من فرسان العرب مالم يلقنى حراها وهجيناها . يعنى بالحرين : عامر ابن الطفيل، وعتيبة بن الحارث بن شهاب وبالعبدين، عنترة، والسليك ابن السلكة(٣) وقارن الأصمعى بينه وبين النابغة وزهير وأوس وفضله عليهم ، لأنهم لايحسنون وصف الخيل ، أما طفيل فهو جيد الصفة للخيل(٤) .

وفى الأغانى أنه « أوصف العرب للخيل »(٥) ويروى عن أبى عبيدة قال : « طفيل الغنوى ، والنابغة الجعدى ، وأبو دؤاد الإيادى أعلم العرب بالخيل

---

(١) الأغانى /٩٢ .
(٢) المصدر السابق ١٦/١٣٤ .
(٣) الأغانى ٨/٢٤٦ .
(٤) فحولة الشعراء ١٧ .
(٥) الأغانى ١٠/٣٠٠ .

وأوصفهم لها »[١] .

ومن نصوص الأغانى يتضح لنا أن النقاد القدماء قد أجمعوا على أن طفيل الغنوى هو أوصف العرب للخيل وأعلمهم بها ، ويذكرون من بعده أبا دؤاد الإيادى والنابغة الجعدى ، وأنهم الثلاثة أحذق وصاف الخيل ، وأن علمه بالخيل جاءه لأنه كان يركبها ، أما أبو دؤاد الإيادى فقد كان قيما على خيل المنذر ، وأما الجعدى فإنه سمع ذكرها من شعر الشعراء . كما أن أبا عبيدة وله وزنه فى الرواية والنقد يقدمه على الجعدى والإيادى ويصفه بأنه أعلم العرب بها وأوصفهم لها .

وقد اهتم المؤلفون القدماء فى تراجمهم له بالنص على تفوقه فى وصف الخيل ، وذكرها فى كل قصائده بحيث لا نجد قصيدة تخلو من ذكرها والتغنى بفضائلها ، بل ذهب بعضهم إلى انتقاء بعض أبيات له فى وصفها فنجد ابن قتيبة يقول : « وكان أوصف الناس للخيل »[٢] ويذكر أبو الفرج الأصفهانى : « من اقدم شعراء قيس وهو أوصف العرب للخيل »[٣] ويذكر الآمدى : وهو طفيل الخيل الشاعر المشهور »[٤] ويقول عنه أبو عبيدة البكرى « أنعت النـــاس للخيل »[٥] ويورد ابن السيد البطليوسى أبياتا له فى وصفها ثم يشرحها[٦] كما يورد الإمام العينى بعض أبيات له فى هذا المجال ثم يشرحها[٧] ويردد السيوطى أقوال الأصمعى عنه « كان أحد نعات الخيل . وكان يسمى طفيل الخيل لكثرة وصفه إياها »[٨] ويردد البغدادى أيضاً ماورواه الأصمعى : « كان طفيل أحد نعات الخيل وكان أكبر من النابغتين وليس فى قيس فحل أقدم منه ، وكان يسمى طفيل

---

(١) الأغانى ١٥/ ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٢) الشعر والشعراء ٢٧٥ .

(٣) الأغانى ١٥/ ٣٥٠ .

(٤) المؤتلف والمختلف ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٥) سمط اللآلىء ١/ ٢١١ .

(٦) الاقتضاب ٢٧٧ .

(٧) المقاصد النحوية ٢٤ .

(٨) شرح شواهد المغنى ١/ ١٢٥ .

الخيل لكثرة وصفه إياها[١] وقد خلع النقاد على طفيل صفة فنية أخرى فقد كانوا يلقبونه فى الجاهلية محبراً لحسن شعره . وقد ذكر له هذا اللقب الأصمعى حيث قال : «كان طفيل الغنوى يسمى فى الجاهلية محبراً لحسن شعره » [٢] كذلك أورد له هذه الصفة ابن قتيبة : « وكان يقال له فى الجاهلية المحبر لحسن شعره »[٣] ويذكر لنا الآمدى تحت عنوان من يقال له المحبر ، « منهم المحبر الغنوى وهو طفيل بن عوف . ويقال له طفيل الخيل ، وسمى المحبر لحسن شعره وهو المشهور »[٤] وأثبت له هذه الصفة أبو عبيدة البكرى « ويسمى محبراً لتحسينه شعره »[٥] ثم يأتى السيوطى فيقول : « وكان يسمى طفيل المحبر لحسن وصفه لها [٦] يعنى الخيل » ويذكر البغدادى « قال الصولى فى كتاب الكتاب خلال وصفه المحبر وسموا طفيلا الغنوى محبراً لتحسينه شعره »[٧] .

ومن هذه النصوص التى ذكرنا يثبت لنا ادراك القدماء لما كان يأخذ طفيل به نفسه من تحسين وتجويد فى شعره ، حتى يكتب له التفوق والإجادة على غيره من شعراء عصره .

وقيمة فنية أخرى نسجلها لطفيل ترتبط بلقب المحبر الذى خلع عليه ، وهى أستاذيته لمدرسة الصنعة فى العصر الجاهلى ، نستدل على ذلك من نص ابن رشيق «وكان الحطيئة راوية زهير وكان زهير راوية أوس بن حجر وطفيل الغنوى جميعاً[٨] » ونجد بروكلمان يثبت أستاذية طفيل لأوس بن حجر ، ومعروف أن أوسا كان

---

(١) خزانة الأدب ٣/ ٦٤٣ .
(٢) مقدمة الديوان ١٧ ، وفحولة الشعراء ١٦ .
(٣) الشعر والشعراء ٢٧٥ .
(٤) المؤتلف والمختلف ١٨٤ .
(٥) سمط اللآلىء ١/ ٢١٠ .
(٦) شرح شواهد المغنى ١/ ١٢٥ .
(٧) خزانة الأدب ٣/ ٦٤٣ .
(٨) العمدة ١/ ١٣٢ ، والعصر الجاهلى ٣٠٦ .

أستاذا فى نفس الوقت لزهير فيقول : «وكان أوس راوية طفيل الغنوى وتلميذه»[1] ويذكر صاحب الأغانى أن زهيراً خرج ابنه كعبا فى الشعر كما خرج الحطيئة[2]. نحن اذن بازاء شاعر ممتاز عاش ينظم القريض ويعلمه لتلميذيه أوس بن حجر ، وزهير بن ابى سلمى ، وهما بدورهما يعلمانه . وبعبارة أخرى نحن اذن بازاء مدرسة للصنعة أستاذها طفيل الغنوى وتلميذاه أوس وزهير ثم من بعد زهير كعب والحطيئة ، ومن بعد الحطيئة هدبة ، ثم تلميذ هدبة جميل ، وتلميذ جميل كثير[3] ، وقد حرص أصحاب هذه المدرسة على أن يوفروا لأشعارهم ضروبا من الجمال فى التعبير تعجب الناس وتقع منهم موقعاً حسناً وكانوا يصنعون شعرهم صناعة ، ويأخذونه بالتفكير الدقيق والبحث والتحقيق وإعادة النظر ، تلك المدرسة التى كانت تقاوم الطبع والاندفاع فى قول الشعر مع السجية .

ومن أجل هذه المنزلة الرفيعة التى احتلها طفيل وجدنا الأصمعى راوية الأدب واللغة وإمام الأخبار والنوادر يفضله فى كل شعره على امرىء القيس فيقول « وطفيل عندى أشعر من امرىء القيس »[4] وتروى العبارة أيضاً بالصيغة التالية « طفيل الغنوى فى بعض شعره أشعر من امرىء القيس. ويقال إن كثيرا من شعر امرىء القيس لصعاليك كانوا معه ، وكان عمرو بن قميئة دخل معه الروم إلى قيصر . »[5] .

وفى مجال المفاضلة بين امرىء القيس وطفيل نقول إن الاصمعى كان يشك فى شعر امرىء القيس ، يتضح هذا الشك بجانب ماذكرناه من نصوص ، فيما جاء على لسانه إذ كان يقول . « كل شىء فى أيدينا من شعر امرىء القيس فهو عن حماد الراوية إلا نتفا سمعناها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء »[6] وقـــد

---

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١/٩٥ .

(٢) الأغانى ٢/ ١٦٥ ، ٨/٩٩ .

(٣) المصدر السابق ٨/ ٩١ .

(٤) فحولة الشعراء ١٦ .

(٥) المصدر السابق ١٦ ، والموشح ٣٤ .

(٦) مراتب النحويين ٧٢ .

كانت رواية الشنتمرى لديوان امرىء القيس عن الأصمعى تشتمل على ثمان وعشرين قصيدة ومقطوعة بشرح الشنتمرى وهى جلها عن حماد الرواية ، وحماد فى شعره يقابل ابن الكلبى فى أخباره فكلاهما متهم بالوضع والانتحال (١)، وعلى ذلك يشهد الأصمعى نفسه على أن روايته غير موثقة لما دخلها من رواية حماد وليس صحيحا منها سوى القصيدتين الاوليتين ، وكذلك القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرين لأنها رويتا عن أبى عمرو بن العلاء (٢) .

وقد أدرك غير الأصمعى من الرواة مادخل شعر امرىء القيس من انتحال، فأورد الطوسى فى نسخته فصلين ، فصلا للقديم المنحول ، وفصلا للمستحدث المصنوع (٣) .

وفى الوقت الذى يرتاب فيه الأصمعى فى شعر امرىء القيس نجد أبا حاتم السجستانى يروى عن الأصمعى فى شعر طفيل عشر قصائد دون أن يشك فى واحدة منها . كما أنه لم يذكر أنه استقى أشعار طفيل من رواية حماد الراوية أو غيره من الرواة المشكوك فى أمرهم ، ولكنه نبه على كثرة الانتحال فى شعر امرىء القيس حينما أحس أن الواجب يقتضى منه التنبيه وقال بصراحة : إن أكثرية شعر امرىء القيس أخذ عن رواية حماد الراوية وأنه لم يكن له ، بل كان لفتيان كانوا معه مثل عمرو بن قيئة وغيره ، وكأن تأكد الأصمعى من صحة شعر طفيل وشكه فى شعر امرىء القيس هما السبب فى تفضيله طفيل فى شعره أو بعضه على امرىء القيس ، وقد ذكرنا حينما ناقشنا مسألة انتحال الشعر أن صحته بالنسبة للشاعر ، من المقاييس التى يعتمد عليها الأصمعى فى اقامة الفحولة أو اسقاطها ، وأيضاً فى مجال تفضيل شاعر فحل على شاعر فحل آخر . وذلك بجانب ما ذكرناه من مقاييس أخرى منها الكثرة والجودة .

ونحن فى نفس الوقت لاننكر ما لامرىء القيس من مكانة أدبية ممتازة رغم

(١) العصر الجاهلى ٢٢٤ .
(٢) المصدر السابق ٢٢٤ .
(٣) المصدر السابق ٢٢٤ .

قلة ما يثبت لنا من شعره ، فهو كما قال عنه الأستاذ الدكتور شوقي ضيف « يعد أبا للشعر الجاهلي بل للشعر العربي جميعه » [١]وهو من أقدم الشعراء الجاهليين ، فقد ولد حول عام ٥٠٠ م وتوفي حول عام ٥٤٠م[٢] وهذا القدم يعطيه أسبقية وفضلا فهو الذي بكى الديار ووصف الليل والخيل والصيد والمطـــر والسيول وشكى من الدهر ، وأعطى القصيدة العربية النسق النهائي الذي جعل من جاء بعده من الشعراء يسير على منواله ويأخذ منه . وهذا مالا ينكره الأصمعي نفسه إذ قال « وقد أخذ طفيل من امرىء القيس شيئا . »[٣] وهذا طبيعي تقضي به طبيعة التأثر . فاللاحق دائما يتأثر ويأخذ من السابق ، ونحن بدورنا لا يمكن أن نرفض ذلك وقد عبر ابن سلام الجمحي عن منزلة امرىء القيس فقال : « سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها استحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء منها : استيقاف صحبه والبكاء في الديار ، ورقة النسيب وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصي ، وقيد الأوابد ، وأجاد في التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى وكان أحسن طبقته تشبيها » [٤]

كل ذلك نسجله لامرىء القيس ، ولكننا نقول إن طفيلا قد تخصص في وصف الخيل فاتقن وصفها ، وتفنن في نعت ألوانها وشياتها فقد وصفها حال قيامها وفزعها ، ووصف أعضاءها ، ووصفها في المعركة وقد خضبت بالدماء ، ووصفها بعد المعركة ، ووصفها أثناء اللعب ، ووصفها وقد عرقت ، ووصفها وقد كلت ووصل به الأمر من شدة حبه لها وكلفه بها ، أن مدحها وقد أجاد في تشبيهاته لها أيما أجادة . وأظهر مهارة فنية رائعة جعلت السابقين جميعا يجمعون على تقديمه في هذا الباب على سائر شعراء العصر الجاهلي ووجدناهم يستشهدون بأبياته في مجال وصف الخيل في الوقت الذي يعيبون فيه على امرىء القيس بعض أبيات له في هذا الباب ، فقد عاب الأصمعي على امرىء القيس قوله في وصف فرسه :

---

(١) العصر الجاهلي ٢٦٥ .

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ١٩ .

(٣) فحولة الشعراء ١٦ ، والديوان ١٧ .

(٤) طبقات فحول الشعراء ٤٦ .

وأركب فى الروع خيفانة كسا وجهها سعف منتشر

وقال : إذا غطت الناصية الوجه لم يكن الفرس كريما ، والجيد الاعتدال كما قال عبيد :

مضبر خلقها تضبيرا ينشق عن وجهها السبيب[١]

وقد عاب عليه هذا الوصف شارح ديوانه الوزير البطليوسى ، وأبو هلال فى الصناعتين وابن سنان فى سر الفصاحة ، والجرجانى فى الوساطة ، وروى الآمدى فى الموازنة عن أبى حاتم عن الأصمعى ما نصه : شبه شعر الناصية بسعف النخل ، والشعر إذا غطى العين لم يكن الفرس كريما ، وذلك هو الغمم ، والذى يحمد من النواصى الجثلة [٢] وهى التى لم تفرط فى الكثرة فتكون الفرس غماء ، والغمم مكروه ، ولم يفرط فى الخفة فتكون سفواء . والسفى أيضاً مكروه فى الخيل ، ونجد المرزبانى يذكر أن النقاد عابوا على امرىء القيس :

لها ذنب مثل ذيل العروس تسد به فرجها من دبر

وقالوا ذيل العروس مجرور ، ولا يجب أن يكون ذنب الفرس طويلا مجروراً ولا قصيراً ، وقالوا . ولم قال « من دبر » فمن أين تسد بذنبها فرجها من قبل ؟ ليس هذا من قول الحذاق [٣]، وعيب عليه قوله فى وصف فرسه [٤]:

فللسوط ألهوب وللساق درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب[٥]

فقد أراد امرؤ القيس أن يصف فرسه بالسرعة ، فذكر أنه يضربه بالسوط فيلهب ، ويركضه بساقه فيدر جريه ، ويزجره فيقع الزجر منه موقعه من الظليم

---

(١) الموشح ٣٥ ، ٨٩ .

(٢) الجثل من الشعر : الكثيف الملتف .

(٣) الموشح ٣٥، ٣٦ .

(٤) راجع أوهام شعراء العرب فى المعانى ١٨ .

فيعدو عدوه . قالوا : ولو استعين بهذه الاشياء على أخس حمار وأضعفه فعدا لايستحق أن ينعت بالسرعة. ويقال : إن أول من عاب عليه هذا البيت امرأته أم جندب لما احتكم إليها هو وعلقمة بن عبدة الفحل فى أيها أشعر ؟ فقالت: سمعتك زجرت وضربت وحركت ، وفرس ابن عبدة أجود من فرسك حيث يقول فيه :

فأقبل يهوى ثانياً من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

فغلبت علقمة عليه ، وأخذ على امرىء القيس قوله فى وصف فرس أيضاً :

لها متنتان خظاتا كما أكب على ساعديه النمر

فأراد لها متنتان كثيرا اللحم كساعدى النمر البارك فى الغلظ ، وليس هذا مما تمدح به الجياد ، وإنما قالوا إن المستحب فى المتن والوجه التعريق ، كما قال طفيل الغنوى (١) :

معرقة الألحى تلوح متونها تثير القطا فى منقل بعد مقرب

وفى اللسان ، ويستحب من الفرس أن يكون معروق الخدين قال :

قد أشهد الغارة الشعواء تحملنى جرداء معروقة اللحيين سرحوب

ويروى . معرقة الجنبين ، وإذا عرى لحياها من اللحم فهو من علامات عتقها ، وفرس معرق الجنبين ، إذا كان مضمراً ، يقال . عرق فرسك تعريقا ، أى أجره حتى يعرق ويضمر ويذهب رهل لحمه (٢).

---

(١) الديوان ٣٤ .

(٢) أوهام شعراء العرب فى المعانى ١٩ ، ٢٠ .

ولعل تفوق طفيل فى وصف الخيل واجادته فى نعتها بجانب ما كان يوفره لشعره من ضروب التحبير والتحسين ، واطمئنان الأصمعى للمصادر التى استقى منها شعره ، وكثرة ما رواه له من قصائد إذا قيست بما وثقه من شعر امرىء القيس ، لعل كل هذه المقومات هى التى دفعت الأصمعى إلى أن يفضل طفيلا على امرىء القيس فى كل شعره أو بعضه.

لقد كان لطفيل عند مؤرخى الأدب منزلة رفيعة لأنه كان فى نظرهم من الشعراء المشهورين الذين يعرفهم جل أهـــل الأدب ، ومن أجل ذلك أورد ابن قتيبه ترجمته فى مصنفه « الشعر والشعراء » وقال قبل أن يورده ويورد غيره من الشعراء « وكان أكثر قصدى للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم فى الغريب وفى النحو وفى كتاب الله عز وجل . وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأما من خفى اسمه ، وقل ذكره ، وكسد شعره ، وكان لايعرفه إلا بعض الخـــواص ، فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة »[1] ثم يأتى أبو منصور الثعالبى (ت ٤٢٩ هـ) فيؤلف « لباب الآداب فى لطائف ألفاظ المخاطبات والمكاتبات »[2] ويقدمه إلى أت سز أحد ملوك خوارزم شاه فيترجم لطفيل الغنوى فى القسم الثالث الموسوم باسم : « فى عيون الأشعار وأحاسنها وفصولها وفوائدها » كذلك يترجم لغيره من الشعراء من مثل امرىء القيس والنابغة الذبيانى وأوس بن حجر وبشر بن أبى حازم والأفوه الأودى وعبيد بن الأبرص والمرقش ومهلهل والأسود ابن يعفر وطرفة بن العبد والمتلمس وعلقمة بن عبدة وأبى دؤاد الأيادى ولقيط ابن معبد وحاتم الطائى وعمرو بن كلثوم وعنترة والأضبط بن قريع وعدى بن زيد العبادى والحـــارث بن حلزة وأمية بن الصلت وقس بن ساعدة والمثقب العبدى . وهو يعد طفيلا وغيره من هؤلاء الشعراء الذين ذكرناهم سحرة

---

(١) مقدمة الشعر والشعراء ٣ .

(٢) الثعالبى . لبـــاب الآداب . مخطوط محفوظ فى مكتبة المرحوم الأستاذ عباس العزاوى بالعراق .

الشعراء وأمراء الـكلام الحر فيقول قبل أن يترجم لهم : « قد جعلت هذا القسم مشتملا عل لب اللب ، وناظر العين ، وسوداء القلب ، ونقش الفص ، ونـكتة العلق والمختص من الأمثال السائرة ، والمعانى النادرة والألفاظ الفاخرة فى الفنون المتغايرة لسحرة الشعراء وأمراء الـكلام الحر من لدن امرىء القيس ومن يليه من فحول الجاهليين ومن يتلوهم من مفلقى المخضرمين وهلم جرا ، إلى أعيان الإسلاميين ، إلى آحاد المحدثين والمولدين ، إلى أفراد العصريين والذين أسعدهم بنا دارك تاريخ المجد وموسم الفضل وعصر الكرم المحض » .

وقد أحب طفيلا وتمثل بشعره رجال العفة والجد والعمل والدهاء والأدب من أمثال أبى بكر الصديق وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان والأصمعى وبعض الأعراب . وكانت لأشعاره عندهم منزلة فنية قيمة . فهذا أبو بكر الصديق يستشهد ببيتين لطفيل إعجابا منه به إذ يروى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال يوما للأنصار : زادكم الله عنا يامعشر الأنصار خيرا فما مثلنا ومثلكم إلا كقول طفيل الغنوى :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت   بنا نعلنا فى الواطئين فزلت
أبو أن يملونا ولو أن أمنا   تلاقى الذى يلقوه منا لملت[1]

ولقد كان أبو بكر راوية للشعر الجاهلى يتمثل به فى مواقفه ويستنشد الشعراء ما قالوه فى جاهليتهم وإسلامهم . وروى أنه استنشد يوما معد يكرب وقال : أما إنك أول من استنشدته فى الإسلام.[2] وكان أبو بكر قبل الإسلام عالما من علماء النسب والأخبار حتى أن حسانا لما أراد أن يهجو قريشا قال له رسول الله : استعن بأبى بكر فانه علامة قريش بأنساب العرب [3] فلما سمعت

---

(١) مخطوط « لباب الآداب » للثعالبى ، وانظر الصولى فى « أدب الـكتاب » ١٩٠ .
(٢) طبقات ابن سعد ٦/٥٧ .
(٣) جمهرة أشعار العرب ٢٣ .

قريش بعد ذلك هجاءه قالوا : إن هذا الشتم ماغاب عنه ابن أبي قحافة [١]، وقال بعضهم ولم يكونوا علموا أن حسانا قاله : لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا [٢] وكان منزله رضى الله عنه فى الجاهلية مثابة لقريش يؤمونه للعلم والطعام، وسبق أن ذكرنا أن عمرو بن العاص تمثل برجز لطفيل [٣] .

وقد أحب طفيلا معاوية بن أبي سفيان السياسى المحنك والحكيم الداهية، وقد روى عن معاوية قوله « دعوا لى طفيلا وسائر الشعراء لكم» [٤] ، ولمثل هذا القول الصادر عن معاوية ابن أبي سفيان أهمية عندنا إذ أن معاوية كان على علم بأخبار الماضين وأيام العرب فى جاهليتهم وشعر شعرائهم وكانت له مجالس يستشهد فيها من يحضر من الرواة والعلماء والأعراب ، وينشد هو فيها ما يحفظ من شعر العرب السابقين ويستمع إلى أحاديث العرب وأخبارها ، وكان يستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها ، كما كان له غلمان مرتبون يقرأون عليه الأخبار والسير والآثار من دفاتر وكلوا بحفظها وقراءتها [٥] ويروى أنه كتب إلى زياد بن أبيه بعد أن استنشد ابنه معاوية الشعر فلم ينشده فقال: مامنعك أن ترويه الشعر ؟ فوالله إن كان العاق ليرويه فيبر ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو ، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل [٦]، وهذا ما يدعونا إلى الحكم بأن مثل هذا القول من معاوية على طفيل لم يكن صادرا من شخص عادى بل صدر عن معاوية الذى كان يعنى بشعر الشعراء ويحفظ أشعارهم ويرويها ويعقد لروايتها المجالس ، فكانت آراؤه على جانب كبير من الحكمة والخبرة والسداد .

ثم يأتى عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى الذى اهتم باللغة العربية وأجبر جميع عماله وموظفيه على استعمال اللغة العربية فى مراسلاتهم وسجلاتهم واستخدام

---

(١) الأغانى ٤/ ١٣٨ ، والفائق ٢٤٤ .
(٢) الأغانى ٤/١٣٨ .
(٣) الديوان ١٠٠ .
(٤) الشعر والشعراء ١٧٥ .
(٥) مروج الذهب ٢/٥٢ .
(٦) العقد الفريد ٦/١٢٥ ، والمزهر ٣/٣١٠ ، ٣١١ .

الموظفين العرب فيعجب بطفيل ويعبر عن إعجابه بقوله : « من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليرو شعر طفيل »[1] ويروى الخبر البغدادى « كان طفيل من أوصف العرب للخيل فقال عبد الملك : « من أراد ركوب الخيـــل فليرو شعر طفيل »[2] .

ورأى عبد الملك بن مروان عندنا له قيمته فقد كان يعنى بأخبار العرب وأشعارها بل يروى أنه أمر من جمع له المعلقات [3]، ويروى أنه قال لمؤدب ولده : روهم الشعر ، روهم الشعر يمجدوا وينجدوا [4] ومما يدل على معرفته بالشعر الجاهلى معرفة دقيقة قوله : « إذا أردتم الشعر الجيد فعليكم بالزرق من بنى قيس ابن ثعلبة وهم رهط أعشى بكر ، وبأصحاب النخل من يثرب ، يريد الأوس والخزرج ، وأصحاب الشعف [5] من هذيل [6] ، وروى ياقوت الحموى قول الشعبى : « فلم الق والياء ولا سوقة إلا وهو يحتاج إلى ولا أحتاج إليه ما خلا عبد الملك ، ما أنشدته شعراً ولا حدثته حديثاً إلا وهو يزيدنى فيه ، وكنت ربما حدثته وفى يده اللقمة فأمسكها ، فأقول : يا أمير المؤمنين اسغ طعامك ، فان الحديث من ورائه فيقول : ماتحدثنى به أوقع بقلبى من كل لذة ، وأحلى من كل فائدة . [7] وقد أعجب من النقاد والرواة القـــدماء بطفيل أبو عبيدة فقدمه على النابغة الجعدى وأبى دؤاد الايادى ، وهم الثلاثة أعلم العرب بالخيل وأوصفهم لها [8] كذلك أحب طفيلا من الرواة القدماء الأصمعى ورأينا كيف فضله على امرىء القيس . وقد تضافرت عوامل كثيرة جعلت الأصمعى

---

(١) الشعر والشعراء ٢٧٥ .
(٢) خزانة الأدب ٣/٦٤٣ .
(٣) المصدر السابق ١/١٣٤ .
(٣) العقد الفريد ٦/١٢٥ .
(٥) الشعف : رؤوس الجبال .
(٦) العقد الفريد ٦/١٢٤ .
(٧) ياقوت : ارشاد الأريب ١/٩٦ .
(٨) الأغانى ١٥ / ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

يعجب بطفيل ويحبه ، فمن ناحية النسب ينسب الأصمعي إلى جده ، أصمع وهو من باهلة من قيس عيلان كما ينتهي نسب طفيل إلى قيس عيلان،وعلى هذا فهما يتحدان في الأرومة ، ولكن اتحاد الأرومة والأصل لم يكن السبب الرئيس في حب الأصمعي لطفيل إنما السبب كما ذكرنا هو تخصص طفيل في نعت الخيل وجودة شعره ، والدليل على ذلك أن الأصمعي لم يدخل كعب بن سعد الغنوى ضمن الشعراء الفحول، وهو من غنى نفس قبيلة طفيل وقال عنه «ليس من الفحول إلا في المرثية »[1] ويدخل في أسباب حب الأصمعي لطفيل معرفة الأصمعي التامة بالخيل وما يتعلق بها فأحب طفيلا وأعجب به لأنه أعلم الشعراء بالخيل وأنعتهم لها فصادف هواه حتى أنه قال عنه « ولكن طفيلا الغنوى غاية في النعت »[2] واستدل على معرفة الأصمعي بالخيل بما روى أنه وأبا عبيدة حضرا عند الفضل ابن الربيع [3] فقال للأصمعي كم كتابك في الخيل ؟ فقال : مجلد واحد ، فسأل أبا عبيدة عن كتابه ، فقال : خمسون مجلدا ،فقال له قم إلى هذا الفرس وامسك عضوا عضوا منه وسمه ، فقال : لست بيطاراً ،وإنما هذا شيء أخذته عن العرب فقال : قم يا أصمعي وافعل ذلك ، فقام وأمسك ناصيته وجعل يذكر عضواً ويضع يده عليه ، وأنشد ما قالته العرب إلى أن بلغ حافره فقال : خذه فأخذ الفرس ،ويضيف الأصمعي أنه كان إذا أراد أن يغيظ أبا عبيدة ركبه وأتاه .

ويمكننا أن نضيف من أسباب كلف الأصمعي بطفيل أن ألفاظ طفيل كانت نجدية،وأن تخصص طفيل الغنوى في نعت الخيل والمعرفة بها ليس وحده كافيا.فقد تخصص ثالث وصاف الخيل في الجاهلية أبو دؤاد الايادى في وصف الخيل، لكن الأصمعي نفى عنه صفة الفحولة وراوية شعره. فقال عنه وعن عدى «عدى وأبو دؤاد لا تروى العرب أشعارهما لأن ألفاظهما ليست نجدية . . . وسأل أبو حاتم

---

(١) فحولة الشعراء ٢٧ ، ٤٤.

(٢) المصدر السابق ٤٢ .

(٣) وروى أن ذلك كان عند الرشيد كما في وفيات الأعيان ٢/ ٥١٧ .

الأصمعي عن أبي دؤاد فقال: صالح ولم يقل إنه فحل [١]. وكانت لطفيل عند الأعراب منزلة رفيعة يحفظون شعره وهو فى نظرهم أجود من قال شعراً فى المغة والحروب، والعرب تحفظ شعر طفيـــل لجودته وتتمثل به فى المناسبات إذ يروى لما مات محمد بن الحجاج بن يوسف جزع عليه الحجاج جزعا شديدا، ودخل الناس عليه يعزونه ويسلونه، وهو لايسنوا ولا يزداد الا جـــزعا وتفجعا، وكان فيمن دخل عليه رجل كان الحجاج قتل ابنه يوم الزاوية، فلما رأى جزعه وقلة ثباته للمصيبة شمت به وسر لما ظهر له منه، وتمثل بقول طفيل:

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر … من الغيظ فى أجوافنا والتحوب [٢]

وقد أحبت المغنيات شعر طفيل لما رأين فيه من حسن واجادة، ووقع حسن عند المستمعين، فهذه جميلة المغنية تصنع صوتا من شعر طفيل وتغنيه. فيروى أن هذا أحسن صوت صنعته جميلة وغنته [٣]، فقد غنت قول طفيل:

وبالعفر دار من جميلة هيجت … سوالف حب فى فؤادك منصب
وكنت إذا نامت بها غربة النوى … شديد القوى لم تدر ماقول مشغب
كريمة حر الوجه لم تدع هالكا … من القوم هلكا فى غد غير معقب
أسيلة مجرى الدمع خمصانة الحشا … برود الثنايا ذات خلق مشرعب

على أن لطفيل شأنا آخر يزيد من قدره. ويرفع من منزلته بين الشعراء. وهو شأنه ومكانته فى اللغة فان شعره يعد مصدرا من مصادر اللغة العربية، وهو معرض حافل للغة الفصيحة فى الجاهلية، وهى لغة الأعراب الضاربين فى بوادى نجد والحجاز، وكتب اللغة والأدب تفيض بالشواهد المأخوذة من شعر طفيل على مسائل اللغة ومفرداتها. وهو يوزن بكبار فحول الشعراء فى

---

(١) فحولة الشعراء ٤٣.

(٢) انظر الاغانى ١٥/٣٥٢.

(٣) المصدر السابق ١٥/ ٣٥٢.

هذا الميزان بلا مراء، فقد استشهد به ابن منظور فى لسان العرب فى خمس وثمانين موضعا (١). ويخطأ الأصمعى الكميت فى قوله :

أرعد وأبرق يايزيد فما وعيدك لى بضائر .

وأن «أرعد» خطأ وأنه لايقال إلا «رعد وبرق» إذا أرعد وتهدد وهو يرعد ويبرق، كذلك يقال رعدت السماء وبرقت وأرعدنا نحن وأبرقنا، إذا دخلنا الرعد والبرق. وكان الأصمعى يقول عن بيت الكميت «ليس هذا بكلام فصيح» وروى عن الجرمى أن الأصمعى كان يستشهد عقب رده على بيت الكميت بقول طفيل الغنوى :

ظعائن أبرقن الخريف وشمنه   وخفن الهمام أن تقاد قنابله

ونجد السيوطى فى شرح شواهد المغنى يستشهد على التأكيد اللفظى بالمرادف ببيت طفيل :

وقلن الا الردى أول مشرب   أجل جير ان كانت رواء أسافله

فطفيل ذكر أجل وجير وهما بمعنى واحد (٢).

---

(١) فهرس لسان العرب ٥/٧٦٦.

(٢) شرح شواهد المغنى ١/١٢٥.

خاتمة

بعد أن عشت مع طفيل هذه الفترة الطويلة التى درست فيها حياته وشعره ، لابد لى أن أشير إلى الجوانب التى أبرزتها فى الموضوع لأخرج بنتيجة واضحة المعالم بينة الوجوه .

وفى دراستى للشاعر رسمت لبحثى منهجا كما اقتضاه عنوانه فجعلته فى بابين :
الأول درست فيه طفيلا وكان لزاما علىّ أن أبدأ بدراسة قبيلته لأن القبيلة كانت أساس الحياة الاجتماعيه فى هذا العصر ، ويرتبط أفرادها بها برباط العصبية نتيجة لايمانهم بوحدة الاصل ورابطة الدم التى تربط بينهم جميعاً .

فدرست منازلها التى سكنتها من حمى وأودية وجبال ومياه ، ودللت على ذلك بما وجدته فى شعر طفيل من كثرة ذكر هذه المواضع . وقد أفادتنى معاجم البلدان فى هذه الدراسة ، فوجدت فى « معجم ما استعجم » و « ومعجم البلدان» وغيرهما مادة غزيرة . كما درست ديانة القبيلة فوجدتها وثنية تعبد اللات والعزى ومناة ، ثم مضيت إلى دراسة حياتها الإجتماعية ، المليئة بالأيام والحروب المستمرة ، التى صليت القبيلة بنارها ، والتى كان منها يوم محجر الذى انتصرت فيه طيء على غنى . كما تتبعت اضطراب القبيلة بين نجد والحجاز واليمن . فحينما حدثت الأزمة بين غنى وجعفر بن كلاب نتيجة لقتل أحد الغنويين عروة الرحال الجعفرى ، وأبت بنو جعفر أن تأخذ دية جعفرى من غنوى اضطرت غنى أن ترحل إلى جنوبى الجزيرة العربية فتنزل عند بنى الحارث بن كعب فى نجران . كما تمكنت القبيلة من الاتصال بقبيلة أخرى فى جنوب الجزيرة العربية وهى قبيلة خثعم بن أنمار .

ومضيت فى هذا الباب أدرس حياة الشاعر فى جوانبها المختلفة فبدأت بدراسة المصادر التى ترجمت له منذ القرن الثالث الهجرى حتى اليوم ، ورتبتها ترتيبا تاريخيا ، وأبرزت الجديد فى كل منها ، كما تحدثت عن اسمه ، ونسبه ، وكنيته ، ولقبه ،

المحور الذى أطلقه عليه الرواة والنقاد القدماء ، وناقشت آراء القدماء فى تعليل هذه التسمية فرجحت الرأى القائل بأن هذه التسمية إنما جاءته لحسن شعره ووصفه ، واستندت فى ذلك على القدماء أنفسهم فقد درجوا على اعطاء الشعراء القابا تدل على براعتهم وقدرتهم على توفير ألوان من الجودة والصنعة فى شعرهم. فلقبوا امرأ القيس بن ربيعة التغلبى بالمهلهل لأنه أول من هلهل الفاظ الشعر وأرقها، ولقبوا عمرو بن سعد شاعر قيس بن ثعلبة بالمرقش الأكبر لتحسينه شعره وتنميقه ، كما لقبوا علقمة بالفحل لجودة أشعاره، ولقبوا غيرشاعر بالنابغة لنبوغه فى شعره ، كالنابغة الجعدى ، والنابغة الشيبانى ، والنابغة التغلبى ، والنابغة الذبيانى ، كما عرضت لتلقيبهم له بطفيل الخيل لكثرة وصفه لها ، وبراعته فى وصفها ، فأكثر مايحتفل به من المعـــانى فى شعره يدور حول وصف الخيل والتفنن فى نعتها والثناء عليها والافراط فى حبها ، والاكثار من ذكرها ، بحث لاتكاد تخلو قصيدة من ذكرها ، فهو يدخلها فى كل باب من شعره ، ولذلك جعله صاحب الأغانى أوصف العرب للخيل ، وأعجب وصفه لها عبد الملك بن مروان فقال : « من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليرو شعر طفيل » وتحدثت عن نشأته وأوضحت أنه كان يركب الخيل منذ نعومة أظفاره ، وكأن حب طفيل للخيل نشأ فى صباه ثم أخذ يزداد ويكبر معه إلى أن تحول شعرا نقرأه فنطرب له . ولما كبر وجدناه يسود قومه ويقود فرسان قبيلته ويتمكن من شن هجوم على طيء ينتصر فيه، ويدخل جبلى سلمى وأجأ وهما من جبال طيء ، ويغسل عار الهزيمة التى لحقت قبيلته يوم محجر . كما وجدناه يقوم أحيانا بدور السفارة بين قبيلته وغيرها من القبائل العربية ساعيا فى الصلح وحقن الدماء ، ووقفت بعد ذلك أحاول تحديد الفترة التى عاش فيها طفيل ، فالعصر الأدبى الجاهلى طويل ممتد ، ليس محددا بفترة زمنية ينتهى بانتهائها . ولكنه محدد بحياة أولئك النفر من الشعراء الذين عاشوا فيه، ينتهى بالنسبة لكل منهم بانتهاء حياته . ولم يكن هدفى من هذه الدراسة أن أحدد بالضبط سنة مولده ، وسنة وفاته ، فهذا ليس أمراً هينا يسيرا ، لأن المراجع القديمة لم تحدد تاريخ المولد ، وتاريخ الوفاة ، وحتى المحاولة التى قام بها اسكندر أغا أبكاريوس فى كتابه « روضة الأدب فى طبقات

شعراء العرب من ذكر تاريخ لوفاة كل شاعر من الشعراء الذين ذكرهم لم أكن مقتنعا بها لأنها لا تعتمد فى رأيى إلا على الحدس والتخمين ، مستندة فى ذلك إلى اشارات غير كافية فى بعض الأحيان ، ولكننى رأيت فى دراستى أنه من الممكن أن أعين الفترة التى كان يعيش فيها طفيل على وجه التقريب بالاعتماد على شواهد تاريخية وشواهد أدبية ، ذكرتها المصادر القديمة أو وردت فى شعره . وبعد الدراسة والمقارنة دلت الشواهد احتمالا على أن طفيلا كان يعيش منذ مطلع النصف الثانى من القرن السادس حتى نهايته ، ورجحنا أنه توفى قبل بدء الدعوة الإسلامية بقليل، فمن ناحية ليس فى شعره ما يدل على أنه أدرك النبى محمدا ﷺ ومن ناحية أخرى أن راويتيه أوسا وزهيرا توفيا أيضاً قبل أن يدركا الإسلام .

ثم مضيت إلى شخصيته ، فقسمت السمات التى تحدد أبرز الخطوط فيها إلى أربع سمات . السمات الاجتماعية وتناولت فيها الحديث عن فروسيته وشجاعته وما ارتبط بها من عناية بالخيل والأسلحة دفاعية وهجومية ، ثم ما يتبعها من فروسية خلقية من الكرم ، واغاثة الملهوف ، واجابة الصريخ ، وحماية الضعيف والنساء ، واباء الهوان والضيم ، والأخذ بالثأر ، وتناولت الحديث عن اعتداده بشخصيته وقبيلته . وأثبت فى دراستى أن طفيلا كان سيدا من سادات قومه المبرزين يجعلون له ربـــع مال الغنائم من سبي وخيل وأسلحة . كما كان قائدا لفرسان قبيلته يتصف بالشجاعة ، وكانت الشجاعة والفروسية ترشحان للسيادة ، أضف إلى ذلك أنه كان واسع الثروة ، فقد كان يملك مئات الابـــل ، وكان الغنى يرشح أيضاً لسيادة القبيلة ، لأن هذه الثروة تساعد على إغاثة المعوز ، والضعيف ، وتمكن صاحبها من حمل أكبر قسط من جرائر القبيلة وما تدفعه من ديات ، كما كان يقوم لقبيلته فى بعض الأحيان بدور السفارة بينها وبين غيرها من القبائل العربية ساعيا فى الصلح وحقن الدماء . أما السمات العقلية فى شخصيته فقد تمثلت فى حكمته ، وحلمه ، وسداد آرائه ، ونظراته ومعارفه التى جاءته من بنى الحارث بن كعب النصارى فى نجران . ورأيناه من خلال شعره على معرفة بالنجوم والأنواء وما يثار حولها من قصص، وأوقات تبدى العرب ورجوعها إلى حواضرها . ولفت نظرى فى هذه الدراسة معرفة طفيل الواسعة

ببيطرة الخيل . فهو لم يكن يعرف العتيق منها والهجين وما يستحب وما يكره من صفاتها فحسب ، وإنما كان على علم بالأمراض التى تصيبها وطرق علاجها ، وقد جاءته هذه المعرفة من كثرة ركوبها واقتنائها وولايتها . وقد راجعت من أجل أن احقق وجهة النظر هذه العديد من المخطوطات العربية فى علم البيطرة والزردقة فوجدتها تستشهد بأبيات له فى هذا المجال . أما السمات العاطفية فقد وجدنا أنفسنا أمام عاطفتين ، الأولى يبدو فيها طفيل وقد اكتوى بنار الحب الذى استعبده وتيمه ، والأخرى يبدو فيها جادا مقتصدا فى غزله متصاونا فيه ، عفيفا جلدا ازاء تباريح الهوى. وقد فسرنا هذا الموقف بأن مارواه لنا فى شعره من حب وحرمان وحديث عن الجوارى كان فى صدر شبابه ، ولكنه حينما كبر وساد قومه وجدناه جادا ، متزنا ، صامداً امام اعراض الحبيب ، معتزا بكرامته فلا تتساقط نفسه حسرات على فراقه . أما السمات الدينية فقد مثلت لنا ارتباط الشاعر بالوثنية ، وعبادته كسائر أفراد قبيلته اللات والعزى ومناة . ولكن وثنيته كانت من نوع راق أثرت فيها النصرانية وربما الحنيفية ، وقد دلنا على هذا الرقى والتأثير قلة ذكر الأصنام فى شعره فهو لم يذكرها إلا فى بيت واحد فى رواية الديوان يذكر فيه اسم رضى صنم طىء ، وخلو شعره من أوضار الشرك الجاهلى ، كما وجدنا طفيلا يذكر فى شعره بعضا من السنن التى كانت موجودة فى الجاهلية ثم أبقى عليها الإسلام ، من ذلك شعائر الحج كزيارة عرفة ، والتلبية والاحرام ، وكلها مناسك قديمة كان يقوم بها الجاهليون ثم أقـــرها الاسلام بصورة جديدة .

وفى الباب الثانى انتقلت إلى دراسة شعر الشاعر فضيت بادىء ذى بدء إلى مصادر شعر طفيل قبل الديوان ، وأعنى بذلك تلك الفترة التى انقضت فى الجاهلية على نظم طفيل لشعره ، إلى أن دون هذا الشعر ، ورأينا أن شعر طفيل رواه فى الجاهلية شاعران ممتازان لهما وزنهما فى هذا العصر وهما أوس بن حجر ، وزهير ابن أبى سلمى ، وكان لهذين الشاعرين تلاميذ من بعدهما عاشوا إلى مابعد القرن الأول الهجرى ، وناقشنا قضية التحبير ، واحتمال أن يكون شعر شعراء هذه

الطائفة التى كانت توفر لشعرها ضروبا من الزينة مدونا فى صحف ، يرجعـــون إليها بين وقت وآخر يزيدوق أو ينقصون أو يستبدلون لفظة بلفظة أو قافية بقافية ، وعرفنا من شعراء هذه الطائفة الذين عرفوا الكتابة النابغة الذبيانى ، وكعب بن زهير، وأخاه بجيرا . كذلك رأينا أن قبيلته تعد مصدراً هاما من مصادر شعره لأن أفراد القبيلة كانوا يحفظون شعر شعرائها ويعدون القصائد التى تسجل انتصاراتها أغلى ما يملكون ، فكانوا يحرصون على روايتها جيلا بعد جيل . وكذلك تعد القبائل التى مدحها مصادر شعره، فالأمر الذى لاشك فيه أن هذه القبائل كانت تحرص على رواية شعره وترديده لأنه يسجل بعض مفاخرها ويشيد ببعض أمجادها . وأيضاً جعلنا ديوان غنى الذى ذكره الآمدى مصدرا من مصادر شعر طفيل . وفى الإسلام ظل شعر طفيل تتداوله الألسنة لما فيه من عفة ومثالية لاتتعارض مع الدين الجديد ، ورأينا فى دراستنا أن أبا بكر الصديق يحفظ شعره ويستشهد به ، كما رأينا عمرو بن العاص يتمثل برجز له ، وأيضاً وجدنا مؤسس الدولة الأموية معاوية بن أبى سفيان يعبر عن إعجابه بطفيل بقوله «دعوا لى طفيلا وسائر الشعراء لكم » ، وحكمه هذا على طفيل يدل دلالة قوية على معرفته أنذاك بشعره معرفة جعلته يترك للقوم سائر الشعراء ويحتفظ لنفسه بطفيل . كما وجدنا عبد الملك بن مروان يقول : « من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليرو شعر طفيل » كما يروى شعره لولده وأهل بيته . وهذا يؤكد عندنا احتفال عبد الملك ابن مروان بشعر طفيل واهتمامه به .

ثم مضينا بعد ذلك إلى أصول الديوان ورددنا هذه الأصول إلى أصلين . الأصل البصرى ، والأصول الكوفية . ورأينا أن الأصل البصرى وهو المطبوع بين أيدينا الآن برواية أبى حاتم السجستانى عن الأصمعى . ثم درست هذه الرواية البصرية للديوان فعرضت لمصادر الأصمعى فى جمع شعر طفيل ، ومنهجه، وعللت لخلو رواية الأصمعى من اسناد أشعار طفيل إلى سابقيه ممن أخذ عنهم . كما عالجت شرح السجستانى بالنقد والدرس فذكرت أن عمله لم يقتصر فى الديوان على مجرد تفسير المفردات اللغوية ، وشرح معانى الأبيات ، إنما تناول أيضا تفصيلا لما ورد فى مقدمات القصائد التى رويت عن الأصمعى ، وضربت أمثلة

لذلك ومضيت بعد ذلك إلى الحديث عن الأصول الكوفية التي لم تصل إلينا لسوء الحظ ، وإنما وصلت اشارات عنها في المصادر التي بين أيدينا ، فمن مادة في معجم ما استعجم استخلصنا وجود نسخة من ديوان طفيل كتبها أبو عمرو الشيباني كما وجدنا أشعارا كثيرة مبعثرة في المصادر القديمة جاءت برواية أبي عمرو الشيباني وقد وجدنا أبا الفرج الأصبهاني في الأغاني ينقل نقلا مباشرا عن هذه النسخة ولاحظنا من مجموعة الأشعار والأخبار التي رويت في المصادر القديمة مسندة إلى الشيباني ، أن نسخته هذه كانت تحتوي على إضافات تاريخية وأشعار مما نعدمه في رواية الأصمعي التي وصلت إلينا ، وأرجعنا ذلك إلى مصادر ومنهج الروايتين ، إذ في الوقت الذي كان أهل الكوفة يلتزمون فيه الحرية والجرأة في منهجهم ، كان البصريون يجنحون الى التعقيد والتضييق في مصادرهم التي يأخذون عنها ، لذلك كثرت رواية الكوفيين ، ونصوا على أشعار وحوادث في دواويتهم خلت منها الدواوين البصرية . كما لاحظنا وجود خلافات بين الرواية البصرية والرواية الكوفية ، كما وجدنا صاحب الأغاني ينقل عن الطوسي . كما رويت بعض أبيات لطفيل عن أبي عبيدة ، وهذه الاشارات أكدت عندنا ماذهبنا اليه من أن كثيراً من الدارسين في نهاية القرن الثاني من الهجرة قد رووا شعر طفيل وأذاعوه .

وناقشت رأي كرنكو الذي ذهب اليه حينما نشر أطول قصيدة لطفيل في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية لسنة ١٩٠٧ م ، وقد ذكر أنه أخذها من مخطوط قديم يمتلكه معنون بـ« الجزء الثاني من كتاب الاختيارين مما روى عن المفضل الضبي والأصمعي » ويذكر كرنكو في بحثه هذا أن ابن السكيت قام بجمع قصائد طفيل وشرحها ، وأن نسخة من شرح ابن السكيت لديوان طفيل كانت في حوزة عبد القادر البغدادي ، وأن هذه القصيدة المنشورة وما عليها من شروح مصاحبة أخذها جامع هذا المصنف من شرح ديوان طفيل لابن السكيت ، ومن أجل أن يستقيم القـــول لكرنكو حاول أن يخطيء البغـــدادي في عـــدد الأبيات ، فالبغـــدادي في الخزانة ذكر أن هذه القصيدة من شرح ابن السكيت

عدتها ستة وسبعون بيتا ، فى حين أن القصيدة المنشورة عدتها سبعة وسبعون بيتا وعلل لذلك كرنكو بأن البغدادى ارتكب خطأ فى الإحصاء .

ونحن من جانبنا نؤيد كرنكو فى وجود نسخة من ديوان طفيل بشرح ابن السكيت اعتمادا على ماذكره البغدادى من وجود هذه النسخة بين يديه، ونقله عنها . ولأن ابن السكيت اشتهر بكثرة مصنفاته ، فعرفنا له من الدواوين غير كتب اللغة شرح ديوان الخنساء ، وشرح ديوان عروة بن الورد ، وديوان مزرد بن ضرار ولكننا نختلف مع كرنكو فى ان هذه القصيدة وشرحها المصاحب لها مأخوذان من شرح ديوان طفيل لابن السكيت ، أولا لاختلاف عدد الأبيات . كما ذكرنا ، وثانياً لاختلاف شرح الأبيات فى النسختين . ولكننا رجحنا ماذهب إليه الأستاذ الميمنى فى أن كتاب « نخبة من كتاب الاختيارين » — الذى منه قصيدة طفيل هذه وما صاحب بعض قصائده من شروح من صنعة على بن سليمان الأخفش . وفى ترجيحنا لرأى الأستاذ الميمنى نستندعلى ما عثرنا عليه فى فهرسة ابن خير الاشبيلى مما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وانواع المعارف من ان جامع هذه الاختيارات ومفسرها هو الاخفش . ثم درست هذا الشرح المصاحب لأبيات القصيدة فوجدت الاخفش قد اعتمد على مصادر متعددة أخذ عنها شرحه فهو يشير الى الأصمعى ، والى ابى عبيدة ، والى ابن السكيت ، والى أبى عمرو الشيبانى ، كما وجدته يثبت الروايات المختلفة للأبيات . ويمتاز شرحه الاطالة والاستطراد . وفى هذه الدراسة تتبعت تاريخ حياة الديوان منذ أن دون حتى اليوم متلمسا أخباره فى المراجع الأدبية مطبوعة كانت أم مخطوطة ، وقد تتبعت حياته تتبعاً تاريخياً عبر القرون المختلفة .

ثم مضيت الى موضوعات شعر طفيل ولكنى رأيت لزاما على قبل ان اتصدى لدراسة الموضوعات أن أبدأ بمقدمة تحدثت فيها عن الانتحال فى شعر طفيل. وكان دافعى لدراسة هذا الموضوع أن طفيلا شاعر جاهلى مات قبل ظهور الإسلام، ينتهى نسبه الى قبيلة قيس عيلان من مضر، لذلك ينسحب عليه شك الدكتور طه حسين ازاء الشعر المضرى ، لذا وجب علينا أن نعرض شعره على منهج النقد

الأدبي والعلمي . هذا دافع ،وهناك دافع آخر وهو ما وجدته مبعثرا فى الكتب المختلفة من أشعار تنسب لطفيل ، كما تنسب لغيره من الشعراء ، وكان لابد من دراسة هذه الظاهرة ومحاولة تعليلها . وقد عرضنا شعر طفيل على أسباب الانتحال التى ذكرها الدكتور طه حسين فى كتابه فى الأدب الجاهلي فوجدناه يخرج إلى حد كبير عن دائرة الانتحال ، كما أن ديوان طفيل الذى بين أيدينا بالرواية البصرية رواية أبي حاتم السجستانى عن الأصمعى ،وكلاهما ثقة فالأصمعى عرفت عنه الدقة ،وتحرى الصحة فى روايته ، وكذلك السجستانى الذى كان تلميذا نابها للأصمعى ، ونقد السند والرواة هذا يطلق عليه الدكتور طه حسين النقد الخارجى ، أما النقد الداخلى فهو نقد النص الشعرى نفسه فى لفظه ومعناه ونحوه وعروضه وقافيته، وحينما ننظر فى شعر طفيل نجده شعر شاعر جاهلي،فالألفاظ متينة رصينة، والشعر شديد الأسر قوى المتن ، وهناك مقياس آخر يدعونا إلى الثقة فى شعر طفيل هذا المقياس ذكرة الدكتور طه حسين وهو تلمس الخصائص الفنية المشتركة بين مجموعة من الشعراء ، واحتراز الدكتور طه حسين بقوله عند مجموعة من الشعراء ، يدفع ما قد يتسرب إلى الذهن من أن هذه الخصائص إذا ظفرنا بها عند شاعر واحد لا نأمن أن تكون هذه الخصائص حظ الشاعر ، بل ربما كانت حظ الراوية الذى نحل الشعر وأضافه إلى الشاعر ، وقد ظفر الدكتور طه بمدرسة شعرية مضرية وضح لنا خصائصها الفنية وما بين شعرائها من صلات وأرجع أستاذيتها لأوس بن حجر ، ولكننا من جانبنا تعمقنا فى جـــذورهذه المدرسة فقلنا بأن أستاذها الاول هو طفيل الغنوى الذى كان أوس وزهير راويتين له . أضف إلى كل ما تقدم أن كثرة ذكر الأماكن والمواضع التى نزلتها القبيلة من وديان وسهول وعيون مياه وجبال وتلال وتناولها بالتفصيل الدقيق كما هو واضح فى شعر طفيل يؤكد عندنا صحه هذا الشعر ، فالراوى الذى يتصدى لنحل الشعر يعجز عن الإحاطة بكل هذه المواضع التى ذكرها طفيل فى شعره ، وعلى كل حال فان دقة الأصمعى فى الأخذ واضحة فى رواية الديوان ، فهو لم يرو لطفيل سوى عشر قصائد والرأى عندى أن الأصمعى قد استبعدكثيراً من شعر طفيل الذى لديه . فليس من المعقول أن تكون هذه القصائد العشر هى كل

ما قال طفيل طول حياته ، لأن هذا العدد يسير جداً بالقياس إلى ما قاله فى غزوات قبيلته وحروبها ، وما ألم به من حوادث . وبعد أن ثبت لدى توثيق شعر الديوان ؛ تناولت ذيل الديون ، فأسقطت منه بعض الأبيات مما ثبت عندى أنه نسب خطأ إلى طفيل . وقبلت ما يمكن أن يقبله معجم طفيل ؛ وعللت لما لاحظته من خلط طفيف فى ذيل الديون بين شعر طفيل وغيره من الشعراء باحتمال تأثر الشعراء بطفيل لتفوقه فى وصف الخيل ، وتلقيبه بالمحبر ؛ فحاول بعضهم أن يحذو حذوه ، وهذا الذى نقول به قال به الأصمعى من قبل، فقد روى عنه قوله : « أخذ كل الشعراء من طفيل حتى زهير والنابغة ، ثم مضينا إلى موضوع الوصف فوجدنا وصف الخيل أبرز موضوع يظهر فيه طفيل ، ومن بعده وصف الأسلحة والابل ، ولكنه فى وصف الابل لم يبلغ المنزلة التى بلغها فى وصف الخيل.

أما فخر طفيل فقد وجدناه فخراً بالقبيلة وتسجيلا لمآثرها وانتصاراتها، على أن شعره حفل بفخره بنفسه وتصوير جوانب شخصيته المختلفة . إلا أن الشخصية القبلية فيه أقوى وأوضح من الشخصية الفردية . كما وجدناه يرثى فرسان قومه الذين سقطوا صرعى فى ميدان الشرف والواجب بأبيات حماسية بغية أن يثير قبيلته كى تأخذ بثأرها ، وهو فى رثائه يمجد خلالها ، ويصف مناقبهم التى فقدتها القبيلة فيهم ، حتى يسرع فرسان غنى إلى حرب من قتلوهم ، وهذا الاتجاه يجعلنا مقتنعين بالقول بأن الرثاء بدأ فى الشعر الجاهلى بداية حماسية مرتبطة بالدور الذى كان الشاعر يقوم به فى المجتمع القبلى . وفى الحقيقة كان رثاء طفيل لفرسان قومه جامعاً لهدفين : الهدف الأول خدمة القبيلة ، وحثها على الأخذ بالثأر . وبهذا يتجلى لنا دور طفيل فى خدمة مجتمعه القبلى . والهدف الثانى : اظهار عواطف طفيل الإنسانية ، وتصوير حزنه العميق ازاء ما أصابه به الزمن من فقد هؤلاء الفرسان الذين تربوا معه أو كما يسميهم « الندامى » ولم يكن طفيل من الشعراء المداحين المتكسبين الذين ظهروا فى أواخر العصر الجاهلى ؛ إنما كان مدحه من هذا النوع الذى بدأ فى الشعر الجاهلى بداية طبيعية

بسيطة ، اذ كان الشعراء يمدحون سادة قبائلهم أو سادة القبائل الأخرى التى يجدون فيها كرم الجوار ، ومن هؤلاء الشعراء الذين كان طفيل على شاكلتهم امرؤ القيس الذى مدح من أجاروه وعطفوا على قضيته حين طالب بثأر أبيه . وفى دراستنا للغزل عند طفيل عرضنا لصور المقدمات المتصلة بالغزل ، وحددنا منها صورتين عند طفيل هما المقدمة الطللية والمقدمة الغزلية .

ثم انتقلت الى الدراسة الفنية لشعر طفيل فبدأتها بالحديث عن أستاذيته لمدرسة الصنعة ، وهو رأى توصلت اليه معتمداً على المصادر الموثوق بها . ففى الوقت الذى ذهبت فيه جميع المصادر الحديثة الى أن هذه المدرسة الشعرية تبدأ بأوس بن حجر تتأخر نحن من جانبنا بها فنرجعها الى ما قبل أوس ، الى طفيل الغنوى الذى يعد بحق الرائد الاول لهذه المدرسة الشعرية . على أننا لا ننكر أستاذية أوس لهذه المدرسة ، فهو يشترك مع طفيل فى وضع أسس دعائم الفن الشعرى لهذه المدرسة . ونحن بقولنا هذا لا نلقى الكلام على عواهنه ولا نعتسف الطريق اعتسافا ، وانما يؤيدنا فيما نذهب اليه النصوص التى عثرنا عليها ، ففى الأغانى « كان طفيل أكبر من النابغة وليس فى قيس فحل أقدم منه » ويقول أبو الفرج عنه إنه « من أقدم شعراء قيس » ويقول الاصمعى : « أخذ كل الشعراء من طفيل حتى زهير والنابغة » أما النص القديم الصريح على أسبقية طفيل لزهير ، فهو ما وجدناه عند ابن رشيق فى قوله « وكان الحطيئة راوية زهير ، وكان زهير راوية أوس ابن حجر وطفيل الغنوى جميعاً » . أما دائرة المعارف الإسلامية ، وكذلك بروكلمان وهما مصدران موثقان يعتمد على صحة أخبارهما فيرويان أسبقية طفيل لأوس بن حجر أستاذ زهير . ورواية أوس لشعر طفيل ، بل ان بروكلمان ينص على تلمذة أوس لطفيل . أضف الى هذه النصوص الصريحة نصاً آخر لقب فيه القدماء طفيلا الغنوى « بالمحبر » دلالة على ما أحسوه فى شعره من ضروب التزيين والتحسين والصنعة ، هذا بالاضافة الى الخصائص الفنية المشتركة بين الشاعر وشعراء هذه المدرسة من التصوير المادى الدقيق ، والعناية بالتفاصيل والجزئيات ، والحرص على استكمال عناصر الصورة

وخطوطها وألوانها ، والاهتمام بانتقاء الألفاظ ذات الدلالات الصوتيه المعينة والتأليف بينها فى نسق صوتى دقيق ، واحكام صياغة العبارات ، والبراعة فى توليد المعانى الدقيقة ؛ والغوص خلف الأفكار العميقة ، وقد عقدت موازنة بينه وبين أوس وزهير وضحت فيها اشتراكهم فى هذه الخصائص ، كما أبنت عن تأثرهم بالأستاذ الأول طفيل سواء فى الأفكار أو الألفاظ أو الصور . ومضيت بعد ذلك أدرس الظواهر الفنية فى شعر طفيل فلاحظت أول مالاحظت أن منهج القصيدة العربية لم يكن مطردا عند طفيل ، بل خرج فى بعض قصائده على تقاليد القصيدة العربية الموروثة ، فلم يبدأها بالمقدمة الطللية أو المقدمة الغزلية ، إنما بدأ بعضها بالحديث عن الشيب والشباب ، كما بدأ بعضها بوصف الإبل ، وهذا ولاشك اتجاه جديد فى هذا العصر . والتمست للشاعر العذر فى قصيدته الثانية والتى قالها يرثى فيها فرسان قومه فلم يبدأها بالغزل ، وهو بذلك لم يخرج على التقاليد الفنية الموروثة . إنما سار عليها ، لأن قصيدة الرثاء الجاهلية لم تكن تبدأ بتلك المقدمات التقليدية ، وإنما تبدأ مباشرة بموضوعها الأساسى احتراما للموقف الذى تقال فيه . وخشوعا أمام المصير المحتوم الذى ينتهى إليه كل كائن حى . كما وجدناه يخرج على المنهج التقليدى فى قصائد أخرى . أما مقطعاته التى فى ذيل الديوان فقد كانت وليدة تجارب بسيطة يصوغها فى أبيات معدودة يتناول فيها الموضوع مباشرة دون التزام لمنهج القصيدة المتوارث . ثم لاحظت ظاهرة أخرى فى شعره . وهو احتفاله بالتصوير المادى الدقيق مستخدما سائر الحواس من أجل تمثيل الصورة . كما استخدم عنصر التدبيج فى رسم صوره . ومن الركائز التى اعتمد عليها فى تصويره الدقة البالغة فى استخدام الأفعـــال ، والحرص على التفاصيل والجزئيات . كما لاحظنا التصوير الفنى فى شعره بألوانه التشبيه والاستعارة والكناية . وبجانب هذه الألوان البيانية وجدنا ألوانا أخرى من البديع عند طفيل فمنه الجناس الناقص ، والجناس الاشتقاق ، وكذلك الطباق . ثم مضينا ندرس القيم الموسيقية ومميزات شعره من الناحية العروضية ، فوجدنا الأوزان التى طرقها طفيـــل هى نفس الاوزان التى عرفها الشعراء الجاهليون ، ولـــكن طفيلا اختار من بينها الأوزان التى تتسع لروح الحماسة

والفروسية والفخر وطلاقة الوصف ، وقد انحصرت هذه الأوزان فى خمسة بحور الطويل ، ويليه الوافر ، فالبسيط ، فالكامل ، فالرجز . ولاحظنا وجود ايقاع داخلى فى أبياته ، وفى الحقيقة لقد تضافرت عوامل كثيرة أشاعت فى شعره جواً موسيقياً واضحاً منها الصنعة ، والتحسين ، والدقة فى اختيـــار الألفاظ واستخدامها. وما كان يظهر فى شعره من ألوان بديعية . كما لاحظنا فى شعره حسن التقسيم الموسيقى الدقيق ، والتصريع فى طائفة من مطالع قصائده . كذلك لم تغفل عن تسجيل ما وجدناه عنده من اقواء فى القوا فى . كما درست الخصائص التعبيرية فذ كرت الالحاح الذى اعتمد عليه الشاعر فى ابراز معانيه . وقام عنده على ايراد الصفات المتتابعة لشعره . كما لاحظت سلبيته فى التعبير اذ تراه لا يلجأ الى ذكر الصفات الإيجابية المباشرة ، وانما يلجأ الى نفى الصفات المستقبحة . وذكرت دقته فى اختيار الألفاظ المعبرة الموحية ، ولا غرو فقد أطلق عليه النقاد القدماء المحبر أى المحسن لشعره . كما لاحظنا فى طائفة من أبيات طفيل أن البيت لا يشكل وحدة معنوية قائمة بذاتها ، وانما تشكل مجموعات من الأبيات هذه الوحدة ، فهو يقدم الوحدة التعبيرية الأداء على الوحدة الفنية الموروثة . ثم وقفنا بعد هذا عند الخصائص اللغوية فى شعر طفيل، ورأينا أولا أن لغته هى اللغة الأدبية القرشية التى عرفها العصر الجاهلى ، ولكن دخلها شىء من الروية والأناة كذلك لاحظنا — وان كان ذلك قليلا — وجود بعض الألفـــاظ الغريبة وأرجعنا ذلك لقدمه وسكناه البادية ، لذلك فان لغته وربما كان ذلك فى بداية حياته كانت أقرب الى فطرة اللغة العربية وأصدق تمثيلا لها . كما ذكرنا أن المعاجم اللغوية تتكىء على شعر طفيل من مثل لسان العرب ، وتاج العروس . ثم وقفت بعد ذلك عند تأثر طفيل بمن سبقه من الشعراء ، إما تأثراً عفوياً أو مقصوداً وأبرز هؤلاء الذين تأثر بهم امرؤ القيس أشعر شعراء العصر الجاهلى المتقدمين ، والذى نهج للشعراء الجاهليين نهج تقاليد قصائدهم ، وفتح لهم أبواب القول ، وضربت أمثلة من هذا التأثر . كذلك تأثر بأبى دؤاد الايادى ، الذى يسبقه زمنياً ويشاركه فى التفوق فى وصف الخيل . وكما تأثر طفيل بسابقيه فقد أثر فى لاحقيه . وقد لاحظ الأصمعى هذه الظاهرة فقال : « وقد أخذ طفيل من

امرىء القيس شيئاً » كما قال : « أخذ كل الشعراء من طفيل حتى زهير والنابغة » وضربت أمثلة لهذا التأثر سواء فى المعانى أو الألفاظ أو الصور .

ومضيت بعد ذلك الى المنزلة الفنية التى احتلها شاعرنا و نص عليها القدماء فى مجال النقد الأدبى ، فهو أوصف العرب للخيل ، وهو الملقب بالمحبر لحسن شعره ، وقد فضله الأصمعى فى شعره على امرىء القيس . كما فضله على النابغة ، وزهير وأوس فى وصف الخيل . كما ذكر أنه أشبه بالشعراء الاوابن من زهير ، ونص ابن رشيق وبروكلمان على أستاذيته لأوس وزهير . وقد أحبه رجال الجـــد والعمل واستشهدوا بشعره كأبى بكر الصديق . ومعاوية بن أبى سفيان . وعبد الملك بن مروان . كما استشهد به غيرهم من أعراب البادية . وقد نص القدماء على فحولته . والفحولة فى نظر الأصمعى مرتبة فنية . فهو يريد بالفحل ما كانت له مزية على غيره من الشعراء كمزية الفحل على سواه . ودرست قضية الفحولة فوجدتها تقوم عند القدماء على مقاييس الكم فى عدد القصائد ، والجودة ، وصحة النسبة .

وبعد فهذا هو طفيل الغنوى فى حياته وشعره ، والله ولى التوفيق .

« المصادر والمراجع »

أ – المصادر القديمة

ب – المراجع الحديثة

ج – المخطوطات

د – المراجع الأجنبية

المصادر والمراجع

١ ـ المصادر القديمة

١ ــ الأخفش : نخبة من كتاب الاختيارين ، المطبعة اللطيفية ، دلهى ١٩٣٦م.

٢ ــ الأزرقى : أخبار مكة ، طبعة ليبسيك ، مطبعة القاهرة ١٣٥٧هـ .

٣ ــ الآمدى : المؤتلف والمختلف ، القدسى بالقاهرة ١٣٥٤ هـ.

٤ ــ الأصفهانى : الأغانى ، طبعة ساسى ، ودار الكتب حسب ما يذكر فى الهامش .

٥ ــ الأصمعى : الأصمعيات ، طبعة دار المعارف ، تحقيق الأستاذين عبد السلام هارون ، وأحمد محمد شاكر ١٣٨٥هـ ــ ١٩٥٠م .

٦ ــ الأصمعى : فحولة الشعراء ، المطبعة المنيرية بالأزهر ، تحقيق الأستاذين محمد عبد المنعم خفاجى ، وطه الزينى .

٧ ــ الأصمعى : الخيل ، فينا ١٨٩٥م .

٨ ــ امرؤ القيس بن حجر الكندى : ديوانه ــ ضمن مجموعة الأعلم الشنتمرى ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ، القاهرة ٣٤٨ هـ ــ ١٩٢٩م .

٩ ــ ابن الأنبارى : شرح المفضليات (بيروت ١٩٢٠ م) .

١٠ ــ ابن الأنبارى : نزهة الألباء فى طبقات الأدباء الطبعة الحجرية (بالقاهرة ١٢٩٣ هـ) .

١١ ــ البحترى : كتاب الحماسة (القاهرة ١٩٢٩ م) .

١٢ ــ البخشى : رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد .

١٣ ــ البطليوسى : الاقتضاب ، بيروت ١٩٠١م .

١٤ ــ البغدادى : خزانة الأدب (طبعة بولاق) .

١٥ — البكرى: معجم ما استعجم (لجنة التأليف والترجمة ١٣٨٧هـ - ١٩٥٨م).
١٦ — البكرى: سمط اللآلىء، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٦م.
١٧ — التبريزى: شرح حماسة أبي تمام، بولاق ١٢٩٦هـ.
١٨ — التنوخى: المستجاد من فعلات الأجواد، تحقيق محمد كرد على، دمشق ١٣٦٥هـ — ١٩٤٦م.
١٩ — الثعالبى: لطائف المعارف، لندن.
٢٠ — ثعلب: شرح ديوان زهير (دار الكتب المصرية ١٩٤٢م).
٢١ — الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٣٨م.
٢٢ — الجاحظ: البيان والتبيين — تحقيق حسن السندوبى، القاهرة، مطبعة الاستقامة ١٣٦٦هـ — ١٩٤٧م.
٢٣ - الجوهرى: الصحاح، دار الكتاب العربى ١٣٧٧هـ.
٢٤ — ابن حبيب: المحبر، طبع الهند ١٩٤٢م.
٢٥ — ابن حبيب: من نسب إلى أمه من الشعراء، تحقيق عبد السلام هارون، ضمن مجموعة من الرسائل، نوادر المخطوطات، طبع لجنة التأليف والترجمة ٣٧٠هـ — ٩٥١م.
٢٦ — ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، دار المعارف ٩٤٨م.
٢٧ — ابن خالويه: ليس فى كلام العرب القاهرة ١٣٢٩هـ.
٢٨ — ابن خلدون: تاريخه (القاهرة ١٩٣٦م).
٢٩ — ابن خير الاشبيلى: فهرسة (الطبعة الجديدة مؤسسة الخانجى القاهرة).
٣٠ — ابن دريد: الاشتقاق (جوتنجن ١٨٥٤م).
٣١ — ابن رشيق: العمدة (طبعة أمين هندية).
٣٢ — الزبيدى: تاج العروس طبع المطبعة الخيرية ١٣٠٦هـ.

٣٣ — الزمخشري : الفائق في غريب الحديث (حيدر اباد الدكن ١٣٥٤ هـ) .

٣٤ — الزمخشري : أساس البلاغة .

٣٥ — زهير بن أبي سلمى : ديوانه ، ضمن مجموعة الأعلم الشنتمري ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ١٣٤٨هـ — ١٩٢٩م .

٣٦ — أبو زيد : النوادر في اللغة ، بيروت ١٨٩٤م .

٣٧ — السجستاني : كتاب المعمرين (ليدن) .

٣٨ — ابن السكيت : الأضداد ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩١٢م .

٣٩ — ابن السكيت : شرح ديوان عروة بن الورد (الجزائر ١٩٢٦م) .

٤٠ — ابن السكيت : اصلاح المنطق ، دار المعارف ١٩٥٦م .

٤١ — ابن السكيت : تهذيب الألفاظ ، بيروت ١٨٩٥م .

٤٢ — ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، طبع دار المعارف سنة ١٩٢٥م .

٤٣ — ابن سيده : المخصص ، المطبعة الأميرية ، بولاق ١٣١٦هـ .

٤٤ — السيوطي : المزهر القاهرة ١٣٢٥هـ .

٤٥ — ابن الشجري : كتاب الحماسة ، طبع حيدر آباد ١٣٤٥هـ .

٤٦ — الشريشي : شرح مقامات الحريري ، القاهرة ١٣٠٠هـ .

٤٧ — الطبري : تاريخه (الحسينية بالقاهرة) .

٤٨ — طفيل الغنوي : ديوانه ، تحقيق المستشرق كرنكو ، لجنة جيب التذكارية ١٩٢٧م ، وتحقيق المؤلف ، بيروت ١٩٦٨م .

٤٩ — ابن عبدربه : العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٣٦١هـ — ٩٤٢ م) .

٥٠ — أبو عبيدة : شرح نقائض جرير والفرزدق (لندن ١٩٠٥ م) .

٥١ — أبو عبيدة : كتاب الخيل ، الهند ١٣٥٨هـ .

٥٢ — عنترة بن شداد: ديوانه ، ضمن مجموعة الأعلم الشنتمرى ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ١٣٤٨هـ — ١٩٢٩م

٥٣ — ابن أبى عون : التشبيهات كمبريدج ١٩٥٠م .

٥٤ — العينى : المقاصد النحوية (على هامش خزانه الأدب ، للبغدادى ، بولاق ١٢٩٩هـ) .

٥٥ — ابن فارس : مجمل اللغة ، مطبعة السعادة ١٣٣١هـ.

٥٦ — الفيروزابادي : القاموس المحيط ، طبع المكتبة التجارية .

٥٧ — القالى : الآمالى ،دار الكتب ١٣٤٤هـ —١٩٢٦م.

٥٨ — ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، المطبعة التجارية ١٣٢٢هـ .

٥٩ — ابن قتيبة : المعارف ، المطبعة الإسلامية ١٩٣٤م.

٦٠ — ابن قتيبة : عيون الأخبار ، دار الكتب المصرية ١٩٢٥م .

٦١ — ابن قتيبة : المعانى الكبير ، حيدر آباد ١٩٤٩م .

٦٢ — ابن قتيبة : أدب الكاتب ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، المطبعة الرحمانية ١٣٥٥هـ .

٦٣ — ابن قتيبة : الأنواء ، حيدر آباد ١٩٥٦م .

٦٤ — قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، مطبعة بريل ١٩٥٦م .

٦٥ — القلقشندى : صبح الأعشى.

٦٦ — ابن الكلبى : أنساب الخيل ، تحقيق أحمد زكى ، دار الكتب المصرية ١٩٤٦م.

٦٧ — ابن الكلبى : كتاب الأصنام (دار الكتب المصرية ١٩٢٤م) .

٦٨ — المبرد : الكامل تحقيق الدكتور زكى مبارك ١٣٥٥هـ — ١٩٣٦م .

٦٩ — محمد بن زياد الأعرابى : أسماء خيل العرب وفرسانها ، تحقيق جرجيس لوى دولا ويدا ، مطبعة بريل ١٩٢٨ م .

٧٠ — المرتضى : (الشريف المرتضى) آمالي المرتضى ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار الكتب ١٢٧٣هـ — ١٩٥٤م .

٧١ — المرزباني : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء (القدسي بالقاهرة ١٣٥٤هـ)

٧٢ — المرزوقي : شرح ديوان الحماسة (نشر أحمد أمين ، وعبد السلام هارون ١٩٥١م).

٧٣ — المرزوقي : الأزمنة والأمكنة (حيدر آباد ١٣٣٢هـ) .

٧٤ — المفضل الضبي : المفضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون ، طبع مطبعة المعارف ١٣٦١هـ .

٧٥ — ابن منظور : لسان العرب ، طبع بولاق ١٣٠١هـ .

٧٦ — الميداني : مجمع الأمثال (بولاق ١٢٨٤هـ) .

٧٧ — النابغة الذبياني : ديوانه ، ضمن مجموعة الأعلم الشنتمري .

٧٨ — ابن النديم : الفهرست ، المكتبة التجارية مصر ١٣٤٨هـ .

٧٩ — النويري : نهاية الأرب ، دار الكتب ١٣٤٢هـ — ١٩٢٤م .

٨٠ — ابن هذيل الأندلسي : حلية الفرسان وشعار الشجعان ، تحقيق محمد عبد الغني حسين ، طبع دار المعارف ١٩٥١م .

٨١ — ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، طبع القاهرة ١٣٥٦هـ — ١٩٣٧م .

٨٢ — أبو هلال العسكري : ديوان المعاني ، القاهرة ١٩٥٢م

٨٣ — أبو هلال العسكري الصناعتين : دار احياء الكتب العربية ١٩٥٢م .

٨٤ — الهمداني : صفة جزيرة العرب ، أبريل ١٨٨٤م .

٨٥ — ياقوت : معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ١٣٧٤هـ — ١٩٥٥م .

٨٦ — اليعقوبي : تاريخه (ليدن ١٨٨٣ م) .

« المراجع الحديثة »

٨٧ — أحمد أبي علي : المنتحل في تراجم شعراء المنتحل ، المطبعة التجارية بالاسكندرية ١٩٠١م .

٨٨ — أحمد أمين: فجر الإسلام، الطبعة الثالثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٥م.

٨٩ — أحمد أمين : ضحى الإسلام ، مطبعة الإعتماد ١٣٥١هـ — ١٩٣٣ م .

٩٠ — أحمد محمد الحوفي : الغزل في الشعر الجاهلي ، القاهرة ١٩٥٣م .

٩١ — اسكندر أغا ابكاريوس : روضة الأدب في طبقات شعراء العرب، بيروت ١٨٥٨م .

٩٢ — بطرس البستاني : دائرة المعارف .

٩٣ — جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية (باعتناء الدكتور شوقي ضيف) ، القاهرة ، مطبعة دار الهلال ١٩٥٧م .

٩٤ جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام (مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٩٥٤ — ١٩٦٠م) .

٩٥ — الزركلي : الاعلام ، القاهرة ١٩٥٩م .

٩٦ — شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، مكتبة الأندلس ، بيروت الطبعة الثالثة .

٩٧ — شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي — العصر الجاهلي، طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٠م .

٩٨ — شيخو : شعراء النصرانية ، بيروت ١٩٠٠م .

٩٩ — شيخو : النصرانية وآدابها ، بيروت ١٩١٢م .

١٠٠ — طه حسين : في الأدب الجاهلي .

١٠١ — علي الهاشمي : المرأة في الشعر الجاهلي ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٦٠م.

١٠٢ — فيليب حتى : تاريخ العرب (مطول) بيروت ١٩٥٨م .

١٠٣ — محمود شكرى الالوسى : بلوغ الأرب فى أحوال العرب ، بغداد ١٣٢٤هـ

١٠٤ — محمود شكرى الالوسى : المسك الأذفر .

١٠٥ — المرصفى : رغبة الآمل من كتاب الكامل ، مطبعة النهضة ١٩٢٧م .

١٠٦ — مصطفى صادق الرافعى : تاريخ آداب العرب ١٢٢٩هـ .

١٠٧ — ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلى، طبع دار المعارف ١٩٥٦م .

١٠٨ — وليم آلورد : مجموع أشعار العرب ، ليبسيغ ١٩٠٢ م.

١٠٩ — يوسف بطرس غالى: تقاليد الفروسية عند العرب، طبع المعارف ١٩٦٠م.

١١٠ — يوسف خليف : الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ، طبع دار المعارف ١٩٥٩م .

١١١ — يوسف خليف : مقدمة الأطلال فى القصيدة الجاهلية « المجلة » ، السنة التاسعة ، العدد ١٠٠ ابريل ١٩٦٥ م.

جـ - المخطوطات

١١٢ — ابن الأحنف : مختصر كتاب البيطرة (٢٢٣ طب معهد المخطوطات).

١١٣ — أبو بكر البدر البيطار المصرى : كامل الصناعتين البيطرة والزردقة، (مخطوط ٢٠٢ طب ، معهد المخطوطات).

١١٤ — الثعالبى : كتاب الشعراء (مخطوطة بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٣٢٨١ تاريخ)

١١٥ — الثعالبى : لباب الآداب فى لطائف ألفاظ المخاطبات والمكاتبات، مخطوط يشتمل على تراجم للشعراء الجاهليين ، محفوظ بمكتبة المرحوم الأستاذ عباس العزاوى المحامى بالعراق .

١١٦ — ابن حبيب : كتاب المقتالين (نسختان بدار الكتب المصرية ، خطية تحت رقم ٥٧ ش أدب ، ومصورة تحت رقم ٢٦٥٦ تاريخ).

١١٧ — على بن المؤيد الغسانى : التذكرة فى معرفه البيطرة ، مخطوط ٥٢ طب معهد المخطوطات .

١١٨ — ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار ، مخطوطة مصورة فى دار الكتب ، رقم ٢٥٦٨ تاريخ .

١١٩ — أبو عبيد القاسم بن سلام . الغريب المصنف (مخطوطة بدار الكتب ١٢١ لغة) .

١٢٠ — ابن المبارك . منتهى الطلب مخطوطـــة مصورة بدار الكتب تحت رقم ٢٥٦٨ ، تاريخ ، ٥٣ ش .

١٢١ — النيسابورى . لطائف المعارف (مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٩٢ أدب) .

د — المراجع الأجنبية

١٢٢ — كارل بروكلمان . تاريخ الأدب العربى ، الجزء الأول ، ترجمة المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار ، دار المعارف ١٩٥٩م .

١٢٣ — نالينو . تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية (مترجم)، دار المعارف ١٩٥٤م .

١٢٤ — غوستاف فون غرنباوم . دراسات فى الأدب العربى (مترجم)، بيروت ١٩٥٩م .

١٢٥ — بلاشير . تاريخ الأدب العربى(مترجم) ، مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٦م .

١٢٦ — مقدمة ديوان طفيل باللغة الإنجليزية .

١٢٨ — Journal of the Royal Asiatic Society 1907 , 815 — 888 .

١٢٩ — Nicholson, a Literary History of the Arabs

١٣٠ — O'Leary, Arabia before Muhammad .

هذا إلى جانب الانتفاع بدائرة المعارف الإسلامية .

١٣١ — The Encycloepedia of Islam

فى المواد المتصلة بالحياة العربية فى العصر الجاهلى ، وترجمتى أوس بن حجر ، وزهير بن أبى سلمى ، وقبيلة غنى .

فهرس

مطابع الناشر العربى
٨ شارع الصحافة ــ القاهرة
تليفون ٩٧٦٢٤٨



مطابع الناشر العربى
٨ شارع الصحافة ــ القاهرة
تليفون ٩٧٦٢٤٨

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية
١٩٧٩ / ٥٠٠٥